الأسيف



الكتـــــاب : الأسيف
المـــــؤلـــــف : ياسمين قنديل
تـدقيـق لغـوي: محمود عبد الرازق جمعة
تنسيـق داخلي : سمر محمد
الطبعة الأولى: ينـــايـــر 2019
رقـــم الإيـــداع : 2019/2525
I.S.B.N : 978-977-6542-37-2

المدير العام:محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

عصير الكتب للنشر والتوزيع





ياسمين قنديل



إهداء

إلى من تمنيتُ أن تحظى روايتي بشرف قراءته، ولم تنله،

إلى أبي

اشتاقت إليك الأشياء، واشتاقت إليك الحياة،

واشتقت إليك أنا

رحمة الله عليك يا حبيب.

سلامًا على تلك الأماكن التي جعلتْ من نفسها

مُتَّسَعًا للهرب من أماكن الذكريات.

(تمهيد)

«إليك/ ...

لقد كنتُ كاذبة عندما ادعيتُ عدم معرفة صاحب الصوت وأنا التي لم تنسَه لحظة، وأن البحة في صوتي إثر نزلة برد وهي لم تكن سوى ارتجافة عندما ذكرت اسمك، ونبضات قلبي المتسارعة أثبتت أنك موجود بداخلي لم تتركني يومًا، وأن قوة نبراتك هزمتني، وعدم سؤالك عن أحوالي كسرني، وأنني في كل مرة توهمتُ أنني نسيتك كنت أتذكرك أكثر، وأنك داء لا علاج منه سوى رحمة من الله تجود على قلبي بنسيانك».

• • •

كمدرج فيرونا الروماني[1] تراصت المقاعد بانتظام داخل قاعة مستطيلة الشكل، احتلت المقاعد ذات الأقمشة الحمراء المخملية الصفوف الأولى بوافر من الفخامة، تحمل عنوانًا ضمنيًا على لافتة وهمية كُتب عليها: «للشخصيات المهمة فقط»، في ما استتر سائر المقاعد بنوعية من الجلد الرخيص تُنبئ بمكانة من سيجلس عليها.

(١)يقع مدرج فيرونا بمدينة فيرونا الإيطالية، وقد أُنشئ في العصور الرومانية الأولى، وكانت تقام به الحفلات الشعرية والموسيقية ومصارعات الثيران والألعاب الرومانية.

أثبتت مصابيح القاعة وجودها بإضاءة قوية أبرزت تفاصيل المكان، انفتحت الأبواب، وبدأت الجموع بالتدفق، وانضمت إلى المقاعد الخلفية أفواج من ذوي الأعمار العشرينية المتأججة بروح الشباب، طلبة وحديثي تخرج ملؤوا القاعة عن آخرها، أجساد هزيلة، ملابس متواضعة، أعين لمعت ببريق الحماس المنبثق من قلوب مشتاقة إلى الاستماع.

دلف كبار الزوار بتأنٍ خلق لهم هالة من الحزم، استقروا كخُشُب مسنَّدة بعضهم بجانب بعضٍ في الصفوف الأولى متخذين من التجهم صديقًا، لاعتقاد ضرب أوتاده في نفوسهم أن هذا من كماليات الوقار، ينحون أنظارهم عن صعلكة ظنوا أنها التصقت بمن ورائهم.

تعالت الهمهمات والأحاديث المتبادلة وتجمعت حتى صارت كطنين النحل، أسكتتها دقات إصبع متتالية على ميكروفون بحجم حبة الزيتون لمتحدث يقف على منصة المسرح، وبدأ حديثه بصوت حيوي بعد تأكده من استقرار الطير على رؤوسهم:

- أرحب بهذا الجمع الطيب من كبار الزوار والشخصيات المهمة، وبشبابنا اليافع حلم المستقبل، ويشرفني أن أقدم قامة علمية جليلة حصدت كثيرًا من الجوائز في مجال طب المخ والأعصاب لهذا العام، أدعوكم لترحبوا معي بالدكتور عبد القادر سند.

ضجت القاعة بالتصفيق الحاد الذي تردد صداه في أنحائها فظهر بضِعف وقعه.

برز بعينين زرقاوين حادتين، وصلعة عكست لمعة الضوء إلا من بعض الشعيرات في المنتصف تمسكت بحقها الشرعي في الأرض، وأبت الانضمام لأي من الجانبين اللذين اختلط سوادهما ببعض الشعيرات البيضاء حديثة الظهور، ببذلة رمادية فقدت بريقها الأول من تكرار ارتدائها، وقميص أبيض تحرر من رابطة العنق، استقر أمام الميكرفون بثبات من اعتاد الأمر، وشرع في حديثه متجاوزًا التحية بعد أن أخرج حبة بيضاء من جيبه ووجَّهها للحضور قائلًا:

- وفقًا لدراسات أجريت عن مدى تأثير هذا العقار، أظهرت النتائج أنه نجح بشفاء ٩٧٪ من مصابي الاكتئاب عند تناوله.

قذف بالقرص إلى فمه فالتقمه سالكًا الطريق إلى معدته، وأردف متذوقًا:

- مذاقه حلو، الشركة التي صنعته شركة رائعة، لا لأنها صنعت دواء حلو المذاق بالتأكيد، فهي لم تأتِ بجديدٍ في هذا، بل لأنها نجحت في إقناع المرضى بتناول الوهم.

غزت المفاجأة كثيرًا من الوجوه القابعة أمامه، فأكمل مؤكدًا:

- نعم يا سادة، ما تناولته الآن لم يكن سوى سكر عُبئَ على شكل أقراص، الـ«Placebo» [1] أو العلاج الوهمي علاج خالٍ من أي مادة فعالة، لا يفعل شيئًا غير أنه يُوهم المريض بأنه يتناول الدواء الصحيح، فيتحسن! طُبق على كثير من المرضى، وكانت النتائج مذهلة».

(١)أول تجربة أجريت لمدى فاعلية الدواء الوهمي كانت في القرن الثامن عشر.

لاح من منتصف القاعة بتحية هتلر فسمح له الدكتور عبد القادر بإيماءة من رأسه:

- لكن أستاذي الفاضل، ألا يندرج هذا تحت خداع المريض؟

- هل وقعت في حب فتاة من قبل؟

بوغت السائل بسؤال الدكتور عبد القادر، فقال بشيء من الارتباك:

- وما علاقة هذا بسؤالي؟

- أجبني.

زوى الطالب ما بين عينيه، وبصوت اختنق من أثر غصة مفاجئة أجاب:

- نعم.

- يبدو أنه انتهى نهاية حزينة.

أطرق الشاب رأسه ولم يعقب، فتابع الدكتور مضيقًا عينيه:

- صدقني إن أخبرتك أن هذا القرص عقار للنسيان ستهرع لتناوله بانتظام، أملًا في شفائك من مرض الذكريات اللعين دون معرفة كثير عن خلفية هذا العقار. بعض الأشياء من الأفضل أن تبقى في الظلام بعيدًا عن الأعين، ما حاجة المريض إلى معرفة تفاصيل لن تفيده بشيء ما دام ما سيتناوله سيمنحه نومًا هادئًا وعيشًا طيبًا بعد أن حُرم منهما؟

جلس الفتى وهو يلعن بداخله هذا الشخص الذي هيج بسؤاله عواصف الوجع على سفينة قلبه الملتاعة، فصمت الدكتور برهة، ثم أكمل:

-العلاج الوهمي أثبت فاعليته في الشفاء، ولكن للأسف بعد فترة من الزمن تعود أعراض المرض ثانيةً كأن شيئًا لم يحدث، خصوصًا إن كان المرض من الأمراض التي لم يُكتشف لها علاج بعد، مثل السرطان والشلل الرعاش، وإن كانت نتائجه في الأمراض النفسية أفضل بكثير وأطول زمنًا.

روى جفاف أحباله الصوتية بجرعة من الماء، ثم تنحنح ليبدأ جولته الجديدة قائلًا:

-المخ يحتوي على مئة مليار خلية عصبية، إن وصلنا إلى هذا الحد في التمكن من استغلال العقل ليوحي للجسم بأنه في طريقه للشفاء، فما المانع من المواصلة ومحاولة التطوير؟ ما المانع من التحدي؟ أن نتحدى العقل، نستفزه ونستثيره ليرينا أفضل ما عنده، هل هذه القدرات التي يُظهرها لنا هي أقصى قدراته؟ أم أنه يحوي كثيرًا وكثيرًا مما لا نعلمه؟ إن العقل ما زال يبهرنا بقدرته على المزيد، ويثبت لنا يومًا بعد يوم أنه كنز قابع داخل إنسان لا يعلم عنه سوى أنه مخزن يُحشى بالمعلومات نهاية كل عام ليجتاز سنته الدراسية.

انتشرت أمارات التفكير على وجوه الجالسين، فأراد طرق الحديد وهو ساخن، فأكمل بابتسامة تحمل بين طياتها شيئًا من الخبث:

- وسؤال أخير أود طرحه عليكم، وليكن الحلوى التي ستتناولونها الليلة بعد وجبة العشاء: هل أنت من تتحكم بعقلك؟ أم أن عقلك هو الذي يتحكم بك؟

• • •

(١)

(M. I. P)

صداع بعمر ألف عام استقر برأسي، أشعر به وهو يجتاح تعرجات مخي دون قيد أو شرط، يقتحمها، يرجها بعنف زلزال قوته ٨ درجات على مقياس ريختر، محاكمة صاخبة أُقيمت برأسي، تسيدت الموقف فيها مطرقة القاضي التي لا تكف عن الطرق، نبضٌ مستمر على جانبي جبهتي، عطش سبع سنين عجاف استقر بحلقي، ممددًا على سرير لا أستطيع الحراك، كأن جيشًا من النمل احتل جسدي، جبلان استقرا فوق عينيَّ، لا أعلم كم استغرقتُ من الوقت كي أزيحهما ببطء عن أطراف أجفاني، فتحت عينيَّ رويدًا رويدًا، آلمني الضوء الأبيض القوي المنبعث من المصباح المعلق فوقي مباشرةً. كل شيء ضبابي ومبهم.

درت بعينيَّ ببطء دورتين عكس بعضهما لأستكشف ما حولي، لم أرَ شيئًا يرد البصر، كل ما حولي سواد بعيد عن دائرة مصباحي، التقطت أذني صوتًا بعيدًا لم أتبين كلماته، وضع الجهد أثقاله على كاهلي أكثر فلم أستطع المقاومة، سكن كل شيء واستلبني النوم.

• • •

-أنت، أنت، استيقظ.

كان استيقاظي هذه المرة أفضل، الصداع أخف وطأة، والصوت أقرب، صوت أنثوي، فتحت عيني وقد انقشعت السحب عن رؤيتي، وحلقي ما زال على حاله، تحاملت لأجلس بعد إحساسي بتحرر جسدي من سطوة التنميل، فرأيت المكان بشكل أكثر وضوحًا، غرفة متوسطة الاتساع، قليلة التفاصيل، حوائطها رمادية موشومة ببقع بيضاء رخوة، خالية من النوافذ إلا من فتحة مربعة عالية ضلعها الرابع السقف، في جانب منها ساتر طبي بإطارات حديدية بينها ستائر بيضاء بصقت عليها الأتربة فبهتت، بلاطها باللون الأسمنتي، يميل الجو إلى البرودة، يبدو أن المكان هُجر منذ زمن، أجهزة بجانب سريري تحمل شاشات بها أرقام وخطوط متعرجة، تُصدر صوتًا منخفضًا بإيقاع منتظم، تمد أطرافها الرفيعة إلى معصمي وإلى صدري بأقطاب دائرية تتشبث بجلدي، النصف العلوي من جسدي عارٍ، والنصف السفلي احتواه بنطال أسود، وأنا...

أنا؟

شعرت بازدياد وتيرة الصداع فجأة وأنا أحاول التذكر! أغمضت عيني وحاولت التركيز، لكن لا شيء! عقلي ورقة بيضاء، أنظر إليها مرارًا وتكرارًا لعل حبرها السري يشفق عليَّ ويكشف عن مكنوناته فجأة، لكن دون جدوى، لا شيء يخرجه عقلي ويتلقفه قلبي لأطمئن.

رفعت بصري فوجدتُ صاحبة الصوت الذي أيقظني من غياهب النوم، طوت الأرض تحتها بخطوات سريعة ذهابًا وإيابًا مرات عدة

برأس مُطرِق غارق في التفكير، وبصوت مسموع يميل إلى الهمس حدثتْ نفسها:

-لماذا؟ لماذا فُصلت عن البقية؟ من المؤكد أن بك أمرًا ما مختلفًا.

كعجوز لم يبقَ له من الحياة إلا رمق خرج صوتي من أعماق جوفي:

- أشعر بالعطش.

التفتت إليَّ كأنها تذكرت وجودي فجأة، اقتربت من سريري والتقطت لوحًا معدنيًا كان مُعلقًا به، وانتقلت بعينيها سريعًا بين أوراقه ثم اتجهت إلى الأجهزة بجانبي وأخذت تتفحصها.

-«أشعر بالعطش». كررتها ثانيةً.

اكفهر وجهها، تنهدت وهي تستل قارورة من حقيبة قماشية كانت تحملها، وناولتني إياها لإسكاتي، أفرغتُها دفعة واحدة في جوفي، فشعرت كأنني ميت بُعث من جديد، لكن روحي ما زالت تائهة.

سكتُّ بعدها محاولًا الرجوع إلى عقلي التائه، لكنها جذبت كرسيًا معدنيًا كان مختبئًا وراء الساتر الطبي، وضعَته أمامي وجلسَت، نظرَتْ إلي بحدة سائلة:

-لماذا أتوا بك هنا وحدك؟ منذ متى وأنت بعيد عن البقية؟

-البقية؟ من البقية؟ أنا لا أتذكر شيئًا.

- لا تتذكر شيئًا مما حدث لك قبل نقلك؟

- لا أتذكر شيئًا على الإطلاق.

- بمعنى؟

- لا أتذكر من أنا وما الذي أتي بي إلى هنا!

بُهتت عندما تلفظت بجملتي الأخيرة، تصفحت الأوراق على اللوح المعدني مرة أخرى وهي تقول:

-لا شيء مذكور هنا، لا بيانات، ولا تاريخ للحالة، لا شيء إلا اسم: أمجد.

شعرت بالصداع يستبيح رأسي مجددًا بقوة بعد ذكرها للاسم، تجعد وجهي من أثر الألم فأردفتِ:

- يبدو من ردة فعلك أنه اسمك.

بحيرة ارتدت ثوب الغضب وبنفاد صبر تحركتُ من سريري وأنا أنزع عن يدي وصدري الأسلاك المتعلقة بهما وأسألها:

- من أنتِ؟ وما هذا المكان؟ وماذا أفعل هنا؟

بتوسل قالت:

- أرجوك اهدأ، واخفض صوتك، فهذا ليس آمنًا لنا».

-لن أهدأ قبل أن أفهم.

-حسنًا، حسنًا، سأفهمك كل شيء، لكن رجاءً: اخفض صوتك واجلس.

جلستُ متحفزًا، فبدأتْ حديثها بشيء من الارتباك:

-أنا الدكتورة ميسون، طبيبة نفسية.

طقطقت أصابعها، وابتلعت ريقها، وأكملت:

- للأسف بشكل ما أنا مُشاركة في الجريمة التي تُمارس عليك.

أيقظتْ كلمة جريمة كل خلايا الانتباه بعقلي دفعة واحدة، رشقتها عيناي بألف سؤال لن تستطيع شفاهي حصرها فتابعتْ مؤكدة:

- «أنت عينة ضمن حقل تجارب بشرية تخضع لتطبيق تجربة:(Memories Implantation Project, (MIP)).

تلقّتْ نظرات التيه من جانبي، فأكملت وهي مطأطئة الرأس:

- «مشروع زراعة الذكريات».

• • •

(٢)

(مشروع زراعة الذكريات)

الشتات، فجوات هائلة داخل روحك لا تستطيع قياسات العالم حصرها، نيازك غير مرئية أصابتك وخلفت وراءها دمارًا شاملًا لا تقوى على ترميمه، فقررت التعايش معه. أشعر بتلك النيازك بروحي، وأجهل سببها، لكنني ضُربت بنيزك للتو معلوم السبب، نيزك «مشروع زراعة الذكريات». لم أفهم علامَ تدل هذه الكلمات الثلاث، لكن كلمة «جريمة» وملامح ميسون البائسة وصوتها الحزين كانت كافية لأشعر بانقباض ووجع.

صمت ثقيل أحكم عقد حباله على الكلمات فتوارت أحرفها، لكنني فصمتها بسؤال صارم لا يحتمل تأخير الإجابة:

- ماذا يعني ما قلتِه للتو؟ ما معنى أنني ضمن حقل تجارب لهذا المشروع المُسمى بـ، بـ.

- زراعة الذكريات.

دارتْ بعينيها إلى السقف وهي تخرج نفسًا عميقًا، ثم أمالت رأسها للأرض وقالت:

- في البداية كان الأمر خياليًا، يمكن كتابته كفكرة خيالية لرواية أو فيلم، لكن مع الثورة العلمية التي حدثت في القرن الأخير وبإجراء عدة تجارب أصبح الأمر ممكنًا.

سحبتْ ما يكفيها من الهواء لمواصلة الكلام، وأردفت:

- بدأ الأمر عندما أجرت (كيمبرلي واد) الحاصلة على درجة الدكتوراه في علم النفس تجربة[1] على مجموعة من الأشخاص تأكدتْ من أمهاتهم أنهم لم يركبوا المنطاد طيلة حياتهم، وأخذت صورًا لهم وهم صغار، وعدلتها لتُظهرهم في منطاد، ثم سألتهم عن هذه الذكرى، وكانت المفاجأة أن ٥٠٪ منهم تفاعلوا مع الذكرى وأكدوها، بل إن منهم من سرد تفاصيلها! رغم أنها لم تحدث على الإطلاق، استطاعت بصورة واحدة فقط زرع ذكرى في عقولهم، وإثارة شجونهم وعواطفهم نحوها.

توقفتْ لحظات، ثم أكملت بنبرة حماسية:

- فكر العلماء بعد ذلك في أنه إن كانت تجربة صغيرة إلى هذا الحد استطاعت أن تخلق ذكرى من العدم، فماذا لو تعاون علماء الطب النفسي مع أطباء المخ والأعصاب في دراسة الموضوع بشكل أكثر عمقًا ومنهجية؟ ماذا سينتج عن هذا؟ إلى أي حد يمكننا أن نصل في زراعة الذكريات في العقل البشري؟ إلى أي حد يمكننا أن نعلو بالنسبة من خمسين بالمئة

---

(١)أجريت التجربة عام ٢٠٠٢م.

إلى ثمانين وتسعين بالمئة؟ تساؤلات كثيرة لم نملك لها إجابة سوى بالتجربة، وبالفعل بدأت الدراسات والأبحاث العلمية، وأجري عديد من التجارب على الفئران على مدار سنوات، حتى استطاع العلماء أخيرًا زرع ذكرى سعيدة داخل أمخاخ الفئران مرتبطة بمكان ما لم يمروا فيه بأي مشاعر من قبل قط، بل تطور الأمر أكثر باستخدام تقنية الـ **Optogenetics**[١] في التحكم عن بُعد في تثبيت ذكرى ما أو محوها دون أي تدخل جراحي للمخ وبشكل آمن[٢]».

صمتتْ برهة، ثم أكملتْ بنفس الحماسة:

-أحدث هذا الأمر ضجة علمية كبيرة، لك أن تتخيل أننا بزراعة ذكريات يسيرة نستطيع فعل كثير، نستطيع أن نفيد البشرية بشكل أكبر، نستطيع أن نجعل العمال يحبون عملهم عن طريق زراعة ذكريات سعيدة عن هذا العمل فتزداد حماستهم، ويزيد الإنتاج ويخرج بجودة عالية، نستطيع أن نجعل الطلاب يحبون الدراسة فيصبحون ناجحين ويفيدون مجتمعهم، نستطيع الحد من السمنة عن طريق زرع ذكريات سيئة عن الأكل غير الصحي، نستطيع معالجة كثير من المرضى النفسيين وإنقاذهم من الاكتئاب الذي يؤدي بهم إلى الانتحار، نستطيع وقف كثير من الجرائم في المجتمع التي دافعها الانتقام من قِبل أشخاص تعرضوا لأشياء مأساوية في طفولتهم، نستطيع أَن نخلق لهم عالمًا أجمل وأفضل و....

(١) تقنية استخدام الضوء للتحكم في خلايا المخ العصبية.

(٢) أُجريت التجربة عام ٢٠١٥م.

قاطعتُ حماستها:

- وكاذب.

صدمتْها كلمتي، فهاجمت مدافعة:

- مواز، وليس كاذبًا، هذا العالم الذي كانوا يستحقونه من الأساس، هذا العالم الذي كان يجب أن ينشؤوا فيه، ليس ذنبهم أنهم قبلوا بعمل لا يحبونه لأجل لقمة العيش، ليس ذنبهم أنهم نشؤوا بين أم وأب غير مؤهلين لهذه الوظيفة، فانطبع هذا عليهم من عدم اهتمام وقسوة وعنف، ليس ذنبهم أنهم وضعوا تحت وطأة متحرشين عبثوا بأجسادهم وتكوينهم النفسي، ليس ذنبهم أنهم كبروا في مجتمع لا يهتم إلا بالشكليات فيُطعنون يوميًا لأيّ سبب بتعليقات سخيفة تجعلهم مرضى نفسيين، ويصابون بالاكتئاب، ثم ينتحرون.

باستهجان قاطعتُها:

- من أنتم؟ ومن أعطاكم هذا الحق؟ من أعطاكم حق العبث بأدمغة الناس وعقولهم وذكرياتهم؟ بضغطة زر تزرعون ذاكرة، وبضغطة زر تمحونها؟ أي عبث هذا؟.

أجابتْ حازمة:

- نحن الأطباء النفسيون، نتعرف إلى آلاف المرضى ضحايا لحيواتهم السابقة، يصارعون مشاكلهم كل ليلة، يهزمونها مرة وتسحقهم مرات، ولا أمل في النجاة سوى القشة التي يتعلقون بها ويرونها الأمان بالنسبة إليهم، وهي نحن.

- يبدو أنه لا فائدة من هذه المناقشة، فإنها لن تغير من الحقائق شيئًا، ولكنني إلى الآن لا أعرف ما علاقتي أنا بكل هذا؟.

تاهتْ عيناها كأنها تسترجع أحداثًا ما، روت حلقها برشفات مياه سريعة انحدرت من قارورة تناولتها من حقيبتها بشيء من الارتباك، وأكملتْ بصوت تبدلت الحماسة فيه بخيبة الأمل:

- كان كل شيء يسير على ما يرام، كنت أنا الطبيبة الأصغر في هذا المشروع بسبب أبحاثي الكثيرة التي أجريتها على الذاكرة، وكان جميع الأطباء المشاركين يرون في أبحاثي تميزًا، ويجدون في نتائجي حلولًا كثيرة لمشاكل قد تواجههم في المستقبل، ثم فجأة: انفصلت مجموعة من الأطباء عن فريق العمل بشكل سري، وأخبروني أننا يجب أن نرتقي بتجاربنا ما دامت آمنة، وأنه لا بأس من....

صمتت، وحكَّت جبهتها وهي عابسة، وأكملت بصوت يشوبه الحزن:

- لا بأس من إجراء التجارب البشرية في الخفاء دون علم معامل التجريب الدولية، في مصحات خاصة بنا. فتحنا باب التطوع مقابل كثير من الأموال، لكن لم يتقدم أحد، فمن الذي سيجازف بوضع عقله تحت التجربة؟ ما دفع الأطباء النفسيين المشاركين في هذا التنظيم السري إلى استخدام مرضاهم دون علمهم.

كمحكوم عليه بالإعدام رميًا بالبصاق يحاول أن ينجو، وقبل أن أنفذ عليها الحد بكلماتي أو ربما ببصاقي أردفتْ مسرعة:

-أوهموني أن هذا في مصلحة المرضى، أقنعوني أنني بهذا أقدم لهم خدمة جليلة سيشكرونني عليها لاحقًا.

- ثم؟.

- ثم لاحظت أن الأمر قد أخذ اتجاهًا آخر، بعد إجراء التجربة على عدد من المرضى ونجاحها بدأتْ المصحات في الاتساع: سراديب مُجهزة تُحفر تحت الأرض لا يعلم أحد عنها شيئًا، أموال كثيرة بدأت في التدفق، أصبح عدد الناس أكبر وأكبر، متراصين جنبًا إلى جنب، يُزرع كثير وكثير من الذكريات لهم، يستيقظون ويذهبون إلى حياتهم بذكريات جديدة لم تحدث لهم يومًا، لكنهم يتذكرونها جيدًا بتفاصيلها ومشاعرها التي تدفعهم إلى اتجاهات محددة يسلكونها، بدأت أفهم الأمر، تطبيق التجربة خرج عن حيز المرضى النفسيين وعلاجهم إلى أناس طبيعيين تُزرع ذكرى مفعمة بالدوبامين[1] داخل عقولهم مرتبطة بتناول أو ارتداء منتج ما، فيقبلون عليه أكثر عند خروجهم، وتكثر المبيعات. كانت الشركات تصرف مبالغ طائلة على الإعلانات التليفزيونية، فاختُزلت إلى مبالغ أقل في جيوب الأطباء. شعرتُ بالذنب لأن الأمر تحول عن مساره وأصبح يُستغل تجاريًا بشكل سيئ، وامتد الأمر في ما بعد إلى تغيير المعتقدات والأفكار وزرع اتجاهات بعينها، فانسحبتُ دون إبلاغ أحد، وكنت على علم بأنني بانسحابي هذا أعرض نفسي لخطر بالغ، فأنا أحمل سرًا كبيرًا لو كُشف ستُفتح النار على الجميع. فكرت في شيء يمنحني شيئًا من

(١) الهرمون المسؤول عن الإحساس بالسعادة.

الأمان، فتذكرت أن جميع عمليات زرع الذكريات سُجلت، ولا يعلم بهذا الأمر إلا عدد محدود جدًا من الأطباء، أنا واحدة منهم، فقررت الاحتفاظ بهذه التسجيلات لمقايضة تأمين حياتي بها، والمفترض أنها كانت هنا في هذا المكان، لكنني لم أجدها! ووجدتك أنت.

ألقتني بكلامها في غيابت جب لا قرار له تاهت عنه السيارة، وأخذني التفكير عنوة إلى أعماقه.

ترى من أكون؟ هل أنا مريض نفسي كان يمشي على حافة الاكتئاب المستدقة في انتظار من يدفعه إلى الهاوية، ولجأ إلى واحد من هذه العصابة على أمل أن يجذبه للوراء؟ أم أنني إنسان عادي كانوا يحاولون إقناعه بشرب هذا المشروب الأخضر اللزج العفن على أنه السلسبيل؟ هل كنت حرًا ويزرعون داخلي الخنوع؟ أم عبدًا أرادوا له الحرية؟ هل كنت مؤمنًا وأرادوا إلحادي؟ أم فاجرًا وأرادوا إيماني؟

انتشلتني من ملكوت تفكيري بسؤالها:

- ولكن أكثر ما يحيرني: لماذا فُصلت عن البقية؟ ولماذا فقدتَ ذاكرتك؟ التجربة آمنة ولا يوجد في أعراضها الجانبية فقدان الذاكرة. بالتأكيد حالتك بها شيء ما مختلف دفعهم إلى هذا، ألا تتذكر أي شيء؟.

أشرت برأسي أن: لا.

زفرتْ بقوة وتابعت:

- للأسف لم أجد بغيتي، ولن أستطيع الخروج، فقد رشوت الأمن ليسمح لي بالدخول لمدة نصف ساعة قبل أن يأتي زميله ويستلم دوريته، ظننت أنني سأدخل سريعًا وأحصل على ما أريد، فأنا أعرف هذا المكان جيدًا.

نظرت إلى ساعتها وأكملت:

- لكن داهمني الوقت، ويجب أن أنتظر حتى الصباح، حتى تتغير الأدوار ويعود الشخص الذي أدخلني، وأستطيع أن أخرج حينها، وكذلك أنت إن أحببت.

قامتْ من مقعدها تتجول في المكان، وما زال تأثير كلماتها يقعدني لا أحرك ساكنًا، أغرق في التفكير.

- يبدو أن بقية ملابسك هنا.

قالتها من وراء الساتر الطبي، وتحركتْ خارجة من ورائه، قمتُ ببطء، فالبرودة التي يشعر بها قلبي بدأت تؤثر في جلدي أيضًا، لم يكن هناك غير قميص أبيض فقدت أكمامه أزرارها، ارتديته على مهل إثر وهن ألم بجسدي، وبدأتُ بثني الأكمام مباشرةً وأنا متجه إلى السرير مرة أخرى. لا أعلم لماذا فعلت هذا رغم تعبي، ربما كانت عادة في حياتي السابقة التي لا أعلم عنها شيئًا.

توقفتْ عن دورانها الممل فجأة كأنها تذكرتْ شيئًا ما، اتجهتْ إلى حقيبتها، وأخرجت علبة فضية طويلة رفيعة، فتحتها ووضعتها بجانبي، فألقيت نظرة عليها. كانت ترقد بعناية ست حقن طبية

رفيعة ممتلئة بسائل أرجواني، تتكئ بارتياح في مكانها المحدد بإسفنجة رمادية اللون.

- «ما هذا؟»، سألتُ وأنا أرمقها في شك.

- هذا العقار واحد مما أنتجه التنظيم الذي أخبرتك به لمصابي ألزهايمر وفاقدي الذاكرة، كنا نعده بكميات قليلة لأن مكوناته غير متوافرة، وهذه الكمية هي ما استطعتُ الحصول عليها في أثناء هربي.

حدجتها بنظرة فهمتْ معناها، فأكملتْ:

-هذا حقي، فأنا شاركت في تصنيعه مع طبيبين آخرين.

أردفتْ بعد أن دفعتْ عن نفسها اتهامي:

- عملنا بجد ليخرج هذا العقار بشكل مختلف تمامًا عن شكل العقارات الطبية المتداولة، لكن لم يُصرح باستخدامه للأسف، فكان توزيعه يتم بشكل غير قانوني، هذا العقار ينقلك لعالم آخر، ينقلك لداخل الذكرى، تراها، تتحسسها، تشم رائحتها، تشاهدها مجسمة بتفاصيلها. بعض الحالات يحتاج إلى واحد، وبعضها يحتاج إلى أكثر حتى يستعيد الذاكرة بشكل كامل، وهناك فريق كانوا يأخذونه رغبةً منهم في توثيق ذكريات أكثر، بعض الأغنياء كانوا يطلبونه خصيصًا لاستعادة ذكريات طفولتهم بتفاصيلها التي دُست بين طيات النسيان. في الحقيقة كنت أحتفظ بهذه الكمية لبيعها في المستقبل، فسعر الإبرة الواحدة منها ليس

بقليل، لكن بما إنني مشاركة بشكل ما في ما أنت عليه الآن فسأعطيك اثنتين، ربما تستطيع أن تسترجع ذاكرتك، وأكون بذلك أرضيت ضميري.

ابتسمتُ ساخرًا وقلتُ:

-وهل تظنيني غبيًا لأحقن نفسي بهذا الشيء؟ هل تظنيني أحمق لأثق بكِ بعد كل ما أخبرتني به؟.

انطبع على وجهها الغضب، فالتقطت خرطومين رفيعين يتدليان من حامل كان بجانب سريري، وبدأت بتوصيل أحدهما بيدها قائلة:

- إن لم تثق بي فأنا على استعداد أن يتم حقني به أيضًا.

- وما فائدة أن أستدعي ذكريات لا أدري إذا كانت هي ذكرياتي الحقيقية أم أنها قد زُرعت داخل عقلي ضمن تجاربكم؟.

أشارت إلى أحد الأجهزة الملاصقة لسريري وقالت:

-عن طريق هذا الجهاز يمكنني أن أصحبك إلى الذكريات التي ستذهب إليها، لأخبرك إذا كانت ذكرى حقيقية أو ذكرى مزروعة، فأنا أستطيع التفريق بينهما.

-كيف أسمح لكِ بالذهاب إلى ذكرياتي الخاصة وأنا لا أثق بكِ على الإطلاق؟ ثم ما الضامن أن تكوني صادقة معي؟.

- لا ضمانة عندي أستطيع تقديمها لك، لكن على الأقل إحدى الذاكرتين -إن لم تكن كلاهما- ستكون حقيقية، وسأخبرك بهذا، لأن العقار لا يجلب ذاكرتين مزروعتين بشكل متتالٍ، وعلى أي حال ليس لديك ما تخسره.

بدا كلامها منطقيًا، أنا بالفعل فاقد لكل شيء، فماذا سأفقد أكثر؟ لن أخسر شيئًا من خوض التجربة.

أخبرتها بموافقتي، فاتجهتْ صوب الأجهزة الملاصقة لسريري، وتناولت أسلاكًا تنتهي بأقطاب دائرية من أحد الأجهزة، وهي تقول:

-هذا الجهاز يوصل الإشارات الكهربية الصادرة عن الخلايا العصبية بالمخ بين شخصين أو أكثر، فيُمَكِّن الأشخاص المتصلين بالأقطاب الحمراء من رؤية ما يدور في مخ الشخص المتصل بالقطبين الأبيضين، بشرط خضوع جميع المتصلين لتأثير العقار.

ألصقت القطبين الدائريين الأبيضين الخارجين من الجهاز على جانبي جبهتي، وألصقت قطبين من الأقطاب الحمراء على جانبي جبهتها، ثم ثبتت الخرطوم الرفيع في عروق يدي وألحقته بتثبيت الخاص بها، ثم حقنتْ الأنبوب الرفيع المعلق بواحدة من الإبر التي كانت في حقيبتها، ليبدأ بعدها السائل الأرجواني بالتمدد ببطء داخل الخرطومين. ضغطت على زر أحمر مثبت بالجهاز ثم قالت موضحة:

-مدة العقار عشر دقائق، ستنتهي الذكرى ونفيق بعدها، ولن نستطيع العودة إلى نفس الذكرى مرة أخرى. حاول أن تدقق النظر في تفاصيل الذكري بشكل كبير، المكان والأشخاص إن وُجدوا، كل هذه الأشياء مهمة لاستعادة ذكريات أكثر.

أومأتُ لها برأسي موافقًا، بدأتُ أشعر بالسائل الأرجواني وهو يتخلل كرات دمي، نظرتُ إلى الخرطوم فلم أجد فيه إلا القليل، هبط

على عينيَّ نعاس ظل يتثاقل حتى تشوشت الرؤية تمامًا، وشعرتُ بالتنميل يجتاح أطرافي، وارتخى جسدي على السرير دون رغبة مني، وجهتُ ما تبقى من رؤيتي إلى ميسون التي مال رأسها إلى الأمام، أغلقت أجفاني رغمًا عني، واستغرقني النوم.

• • •

(٣)

(الذكرى الأولى)

كمُنوّم مغناطيسي أعطى أمر الاستيقاظ لإحدى تجاربه بطقطقة إصبعيه، وبسرعة قد نسيتها أجفاني فتحتُ عيني، ألتقط أنفاسي بصوتٍ عالٍ كعدَّاءٍ انتهى لتوه من سباق جري مئة متر، أسمع نبضات قلبي تدق كالطبول بإيقاعٍ منتظم، أشعر بشيءٍ غريبٍ يحدث لي، قوة عجيبة تسري بداخلي تضخ دماء جديدة في عروقي، وهالة من الطاقة تحوطني، هاجس أصابني أنني أستطيع تحريك الأشياء دون لمسها، والطيران بجسدي كقذيفة. لا أعلم ماذا فعل بي هذا العقار، لكنه ساحر، إحساس القوة إحساس ممتع.

وجدتُ ميسون تقف على بُعد خطوات مني، تذكرتُ سماحي لها بالوجود في ذكرياتي مقابل الاتفاق المُبرم بيننا، لا أعلم إن كانت تشعر بما أشعر به، لكنها كانت تتأمل ما نحن فيه.

شغلني تأثير العقارِ عن الانتباه لرؤية ما يحيطنا، كان لا شيء، كل شيء مُعتم، كأننا أُلقينا في ثقب أسود، لكننا نرى أنفسنا بوضوح.

- «ما هذا؟»، سألتْ ميسون مستنكرة.

- لا أعلم.

- ذكرياتك فارغة إلى هذا الحد؟ لا أشخاص! لا مكان! لا صور؟.

ما إن انتهت من استنكارها حتى بدأتْ تأتيني نسمات محملة برائحة مميزة، كمد موج البحر وجزره، في انسيابية ساحرة، تغلغلت ببطء داخل أنفي، سيطرت على حاسة الشم عندي بنعومة آسرة، دفعتني طمعًا في سحب كثير من الهواء لأملأ بها صدري.

- «اللافندر». قلتها همسًا.

- ماذا؟ ماذا تقول؟.

- هذه الرائحة الرائعة، أعرفها جيدًا، رائحة اللافندر، ألا تشمينها؟.

أجابت بعدما حاولت الاستنشاق عدة مرات:

- لا.

مشتْ خطوات في العدم وهي تحك ذقنها وأردفت:

-ولكن لحظة، الجزء المسؤول في المخ عن تحليل الروائح يقع بجوار مركز الذاكرة أو الحصين(١)، وهو المتعلق بتخزين الذكريات طويلة المدى، وبنفس الوقت هذا الجزء يتصل اتصالًا مباشرًا بمركز المشاعر في أدمغتنا، وهذا يفسر لماذا ترتبط الذكريات ارتباطًا وثيقًا بالروائح.

---

(١)ويسمى أيضًا (قرن آمون).

ضيقت عينيها وسألتني:

- بماذا تشعر الآن وأنت تستنشقها؟.

مغمض العينين متوغلًا في عبقها أكثر أجبت:

- راحة، سكينة، أمان، حب.

ضربتْ باطن كف يدها اليسرى بأصابع يمناها الأربعة وتبعتها بإشارة من سبابتها تجاهي قائلة:

- أرأيت؟ هذا يعني أن تفسيري صحيح، هذا يدل على أننا في ذكرى مهمة بالنسبة إليك، تحبها وتعتز بها.

- أحبها وأعتز بها؟ تُرى ما هي؟.

وكأن الذكري سمعت سؤالي وأوجعتها حيرتي، فما كان منها إلا الانصياع لرغبتي في معرفتها، شعرنا باهتزاز طفيف مس الفراغ من حولنا، قوالب من الطوب الأحمر الداكن بدأت في الظهور، تراصّ بعضها بجنب بعض في سرعة هائلة مكونة حوائط أربعة، التصقت بها طبقة أسمنتية تلتها عدة طبقات انتهت بطلاء لبني راقٍ، وُضعت عليها إطارات ذهبية مستطيلة مُطعمة بنقوشات رقيقة، واحدة منها ظهرت بها نافذة كبيرة، والمقابلة لها ارتكزت عليها ساعة كلاسيكية يتدلى منها بندول نحاسي. امتدت من تحتنا أرضية خشبية على شكل مستطيلات متداخلة مطلية بطبقة شفافة لامعة، وأطل من فوقنا سقف أبيض تدلت منه ثريا كريستالية برّاقة مُضاءة أنوارها، أربع قوائم خشبية تجمعت على مسافات محددة، ارتكز فوقها لوح

خشبي مستطيل الشكل فكوَّن طاولة تجمّلت بمفرش أبيض وُضعت فوقه أطباق محمَّلة بالأطعمة المختلفة، وتوسطه قالب من الكعك المُزين يحمل في أعلاه شمعة على شكل الرقم ثلاثة. حبال رفيعة تحمل مثلثات ذات ألوان مبهجة وورق زينة ملونًا ولامعًا امتدت من الثريا إلى الحائط، باب أبيض تخلى عن نصفه الخشبي العلوي واحتفظ بإطاره كذكرى منه بداخله زجاج مصنفر ضبابي إلا من رسمة لزهور متداخلة انقشع عنها الضباب، احتل المكان المخصص له تمامًا في الحائط، أغلق نفسه بنفسه، وسكن كل شيء بعدها، تكونت الغرفة بجميع تفاصيلها في وقت لا يتعدى الدقيقة.

تيبستْ ميسون كصنم، فاغرةً فاها، جاحظة العينين، استطاع لسانها بالكاد أن يُخرج حروف كلمة:

- مُذهل.

أكملتْ بعد أن ابتلعت ريقها وما زالت تحت وقع المفاجأة:

- شاركتُ في تصنيع هذا العقار، لكني لم أدرك أن تأثيره قوي إلى هذا الحد، الآن فهمت لماذا كان يتهافت عليه كل من جربه ولو لمرة على الرغم من عدم حاجته إليه.

كنتُ أنا الآخر مأخوذًا بالمفاجأة والصدمة معًا، ليس من تأثير العقار فقط، لكن من تأثير الذكرى أيضًا، فبمجرد أن بدأت ملامح المكان في الوضوح تذكرته.

-«هذا... هذا بيتي»، قلتها بشيء من التلعثم.

انتزعت جملتي ميسون من انبهارها واتجهت لي سائلة:

- بيتك؟.

تحركتُ إلى النافذة خلفي أتحسس زجاجها بأناملي مجيبًا إياها:

- نعم، هذا بيتي، وهذه إحدى غرفه.

- إذًا دعنا نلقِ نظرة على تفاصيل المكان، بالتأكيد رؤية البيت بأكمله ستجعلك تتذكر المزيد.

همّت صوب الباب وفتحته، فاستقبلتها العتمة، ألقت برأسها خارجًا، ونظرت يمنة ويسرة، ثم رجعت إلى الخلف قائلة:

- الباب يؤدي إلى اللاشيء، يبدو أن عقلك يريدنا أن نظل بهذه الذكرى ولا نتحرك.

ضحكات بريئة أتت من الخارج، بدأتْ في الازدياد حتى تجلى مصدرها، طفلٌ صغيرٌ يدخل جريًا إلى الغرفة هاربًا من ملاحقة أحدهم له، يحتضن علبة مُغلفة بورق هدايا مميز، اختبأ تحت الطاولة مباشرةً باعتياد يوضح أنه استخدم هذا المكان عدة مرات سابقة لنفس السبب. كتم ضحكاته عندما بدأ وقع أقدام بالاقتراب، وقفتْ على باب الغرفة تتفحصها بعينيها عاقدة يديها أمامها، اكتملت فيها أركان الأناقة فبدت رائعة، سألتْ مداعبة:

- أين أنت؟.

ضحكات مكتومة تسربت إلى أذنيها، فابتسمت، ولجت إلى الغرفة بخطوات بطيئة حتى استقرت عند مكان اختفاء الطفل تمامًا، بنبرة متصنعة أكملت:

- تُرى أين ذهب؟ أين ذهب؟.

جثت على ركبتيها فجأة:

- وجدتك.

خرج عابسًا يحمل وجهه علامات خيبة الأمل والغضب:

- تجدينني في كل مرة.

- «لأنك تختبئ في نفس المكان كل مرة»، قالتها ضاحكة، ثم ضمته مخبرة إياه في حنان:

- أحبك.

انفرجت أساريره وهو يتوغل في ضمتها أكثر:

- وأنا أيضًا.

- وأنت أيضًا ماذا؟.

- وأنا أيضًا أحبك.

- نعم، هذه هي الإجابة الصحيحة، لا تقلها أبدًا مبتورة، كلمة «أحبك» تستحق تأكيدًا أكثر من «وأنا أيضًا» فقط.

أومأ لها برأسه طاعةً، وبحركة طفولية أحدث اضطرابًا بتدخل يده لفتح قلادة كانت ترقد على عنقها بسلام. قال في دلال وهو يشير إلى أشخاص في صورة استقرت بداخلها:

- أنا وأنتِ.

- نعم، أنا وأنت، إلى الأبد.

أغلقتها وهي تقول:

- هيا، اذهب إلى أصدقائك وادعهم إلى هنا لنحتفل.

قفز من بين يديها متجهًا إلى الخارج وهي تراقبه بود، تابعت بصوت أعلى:

- ولا تنسَ أن تضع الهدية مكانها، فلم يحن وقت فتح الهدايا بعد.

نهضت من مكانها وهمتْ بالتحرك، لكنها توقفتْ، أطرقت رأسها برهة، ثم التفتت تجاهي، فتلاقت أعيننا، ابتسمتْ لي ثم ولت خارجة.

رعشة أصابتْ جسدي، وحنين مُوجع استباح قلبي دون خشية رادع له، أرسل أوامره إلى أجفاني فامتلأت بدموع تجمعت على حافتها لا تجد مسوغًا واضحًا لإطلاقها فآثرت البقاء مكانها.

شعرنا باهتزاز يسير حولنا، بدأ يشتد شيئًا فشيئًا، انحدرت الأطباق من على الطاولة لكنها لم تسقط، بل تبخرت في الهواء كدخان، ثم اختفت في لحظة، توالت متعلقات الغرفة في التبخر كما ظهرت، كأن الزمن يعود للوراء، صوت تبخر الأشياء كان يشبه صوت انفجار صغير يعلو كلما كان ما سيختفي أكبر حجمًا. رفعتْ ميسون صوتها وسط الضجة الحادثة قائلة:

- يبدو أن وقت الذكرى قد انتهى، سنرجع الآن إلى حيث كنا، أراك هناك.

لحظات كان قد اختفى خلالها كل شيء، ولم يبقَ سوانا، شعرت بتسارع نبضات قلبي وضيق النفس في صدري، كأن وحشًا يحتجزني بين براثنه ويحكم قبضته حولي ببطء، أرعبني مشهد قدمي عندما رأيتها تتبخر، يبدو أن عقلي سيعاملني نفس المعاملة، عقلي عادل أكثر من اللازم، لا يعطيني أي ميزة كوني صاحبه. كان إحساسًا مُفجعًا أن أرى جسدي يتبخر أمام عيني شيئًا فشيئًا ولا حيلة بيدي لمنع هذا، اختفيتُ، ولم يبقَ مني إلا رأسي، زاد الضغط بشكل لم أقدر على تحمله، اعتصر الوحش قبضته، وانتشلني السراب.

• • •

شاحنة تالفة المكابح مرت فوق جسدي فدهسته دون رحمة، ألم ثاقب يتلذذ بسحق عظامي ببطء، وهنٌ تكالبَ على الروح والجسد، ووجع لم يجد مأوى له فاستوطن قلبي بعد أن أمرتْ قلوب غمرها الرضا بترحيله عنها. تلاشت تمامًا القوة التي كنت أشعر بها منذ ثوانٍ، وما زال جسدي على وضعه كما كان قبل تناول العقار: حجر أصمّ مُلقى على السرير، لا أقوى على تحريكه، بالكاد استطاعت عيناي أن تتحررا من استبداد الوصب، وانفرجت دفتاها على مهل، وجدتُ ميسون تفرك عينيها من أثر صحو، كانت تبدو أفضل حالًا مني، نظرتْ إليَّ نظرة العالم بحال المنظور إليه قائلة:

- أعلم مدى الألم الذي تشعر به، لا تقلق، ستتحسن بالتدريج، هذا من الآثار الجانبية للعقار، لم نتوصل لحل هذه النقطة

حتى اللحظة، كل من تناول العقار يشعر بإعياء شديد مع انسحابه، كأن العقل يعاقب كل من يتجرأ على اقتحامه.

تناولت من حقيبتها حاوية بحجم اليد، أخرجت منها قرصًا دائريًا صغيرًا وضعته بجانبي:

- لكننا صنعنا هذا كحل مؤقت، لا تتناوله قبل أن تشعر بقليل من التحسن، مصه ولا تبلعه، وستعود لطبيعتك.

مرت دقائق كالدهر، استطعت بعدها تحريك أناملي والتقاط القرص، جعلت من لساني غطاء له، كان يفر من تحته بدهاء بتفتت طبقاته المذابة في لعابي متجهة إلى بلعومي، حتى اختفى تمامًا.

آوتني العافية إلى كنفها استعطافًا بفتات من القوة استطعت الاعتماد عليها لأجلس، كانت ميسون تتجول في الغرفة تفكر كأول مرة رأيتها فيها.

أحسستُ بدفء ينساب على وجهي، أُفلت زمام دمعة لم أقوَ على حبسها كثيرًا، أوجعني الافتقاد، ذلك الأمان الذي شعرت به وأنا طفل أفتقده كثيرًا الآن.

انتبهتْ لي ميسون فأعدتُ صفحة وجهي كما كانت، ومحوت أثر الدمع سريعًا، تحركتْ تجاهي، وابتدرتني سائلة:

- الذكرى، تذكرتها؟.

- أمي.

- تلك المرأة هي....

-أمي.

أطرقتْ رأسها تأثرًا، وأردفتْ:

- والدتك جميلة.

أومأتُ برأسي وأنا أتابع:

-رائحتها رائحة زيت اللافندر، كانت تدهنه باستمرار لتشعر بالاسترخاء، تلك الذكرى يوم أن أتممت ثلاث سنوات، لم أعِ كلمة السعادة حينها، لكني كنت أشعر بها تغمرني وتغمر أمي، لم يكن يعكر صفونا سوى غياب أبي وسؤالي الدائم عنه، أتذكر أنه أتي ليلًا بعد انتهاء الحفل، ودخل غرفتي، ووضع الهدية بجانبي وهو يحاول إيقاظي، لكن أمي ظهرت فجأة، نهرته، وسحبته للخارج، وأغلقت الباب. صوت شجارهما تسلل إليَّ من وراء الباب، كان صوتها غاضبًا حزينًا، تتهم أبي بالتقصير، وكيف أنها كانت تشعر بالخجل أمام الجميع وأمامي لغيابه، مسترسلة في حديثها دون سماع أسبابه، كأن داخلها نارًا تريد نفث لهيبها لتهدأ، و....، و...

- وماذا؟.

- لا أتذكر.

باستنكار سألت:

- لا تتذكر أي شيء آخر؟.

قبل أن أجيبها حاولت التركيز أكثر وأنا أحك جبهتي لتذكر بقية تلك الليلة، لكن توقف عقلي عند هذا الحد، لا أتذكر أي شيء تلا هذا الموقف، عدتُ إليها خائب اليدين صِفرًا، أُجيب برأسٍ نافيًا، خرج صوتها محبطًا إثر إجابتي:

- لم نستفد من هذه المرة كثيرًا.

أردفتْ بنبرة ممزوجة بالندم على عرض سابق قدمته ومسحة من التهديد قائلة:

- لديك جرعة واحدة متبقية، حاول استغلالها جيدًا.

دون انتظار تعليق مني أكملتْ:

- سننتظر ساعتين، حتى يتحسن جسدك ويكون قادرًا على استقبال الجرعة الجديدة من العقار.

مضت الساعتان سريعًا دون أن نتحدث، كان من الواضح أنها غاضبة لأنه لم يُستفَد من العقار كما يجب من وجهة نظرها، ذهبتْ بعدها ميسون إلى الجهاز وثبتت الأقطاب الدائرية بجبهتينا، فتحت العلبة الفضية، واستلت واحدة من الحقن، رفعتها لمستوى عينيها، ثم اتجهت للحامل بجوار سريري واستبدلت أنبوبًا آخر بالأنبوب الرفيع.

- «لدي سؤال»، قلتها مترددًا.

أجابتني وهي منهمكة بتحضير العقار دون النظر إليَّ:

- تفضل.

- هل في أثناء الذكرى نكون مرئيين لهم؟ هل يروننا؟.

- بالطبع لا.

- ولكن في الذكرى السابقة نظرت أمي في عيني مباشرةً، وابتسمت، كأنها تراني.

- لا تنسَ أن النافذة كانت خلفك، ربما وقت الذكرى رأت شيئًا بالخارج دعاها للابتسام.

- ولكن...

قبل أن أكمل قاطعتني:

- مستعد؟.

شعرتُ بالإحراج من مقاطعتها، فواريته بإيماءة من رأسي موافقًا، حقنت الأنبوب بالعقار، وبدأ السائل الأرجواني بالتدفق إلى أوردتنا، قالت بصرامة:

- حاول التركيز هذه المرة.

استقر السائل بأكمله داخل دمائي بارتياح، شرعتْ سطوة تأثيره بالانتشار بين جنباتي، تخبطت الرؤية، وارتبكت الأشياء أمامي، وبدأتْ بالاختفاء داخل غياهب الظلمة، فقد جسدي الإحساس، وأخذني الوسن.

• • •

(٤)

(الذكرى الثانية)

قادم من بعيد، يخمش أذنيَّ ضجيجُه، يبتلع أذاه موجات الهواء النافذة إليَّ بلعًا، يستلبني من ظلمات نومي بصوت صفيره.

قطار يتحرك خلفي بسرعة كبيرة، وأرض لا تقوى على الثبات أمامه، ساحبًا مقطوراته لوجهة غير معلومة، تاركًا هدوءًا مهترءًا بآثار صوته الممتد بعد رحيله.

كنا نقف أنا وميسون في المنتصف متجاورين بين أربعة قضبان حديدية لامعة تشبثت بالأرض، فقدت الأمل بالوصل ولو لمرة فاتخذت من الألواح الخشبية رُسُلًا بينها طمعًا في القرب، تفترش الحجارة على جانبيها، رصيف أصفر اللون خالٍ من أي مقاعد يتقوى البدن بالجلوس عليها على طول أوقات الانتظار، ثُبتت عليه أعمدة امتدت منها مظلات خشبية بالية عفا عليها الزمن، وسماء مكتظة بسحاب مركوم يخفي زرقتها ويُنذر بمطر وفير عما قريب. كان الأمر مختلفًا هذه المرة، كانت الذكرى مُعدة ومجهزة قبل الولوج إليها، كأن العقل قد استوعب الأمر وصار يتعامل مع العقار بشكل أفضل.

- «محطة قطار. ماذا تعني هذه الذكرى بالنسبة إليك؟»، سألتني ميسون.

أجبتها وأنا أجيل بصري بالمكان:

- أتذكر المكان، لكن لا أتذكر الذكرى المتعلقة به حتى الآن.

استهل المطر بقطراته، فقالت وهي تحاول حجبها بيديها:

- هيا، لنحتمِ بالمظلة قبل اشتداد المطر.

أوقفتها ناهيًا بيدي:

- لا، أشعر أنه يجب علينا الانتظار هنا.

مرت دقيقة صبت فيها الوطفاء شآبيبها طوعًا لرغبة غيم أبى أن يرحل إلا بعد أن يثبت حضوره بقوة.

- «لا بد أن نتحرك». قالتها ميسون آمرة.

انصعتُ لها رغمًا عني، فليس لدي ما أدافع به عن رغبتي المُلحة في البقاء، وقبل أن نتحرك ظهر من بعيد بهيكله المعدني الضخم فضي اللون، يطغى بصفيره على صوت قطرات مطر وقعها كالسهام. همتّ ميسون بالحركة قبل أن يعوقها تقدمه، فأوقفتها:

- انتظري، أنا على متن هذا القطار.

ثبتتها جملتي في الأرض، وظلت تنظر إليه بترقب، بدأ القطار في شد لجامه بقوة، فصدر صفير مميز نتيجة احتكاك إطاراته المعدنية بالقضبان، انفرجتْ أبوابه، فتدفق نهرٌ بشريٌ إلى الرصيف،

تطلعتُ فيهم أحاول إيجاد نفسي، كنت أشعر ببوصلة داخلي توجهني إلى النظر نحو أبواب بعينها، ظهرتُ أخيرًا، ببنطال أزرق وقميص سماوي يستتر بمعطف رياضي، صرت أكبر سنًا، وناهزتُ العاشرة من العمر.

ومن تلك المُمسكة بيدي؟ أمي! ضعُفَت تمامًا، وذهبتْ أناقتها، ذبُلت زهرتها، وامتُص رحيقها، صارت شاحبة وباهتة، عيناها محاصرتان بدوائر بنية غائرة في وجهها، يدور الحزن بين قسماتها بشكل قاسٍ. لاحظت ميسون شخوص بصري تجاه امرأة بولدها فقاطعت استرسال بصري سائلة:

- هل هذا أنت؟.

هززتُ رأسي بالإيجاب دون النظر إليها.

- وهل هذه هي....

صمتتْ ولم تكمل، كان جليًا مدى التغير الذي حصل لأمي بين الذكرى الأولى والثانية، وهو تغير صادم لكل من يراها.

اتجهتْ أمي إلى الرصيف بخطوات وجلة، فتبعتها أنا وميسون، واقتربنا منها، بنظرات متحفزة بدأتْ بتحريك عينيها بين وجوه الناس تمشطها خشية غدرة تبطش بها. حركة جسدها المضطربة عند سماع هزيم الرعد من حولنا في كل مرة يتبعها إحكام قبضتها أكثر حول يدي وأنا طفل تعكس توترًا غرقت فيه. ارتكزت ببصرها فجأة على ركن ينزوي به رجلان ضخما الجسد يحدان النظر إليها، رجعتْ خطوة للوراء، وسرت رعشة ببدنها، وبدأ صدرها بالصعود

والهبوط بشهيق وزفير خائفين حائرين، نشع العرق في جبينها رغم برودة الجو، استندتْ إلى أحد الأعمدة الخشبية، وقالت بصوت منخفض:

- اسمعني دون أن تلفت إليّ، سيأتي الآن قطاران إلى المحطة، سيتزاحم الناس على قطار الجهة المقابلة، وسنتزاحم معهم، سنستقل القطار، ونجلس بداخله، عندما أبتسم إليك حاجبةً أسناني تُخبرني برغبتك في الذهاب إلى المرحاض بصوت عالٍ، سأرفض لأن القطار على وشك الرحيل فتخبرني أنك لا تستطيع التحمل أكثر، سنتحرك إلى المرحاض، سأفتح الباب وأغلقه، وسننخفض وننزل من الباب الملاصق له، سنتجه بعدها للقطار المقابل في الجهة الأخرى، ففيه بغيتنا.

لاح الخوف في عينَي ابن العاشرة من كلام أمه ونبرتها الجادة في الحديث. سألتني ميسون متعجبة:

- لماذا وضعتْ والدتك تلك الخطة؟ ممن تهرب؟.

أشرتُ بعينيَّ إلى ضخمي الجثة:

- هذين.

- لماذا؟.

- لا أعلم.

بدأتْ صافرتاهما تشقان الأفق، قطاران متضادان يسيران عكس بعضهما، استقرا تمامًا بمكانهما المعتاد. همتْ أمي بالتحرك جاذبةً إياي بسرعةٍ عجزَ ضخما الجسد عن مجاراتها في البداية، وانخرطت

وسط الجموع بمرونة لم يساعدهما حجماهما على مسايرتها. ارتقينا إلى القطار، وارتقيا كذلك بعد دقائق، لاح من شفتيها اعوجاج علامة البدء، فشرعتُ بتنفيذ خطتها كما أخبرتني، لم ندخل إلى المرحاض، وانحنينا حتى وقفنا على أطراف الباب المفتوح، وكان القطار قد بدأ التحرك ببطء، وقفت أمي بباب القطار يتسلقها التردد، وقبل أن يستقر على أكتافها أغمضتْ عينيها وقفزت، ثم أمرتني بالقفز، كان يبدو أنني خائف ومضطرب ولا أستطيع الإقدام على الخطوة، أمرتني بالوثوق بها وأن أفعلها مغمض العينين قبل أن تزيد سرعة القطار، استجبتُ لرغبتها وقفزت، فتلقفتني بقوة بثت الأمان بداخلي من جديد. انطلق القطار مسرعًا مخلفًا إيانا، ما إن غادر المحطة حتى صعدتْ أمي إلى القطار المقابل، كانت تبحث بين المقاعد بعين سريعة الحركة، حتى وجدت ضالتها: عجوزًا بعود محني تتدثر بشالٍ كحلي اللون من قطيفة، رُسمت التجاعيد بإتقان حول عينيها، وطبعت سنوات العمر المتقدِّمة بصمتها بكيسين دهنيين تحتهما، وجفنين حجبا بريق الحياة بارتخائهما، وخطوط حمراء تشعبت على جانبي عينيها، سكن امتدادها تحت سائل شفاف يطلي إحدى حدقتيها بزرقة. توجهتْ أمي صوبها، وأجلستني بجانبها قائلة:

- ليس لدينا وقت.

بصوت واهن يحمل ارتعاشة هِرم سألتها العجوز:

- هل يتبعانك؟.

- نعم، لكني حاولت تضليلهما قليلًا. أظن أنهما اكتشفا الأمر الآن، وسينزلان المحطة القادمة، وحينها سيكون قطاركما في طريقه إلى وجهته.

سألتني ميسون مستنكرة:

- قطاركما؟ ألن تذهب معكما؟.

صمتُ أمام سؤالها، فلم أكن أملك الإجابة، هذه المرة ليست كسابقتها، لا أتذكر أي شيء. انطلقتْ صافرة القطار، فأعطت إذنًا وهميًا بامتلاء جفني أمي بالدموع، قالت ماسحة إياها:

- يجب أن أتحرك الآن.

أمسكت العجوز بيدها برجاء كأنها تحاول أن تثنيها عن قرار ما، لكنها هزت رأسها بالنفي.

- «أمجد»، نادتني أمي بحنو. إذًا اسمي «أمجد» فعلًا كما كان مكتوبًا على اللوح المعدني المعلق بالسرير.

نظرت في عيني مباشرةً سائلة:

- هل تحبني؟.

- بالتأكيد.

- إن كنت كذلك فأحب الجدة كوثر مثلي تمامًا، أطعها، وهي ستعتني بك جيدًا.

استبد القلق بملامح الطفل الصغير، وقبل أن يستوعب ما ترمي إليه أمه أعطت إشارتها للعجوز، فأحكمت ذراعيها حولي بقوة غير متناسبة مع عمرها لكبح جماحي، وشرع القطار بعدها في التحرك، ودعتني أمي بنظرة دامعة وغادرت القطار سريعًا.

علا صوتي مناديًا إياها راجيًا ألا ترحل وتتركني، محاولًا التملص من ذلك القيد الثقيل الذي يشل أطرافي، بإصرار طفل لم تقوَ أذرع عجوز على مقاومته استطعت التحرر بعد دقائق، لكن زادت سرعة القطار، جريتُ لنافذة المقعد الموازي لرؤية أمي من خلاله، ولم تستطع العجوز ملاحقتي بحركتها البطيئة، فابتدرتني بصوت خائف ينهاني عن النظر بإلحاح، لكن سبق السيف العزل، شُل لسانًي وأنًا أرى أمي رابضة على القضبان لا تحرك ساكنًا، مستسلمةً لذلك القطار الآتي من خلفها بسرعة ليث يريد أن يلتهمها دون رحمة.

جحظت عينا ميسون وهي تسأل بجنون:

- ماذا تفعل؟ هل تنتحر؟.

تحجر لساني أنا الآخر مثلما كنت صغيرًا تمامًا، تعملق الخوف بداخلي وابتلع أي ردة فعل منطقية يمكن أن أقوم بها.

رأينا طوق النجاة يتحرك من بعيد، رجلين يرتديان زيًا أزرق يبدو من هيئتيهما أنهما عاملان بتصليح قضبان القطارات، لاحظا ما تنوي أمي فعله، فتركا أرجلهما للريح لعلها تسبق قدرًا لم يُجزم بحدوثه بعد. تعلقتُ بقشة الأمل المتجهة إليها رغبةً في نجاتها من الموت ونجاتي من وجع مميت لا أعلم إن كان حمله قلبي صغيرًا أم لا.

فجأة سكن كل شيء، كأن أحدهم ضغط على زر التوقف فأصاب الجميع الشلل، تبخر الرجلان بلمح البصر، تبعتهما أمي والقطار المتجه نحوها، ولحقت بهما العجوز والطفل، بدأتُ أفهم ما يحدث، فصرختُ في ميسون:

- لا، لا، افعلي أي شيء، أوقفي هذا حالًا، أريد أن أتأكد أنهما استطاعا اللحاق بها.

أجابتني مُشفقة:

- الأمر ليس بيدي، أخبرتك من قبل أن مدة العقار عشر دقائق، للأسف وقت الذكرى قد انتهى.

بدأتُ بالصراخ مستجديًا الذكرى أن تبقى:

- «لا، لا، أرجوكِ»، انتبهتُ فجأة لجسدي المتبخر نصفه، يبدو أن توسلاتي لن تجدي، طأطأتُ رأسي مستسلمًا بيأس شجَّع السراب على التهام بقيتي.

• • •

جمر صغير أبقى على لهيب نيران تضرمت فيه منذ زمن قضّ مضجعي، يتغذى على أديم جراحي وقلبي الذي مزقته حيرة المجهول بمصير معلوم حواه الماضي في جعبته، وضنَّ به عقلي عقابًا أو ربما رحمةً.

لماذا نسعى لمعرفة الحقائق كاملة؟ المعرفة جحيم مستعر ترمي بشررها مقدسات البراءة التي لم نُجلّها حق إجلالها إلا بعد خسارتها، تقيم من رفاتها قلاع نضج عملاقة نفتخر بها أمام الجميع، ونختبئ وراء أسوارها من أنفسنا، ناقمين عليها، متمنين العودة لجهل رحيم نحتمي به، منسحبين برضا من ميدان معركة الحياة أمام صفعات الوعي القاسية.

بعين آسفة وضعت ميسون القرص بجانبي وتحركت مبتعدة هربًا من شعورٍ بالخزي أُلحق بها من قلة الحيلة. مرت الدقائق سريعًا، استطاع فيها جسدي بفعل الغضب استعادة سطوته بعد ابتلاع القرص. انتصبتُ واقفًا تحاصر نظراتي سقف الغرفة الرمادي الكئيب سائلًا إياها بصوت ظاهره الثبات وباطنه الرجاء:

- هل هذه الذكرى حقيقية أم زُرعت في عقلي؟.

ألقت بسكين صدئ في صدري بإجابتها:

- حقيقية.

تجلت حمم البركان المشتعل داخلي في عينيَّ وأنا أتجه إليها زاعقًا:

- أعيديني إلى هناك، أعيديني إلى هناك حالًا.

قالت بصوت هادئ يشوبه اليأس:

- أتفهم حالتك وما تمر به، لكنني أخبرتك بخصائص العقار من قبل، مدته عشر دقائق، ولا يعود للذكرى نفسها مرة أخرى.

صمتتْ برهة وأكملتْ:

- حتى وإن عدت فما الفائدة؟ لن تستطيع تغيير شيء.

منطقها الواقعي لم يلقَ ترحيبًا أمام عاطفتي وأملي أن تكون أمي قد أنقذت، لكنه استطاع إخماد بركان الغضب بداخلي قليلًا لواقعيته. تكومت على الأرض بقنوط أضم رجليَّ بذراعي نحو صدري

أملًا في احتواء مكذوب. مشهد أمي وهي تجلس على قضبان القطار باستسلام ملتصقٌ بأجفاني يأبى الرحيل، تذكرتُ إحساسي عند الخروج من الذاكرة الأولى والثانية، فرق كبير بين الشعورين يمتد باتساع المسافة بين السماء والأرض. انتبهتُ فجأة للفرق بينهما، فأسرعتُ بسؤال ميسون:

- ولكن لماذا؟ لماذا تذكرت تفاصيل الذكرى الأولى ولم أتذكر الثانية البتة؟.

بصوت منخفض أجابت:

- لحظي العثِر.

- ماذا؟.

- من الواضح أنها ذاكرة مكبوتة[١]، بعض الذكريات يقوم العقل بحجبه عن الوعي بدفنه في اللاوعي. لا نستطيع الجزم بأنه يُنسى، لكن يمكننا وصفه أنه يوضع بصندوق أسود يُسرب ما بداخله عن طريق الأحلام فقط وبصورة لا يتذكرها الشخص نفسه، كأن العقل يُشفق على صاحبه من الصدمة التي تعرض لها فيقرر أن يخفف عنه.

- صدمة؟.

فهمتْ ما رميتُ إليه فأسرعتْ نافية:

---

(١)متلازمة الذاكرة المكبوتة أثبتها فرويد، وشكك فيها بعض علماء النفس في العصر الحديث.

- هذا لا يعني إثبات حدوث شيء ما في الذكرى السابقة، لكن موقفًا كهذا بجميع حيثياته صادم بالتأكيد لعقل لطفل صغير.

أنهت جملتها، وهمتْ قائمة تجاه حقيبتها، أغلقت العلبة الفضية ووضعتها بها.

- «ماذا تفعلين؟». سألتُ مستنكرًا.

- أُدخل العلبة في الحقيبة.

- حقًا؟ كان يخفى عني هذا.

قالت بعدما استبد الضيق بملامحها لاستهزائي من إجابتها الحمقاء:

- أعطيتك جرعتين كان يكفيني ثمنهما تكاليف الحياة عامًا كاملًا، ماذا تريد مني أكثر من هذا؟.

- أخبريني أنتِ ماذا أفعل أنا! فاقد للذاكرة إلا من ذكرى يوم ميلادي وذكرى أمي وهي كافية لجعلي إنسانًا بائسًا بقية حياتي.

أكملتُ حانقًا:

- ولا تنسي أن كل ما أمر به سببه أنتم.

قالت غاضبة:

- رجاءً لا تتبع هذا الأسلوب معي، الضغط على وتر الضمير، لا تجعلني أندم على إخبارك كل شيء من البداية.

رددتها زاجرًا:

- لا أتبع معكِ أي أسلوب، أنا فقط أُذكِّرك أن ما أعيشه الآن ليس عدلًا، ليس عدلًا.

صمتتْ برهة، تبعتها بزفرة استسلام، تناولت العلبة الفضية من حقيبتها قائلة:

- حسنًا، لكن احذر: كون عقلك يذهب بنا إلى هذه المنطقة في الذاكرة التي ذهب إليها في المرة السابقة فهذا أمر يدعو للقلق، لا نعلم ماذا يخطط لنا في المرات المُقبلة.

مرت ساعتان، حضّرت ميسون بعدهما العقار وثبتت الأقطاب على جبهتينا ثم توجهتْ إلى الأنبوب وحقنته بعد تغييره. تابعنا تحرك السائل الأرجواني ببطء داخل الخرطومين الرفيعين المتصلين بأوردتنا:

- «أتمنى أن تكون ذكرى طيبة هذه المرة». قالتها ميسون بنبرة مرتعشة تحمل توترًا ملحوظًا يضرب بجذوره في أعماقي أنا أيضًا.

استوطن السائلُ دمائي طواعيةً، ضباب احتوى بين أكنافه حدود الرؤية، وسيطرة أخمدت قوتها أمام السحر الكيميائي، لحظات واستلبني النوم عنوة.

• • •

(٥)

(قاتل)

شمسٌ لم تسطع نفثت حرارتها بين ذرات رمال ناعمة تشكلت تضاريسها بنصف ملامح وجهي القابعة فيها، منكفئًا على بطني، تمتد يداي بجانبي كأنني أُلقيت من الطابق العشرين في قضية ستُسجل ضد مجهول. ضيقٌ تربع داخلي بغير سبب منطقي، فأنا ما زلت ببداية الذكرى الجديدة، أو ربما أثر الذكرى المنصرمة لم ينحل عني بعد. جثم التوتر بثقل شعوره فوق جسدي، فاضطربت سواكنه رغم القوة التي يبثها العقار بين جنباته، شعور بالاختناق لا يتناسب مع ما يفعله بساط البحر الأزرق بالروح. فتحتُ عيني، أحاول الوقوف مستندًا إلى يديَّ وركبتيَّ، أتفقد المكان ببصري، لم يكن هناك بحر، وتلك الرمال ليست بشاطئ كما ظننت، كانت الرمال تمتد من تحتي مكونة ساحة مربعة الشكل تحدها أجولة مملوءة بالرمال ترقد بعشوائية، ينتصب مع كل زاوية بها عمود يحمل مصباحًا ذا إنارة بيضاء قوية تُرهق نظر من يطيل التحديق فيها، تقبع مسافة قصيرة بين الساحة وسور أبيض دائري متوسط الارتفاع، يتحلق أناس من

حوله في صفوف متدرجة هجرت مقاعدها إثر حماس اندلع بها. كان المكان يبدو كحلبة مصارعة سنغالية افتُتِحت أولى مبارياتها للتو، أصوات تزأر، وملامح تزمجر، ووجوه غاضبة لعلة غير معلومة، لا تنحل عقد ألسنتهم إلا بكلمة واحدة تهز أرجاء المكان:

- قاتل، قاتل، قاتل.

كانت ميسون تقف ورائي بخطوة وقد أبكمها الذعر فلم تسأل أسئلتها المعتادة، قابضةً يدها إلى صدرها تحملق في الوجوه الغاضبة بخوف.

لم أكن أفهم شيئًا، فهذا المكان لا أتذكره البتة كما أن بنية جسدي العادية لا توحي بأنني كنت يومًا مصارعًا، لكن الشعور ليس غريبًا، شعور الضيق والتوتر والخوف والكره، أتذكره جيدًا. عندما كنت صغيرًا وكان مازن يكبرني بعامين ويمارس تنمره باحترافية معي بإيذائي جسديًا ولفظيًا أمام أصدقائه، الصندوق الذي يلقي به بذاءاته وقاذوراته ويحكم غلقه جيدًا بعد الانتهاء لحين العودة إليه، كنتُ الكائن الصغير الذي يهابه بمجرد رؤيته فيسلك طريقًا آخر سيكلفه عناء تعب قدميه مقابل تفادي إحساس الهوان، فيجده بنصف الطريق ويُجرعه إياه، يجلدني بسياط قمع والديه ومدرسيه واستهزاء أقاربه من بدانته ليستشعر قوته. كنتُ أكرهه كثيرًا على الرغم من إجباره لي على قول كلمة «أحبك» عقب كل إيذاء، ولكن بقي الخوف بيني وبينه سورًا عاليًا لم أمتلك الجرأة لحظة لتسلقه.

قطع استرسال ذكرياته القميئة معي بإطلالته ذات الابتسامة الساخرة المعتادة وملامحه التي أتقنت الخسة، يتقدم تجاه الحلبة

بثقة اكتسبها من وراء خضوعي الدائم له ليقف قبالي بعين لم أرَها يومًا تنظر إلي إلا استهتارًا، كشف وجوده تحت الضوء عن شيءٍ غريب وهزلي في الوقت ذاته، كان تركيب جسده غير متناسق، رأس الطفل الذي اعتدت رؤيته لكنه على جسد ضخم مفتول العضلات قوي البنية يطقطق رقبته يمينًا ويسارًا استعدادًا لخوض نزال. بدأ الأمر يتضح، يبدو أنه جاء ليقاتلني، لم يكفه ما فعله بي ونحن صغار بل أتى بمرتزقة أيضًا ليشجعوه. لكن مهلاً، ما يحدث الآن من المفترض أن يكون داخل عقلي، فلماذا يفعل بي عقلي هذا؟ أما توجد ذكرى طيبة بحياتي يذكِّرني بها؟

- «ما الذي يحدث؟» سألتُ ميسون غاضبًا.

-أنت من تسأل؟ أنا من يجب أن يسأل. من هذا بتركيب جسده الغريب؟ وما تلك الحلبة؟ ومن هؤلاء وما هذه الذكرى؟

ندمتُ على سؤالي الذي أيقظها فجأة لتُجري نهر أسئلتها بمجرى الملل، ولكنني كنت بحاجة إلى استفسار ولا أحد يملك الإجابات هنا غيرها.

- لا أتذكر هذا المكان مطلقًا، وهذا مازن، لا أعلم إن كنت أكره أحدًا آخر في حياتي مثله، ولكن أكرهه جدًا.

- كان يؤذيك؟

- كثيرًا.

- وماذا كنت تفعل معه؟

أجبتها بضيق:

- لا شيء. كنت أخافه.

التقطت ميسون كلمتي الأخيرة بصمت محدقة في اللاشيء، ثم صاحت كأنها وجدت ضالة غابت عنها لسنوات:

- فهمت. الآن فهمت. عقلك لم يذهب بنا إلى ذكرى هذه المرة، عقلك ذهب بنا إلى منطقة أخرى تمامًا، إلى خوفك.

نظرتُ إليها بنظرات تتهمها بالخبل فأردفتْ:

- صدقني، هذا يفسر لماذا يظهر هذا الشخص بذلك الشكل، رأسه كما اعتدت رؤيته وجسده يعكس حجم خوفك منه. يبدو أن الخوف كبلك لأعوام والآن يريد عقلك أن تواجهه وتتحرر منه.

قبل أن أفهم أكثر ما تعنيه بكلماتها، أُشعل فتيل مازن فتحرك تجاهي بكامل قوته، يضرب الأرض برجليه فتتناثر الرمال بقوة وراءها. انسحبتْ ميسون مسرعة خارج الحلبة هاربة، فبالتأكيد لن يسمح لها عقلي بالوقوف أمامه معي، وإن سمح فما أظن أن تتغير ردة فعلها. تظاهرتُ بالثبات في محاولة لاستدعاء شجاعة لم أظهرها يومًا أمامه. كان الفشل حليفي بمجرد اقترابه مني، خوف ثقيل أمد قدميَّ بالأدرينالين[١] ما ساعدهما على الجري بسرعة مذهلة. ظللت أفر منه حتى أتممت عدة دورات حول الحلبة دون توقف، بدأتُ أشعر بالتعب وهو لا يتعب، خطر لي: لماذا لا أهرب حتى ينتهي وقت

(١) هرمون يُفرَز عند الشعور بالخوف.

العقار؟ توجهتُ إلى السور الأبيض وتسلقته محاولًا الاندساس بين كومة البشر الذين لا أعرف منهم أحدًا، لكنهم حملوني فوق أيديهم ودفعوا بي تجاه الحلبة. متى تشرب عقلي بهذا الكم من النذالة ليكون جمهوره بهذا الشكل! كانت هذه المحاولة كفيلة لالتقاط أنفاسي لأبدأ في الركض من جديد، دورتين حول الحلبة وبدأ الإنهاك يزحف متسلقًا إياي كنبتة لبلاب سريعة النمو.

صاحت ميسون من ركنها البعيد:

- لن يجدي هذا نفعًا، تشجع، لن يكف عن اللحاق بك حتى تواجهه.

بدأتُ أصب عليها وافر اللعنات بداخلي، هي السبب في ما أمر به الآن، وهي من صنعت هذا العقار البغيض، والآن تطالبني بالمواجهة ببساطة. لا تشعر بما أعانيه وتختبئ بركنها وتملي عليَّ أوامرها!

بدأتْ بالتصفيق كطفلة صغيرة وهي تصيح مشجعة:

- أمجد، أمجد، أمجد.

كان جمهوري مجموعه يساوي واحدًا متمثلًا في ميسون، ولكن لا أستطيع أن أنكر أنني كنتُ بحاجة إلى سماع اسمي الآن، مجرد سماعه انتزعني من جريي المتواصل وسعيي المستمر وغرقي بدوامات التيه التي لا عمق لها منذ أن ولجتُ هذا العالم لأقف للحظة ألتقط فيها أنفاسي. أنا أمجد الفاقد لذاكرته لكنه بالتأكيد كان يملك حياة كاملة ذات يوم، كان يملك كيانًا مستقلًا، ذكريات حزينة وأخرى

سعيدة، ليالي قاتمة تبعتها نُهُر واعدة، صفعات غدر، أكناف روع، لقاءات فرح وقطرات اطمئنان ارتشفها القلب ذو اللوعة فهدأ، أريد العودة لحياتي لرؤيتها بحلوها ومرها، لرؤية من أنا، وأتوق لرؤيتي أكثر دون خوف.

توقفت عن الركض وثبتُّ مكاني، التفتُ لمازن أحرقه بنظراتي، توقف وهدأتْ عنه نشوته بقوته قليلًا، تقدم نحوي فخانتني قدماي بالرجوع خطوتين إلى الخلف ولكن ثبتُّ وتقدمتُ تجاهه، سكنَ وبدأ بالرجوع إلى الخلف مما سمح للثقة بضخ دمائها بعروقي بقوة، تقدمت أكثر وأكثر، حاول أن يلكمني بقبضته ولكني تجاوزتها بسرعة لم يخطط لها وافترشتُ الرمال من تحته، قيدتُ قدميه برجلي ما أخل بتوازنه فسقط بقوة أرضًا، جلستُ فوقه ووضعت رأسه بين رجلَي وصفعته بقبضتي فتعالت أصوات الجمهور أكثر:

- قاتل، قاتل، قاتل.

الآن فهمت، يبدو أنهم كانوا يشجعونني منذ البداية، كانوا يوجهون لي رسالة بكلمتهم دون إكمالها (قاتل خوفك)، هتافهم عزز قبضتي أكثر وأثقلها لتغوص في أعماق وجهه بقوة وأنا أصرخ به:

- غبي، متغطرس، أناني، مغرور.

ظللت أصفعه غير مبالٍ بدماء وجهه التي تدفقت بغزارة من أنفه وفمه وتلطخت بها يداي.

جاءت ميسون بجانبي هامسة:

- أمجد، يكفي.

صرختُ بها:

- دعيني.

وقبل أن ينال وجهه لكمتي التالية تبخر رأس مازن من بين رجلَي سريعًا وتبعه جسده. خفتَ صوت الجمهور شيئًا فشيئًا وبدؤوا بالتبخر وتبعتهم المقاعد، لم يتبقَ غير الحلبة الرملية أجلس بها كما أنا أنظر إلى يدي المخضبة بالدماء وقد سرت رعشة بجسدي وأنفاسي يلاحق بعضها بعضًا.

- «لماذا انتشله الآن؟ لماذا لم ينتظر حتى أقضي عليه؟» سألتُها غاضبًا.

قالت وهي واقفة ورائي:

- لأن عقلك أراد أن تواجه خوفك لا أن تقتله، الخوف مفيد لنا، لولا الخوف لما كنا نحرص على سلامة حياتنا ونقدر قيمتها، لولا الخوف لما شعر أحبتنا بعمق مشاعرنا لهم، الخوف ركن أساسي بمنظومة المشاعر مثله مثل أي شعور آخر، ليس كل شعور بالخوف خزيًا، أحيانًا يكون الشعور بالخوف وجهًا من أوجه الشجاعة يا أمجد.

لامس منطق كلامها قلبي فهدأ من روعه وكبح جماح انتقام كاد أن يستلذ به فيقع في شباكه.

سألتُها بهدوء بعد أن رجع إيقاع صدري لطبيعته:

- وماذا بعد؟

بدأتْ بالدوران حولي:

- لا أعلم، أظن لم ينتهِ الأمر.

بدأت الحلبة بالتبخر بعد أن انتهت ميسون من جملتها، وبقينا متعلقين بأستار العتمة للحظات، تهاوى جسدانا فجأة كأن أحدًا ما جذب البساط من تحت أقدامنا، نسقط سقوطًا حرًا في بئر مظلمة لا قرار لها، قلوبنا تنبض هلعًا مع ازدياد سرعة السقوط من لحظة الارتطام المنتظرة، ظهرت من بعيد أرض لم ترَ ماء المُزن يومًا، استفحل بها الجفاف فتصدعت بتشققات متداخلة وغائرة نقترب منها بسرعة هائلة، ارتطام كهذا سيُفضي إلى موت بالتأكيد، هل يوجد موت هنا؟ يا لغبائي، كيف لم أسأل ميسون هذا السؤال؟ أُحكم مقبض بكرة خيط الصنارة الوهمي المتعلق بظهورنا فتوقفنا على بُعد سنتيمترات من ارتطام مؤكد، تنفستُ الصعداء وأنا أدقق النظر إلى تلك الخطوط العريضة المتشابكة الموازية لعيني وقد ظهرت بشكل أكبر، كدُمى خشبية حُرك جسدانا لوضعهما الطبيعي لنقف باعتدال، وأرخيت أقدامنا على الأرض المجدبة كهبوط طائرة، مكان قاحط ووادٍ مقفر لا أول له ولا آخر على مد البصر تناوشه لفحات لها صوت كفحيح الأفاعي، تمخضت الأرض فجأة بمياه لاقت سبيلها بين تعرجات نهمة قاحلة تشتاق شعور الارتواء منذ زمن حتى فاضت واستحالت طينًا، حائط عظيم بالقرب منا أملس عرضه باتساع الأرض تحرك من مرقده ببطء حتى استوى قائمًا مثيرًا لغبار تشبعت به أنفاسنا فطردته بسعال، سكن للحظات بدا فيها كأنه يرمينا

بسهام بصره الحادة، تحرك بعدها صوبنا بسرعة كبيرة أحدثت جلبة مع الأرض الطينية لم أملك أمامها أنا وميسون سوى الهرب ركضًا، لعله يساعدنا بالنجاة بأنفسنا من حائط!

سألتني ميسون صارخة وهي تحاول التقاط أنفاس زائدة توفرها للنطق عوضًا عن المفقودة في الركض:

- ما هذا؟ ماذا فعل لك الحائط أو ما فعلت به؟ حتى الجمادات كان لها دور بحياتك!

- لا أعلم، لم أرَ هذا الحائط من قبل.

- إذًا لماذا يطاردنا؟.

- أخبرتكِ سابقًا: لا أعلم.

ظللنا نركض للمجهول، لا نعلم سبب غضب الحائط المصمت خلفنا ولا متى يمن علينا بالغفران وينتهي الأمر، يعوق حركاتنا وحل الطين الذي يجذب أقدامنا إليه كلما حاولنا رفعها.

لاحت في الأفق هضبة متعرجة ينحدر سطحها بقسوة تجاه الأرض، ارتجينا أن يكون بها كهف يؤوينا من اصطدام حائط هدفه الفتك بنا فأسرعنا نحوها، وصلنا بعد أن انقطعت الأنفاس وتمزقت الصدور شهقًا عقب تأدية مهمتها على أكمل وجه وتوصيلنا لبر الأمان.

كان تكوين الهضبة عجيبًا، مقسمة كخلية النحل إلى فتحات مجوفة طوليًا مستطيلة تستطيع بالكاد احتواء جسم إنسان متخليًا

عن أي حركة يقوم بها.

- «هيا ادخل إلى واحدة من تلك الثقوب سريعًا وسأفعل أنا كذلك حتى لا نصطدم بالحائط» قالتها ميسون آمرة.

هالني ما قالت واحتلت جسدي غابة مطيرة بحشراتها التي نشرت الشعور بالحكة في أنحائه المختلفة، يتصبب عرقًا بأمطارها التي أغرقته فيها.

نوبة هلع تكورت بحلقي حاجبة الهواء مما زاد شعوري بالاختناق، وإحساس بفقد السيطرة على زمام أمري ما دفعني للدوران بعيني بعشوائية أبحث عن أي مهرب آخر. قالتْ ميسون زاجرة:

- هيا أسرع. الحائط خلفنا، ماذا بك؟

أجبتها غارقًا في بحر خوفي:

- أبحث عن مخرج آخر، لن أستطيع أن أحشر نفسي بتلك الفجوة مهما كلفني الأمر.

نظرت ميسون إلى الفجوات الضيقة وإلى الحائط المتقدم بثبات نحونا وبدأت بربط الأشياء قائلة:

- **Claustrophobia**

-ماذا؟

-أنت تعاني من رهاب الاحتجاز في الأماكن الضيقة، وهذا يفسر لماذا يجري هذا الحائط من خلفنا وأوصلنا إلى هنا

متعمدًا لحل هذه المشكلة لديك.

-وما الحل الآن؟

-أن تحتمي بواحدة من تلك الفجوات وتتغلب على ذلك الخوف.

هززتُ رأسي نافيًا فأردفتْ مسرعة:

-لا يوجد حل آخر. سيظل يطاردك الحائط حتى تجد نفسك أمام فجوات وفجوات أخرى وستضطر إلى الدخول بواحدة منها.

أكملتْ وهي تدقق النظر إلى داخل الفجوات:

- أرجو ألا تكون مصابًا بـ « **Arachnophobia**» حتى لا تجدها بانتظارك بالداخل».

- وما هذه؟.

- رهاب العناكب.

امتقع وجهي فلاحظت ذلك وحاولت تهدئتي بنبرة مطمئنة:

- لا تقلق. كنت أعالج أصحاب الرهاب، ولكن لم أكن أتبع فكرة علاج وضع أصحاب الرهاب بمواجهة خوفهم، لكن يبدو أن عقلك يميل إلى تلك الطريقة. افعل ما سأقوله لك وستشعر بتحسن، لا تتنفس سريعًا، تنفس ببطء، حاول أن تفكر بأي شيء آخر غير خوفك. سيمر الوقت ثم؟ ثم لا شيء، لن تموت، لن تُكتم أنفاسك ولن تبتلعك الفجوة بداخلها وسيمر

الأمر بسلام.

أومأتُ لها برأسي مترددًا. بدأت بالدخول إلى فجوة واستقرت بداخلها بسهولة حسدتها عليها، كان الحائط قد اقترب للحد الذي لا يصلح أمامه التردد. بدأت بحشر جسدي داخل الفجوة بصعوبة كأنني أزيح جبلًا عن موضعه حتى اكتمل دخول جسدي بها وقد لامس سقفها أرنبة أنفي، اصطدم الحائط بالهضبة بقوة فسُدت جميع الفتحات بها كبوابة لن تسمح بالعبور حتى يسمح عقلي بهذا. لمَ عقلي قاسٍ بهذا الشكل؟ ماذا فعلت به طيلة حياتي ليرد لي الصاع صاعين الآن كأنه ينتقم لنفسه مني لقرارات لم أتخذها وأشياء لم أفعلها، أشياء كان يرى فيها إصلاح اعوجاجي ولكن فضلتُ العوج، جبنت وضعفت ولم أقوَ على المواجهة ويضعني الآن فيها مجبرًا. حاولتُ تطبيق نصيحة ميسون بالتنفس ببطء، فلو ظللت أتنفس هكذا سيُسحب جميع الهواء بالفجوة في غضون دقيقة. كان قلبي خائفًا مسكينًا يشعر بالذعر يحتمي بقوة ضرباته التي تطن بأذني بانتظام، أخذني التفكير لوهلة: ماذا لو كان العقار يذهب للقلب بدلًا من العقل، هل كان سيغرقني في دماء أوردته أم يجعلني ألتقي بها؟ بها! ترى من هي؟ وهل هي موجودة بالأساس أم لا؟ هل صادفت الحب يومًا ورويت جفاف روحي من نبعه، أم أنه لم يمس شغاف قلبي قط؟ هل لي خطيبة أو زوجة أملك منها أولادًا؟ هل وضعتُ قلبي متأنقًا بكامل حلته على عتبة إحداهن يومًا فاحتوته محبةً ولطفًا أم لفظته كراهةً وقسوة؟

أثار التفكير بقلبي تيارًا كهربائيًا مس عقلي، فبدأتْ تظهر أمامي

الكلمات كالومضات تظهر وتختفي،

(إليك/...

لقد كنت كاذبة عندما ادعيت معرفة صاحب الصوت وأنا التي لم تنسَه لحظة...)

تداخلت جميع الكلمات والأحرف بعدها فلم أستطع أن أميز واحدة منها، حاولت التركيز أكثر في محاولة لالتقاط أي حبل من حبال الذاكرة لكن لم أنجح بهذا، حالة التوتر التي هدأت إلى حد كبير ما زالت سيدة الموقف تسجن عقلي في سراديبها خشية التذكر، كأنها شعرت بالغيرة من انخراطي بأمر آخر غير الاهتمام بها. مر بعض الوقت استطعتُ فيه اعتياد الأمر بشكل ما، ما زال يسيطر على قلبي الخوف ولكن أقل كثيرًا مما سبق، بدأتُ أسمع صوت تزحزح الحائط عن الفجوات بمرسوم رسمي أصدره عقلي له بالعفو عني. تحركتُ زحفًا بجسدي للخارج فوجدتُ ميسون قد تحررت هي الأخرى.

بصوت قلق سألت:

- هل أنت بخير؟ هل تشعر بالتحسن؟

أومأتُ برأسي إيجابًا، فأكملتْ:

- أظن أن المشكلة قد حُلت، حالك يبدو أفضل كثيرًا.

- نعم. طبقت نصائحك وتذكرت شيئًا ما.

سألتني مسرعة:

- ما هو؟

قبل أن أجيبها بدأ كل شيء بالتبخر، الحائط والهضبة والأرض الطينية، وعدنا للعدم. لم نتبخر كعادة نهاية مطاف العقار وكان باديًا أننا على مشارف جولة جديدة، أي حياة تلك التي كنت أعيشها مليئة بكل هذه المخاوف! لم نبرح مكاننا ولكن بدأت أشياء بسيطة تتجمع حولنا كحال الذكرى الأولى، طاولة عالية خلفها ثلاثة كراسي عتيقة قبع بعضها بجانب بعض، تستقر أمام الأوسط منها لوحة نحاسية رفيعة كُتب عليها (سيادة القاضي/ القلب)، أرائك خشبية عن اليمين واليسار تُركت مسافة بينها لسهولة التحرك، مقعد يقبع أمام الطاولة مباشرةً يبدو أن له وظيفة ما، وقفص حديدي أسود مستطيل الشكل حاوطني! تشكلتْ قاعة محكمة كنت أنا فيها الجاني عن ذنب لم أتذكره مطلقًا، وسط نظرات دهشة ميسون واستنكاري لما يحدث لي. دخل ثلاثة وُضعت عليهم حُلة الوقار يتحركون بثبات تجاه المقاعد خلف الطاولة، جلس بالمنتصف رجل تبدو عليه سمات التقدم بالعمر قد وخط شعره الشيب وأصاب الحزن ملامحه بالذبول، بجانبه عن اليمين واليسار شابان لم تُعرف هويتهما. لحظات ودلفت إلى المحكمة بفستانها الأحمر القاني وقبعة سوداء كلاسيكية مائلة على وجهها تبدو أنها تحجب بها شيئًا ما. مزق السكون صوت طرقات كعب حذائها الرفيع وهي تمشي بخطوات ثابتة كالساعة، حدجتني بنظرة تحمل كرهًا قبل أن تجلس على المقعد المقابل لطاولة القضاة.

سألتني ميسون الواقفة بجوار القضبان سؤالًا يحمل بين طياته شيئًا من الضيق يغلفه استهزاء:

- هل هذه إحدى مخاوفك؟

لم أكن أتذكرها ولكن أشعر بانتمائها إلي بشكل ما. ربما تكون إحدى قريباتي أو ربما تكون... هل تكون صاحبة الجملة؟ لا أدري.

تنحنح القاضي قبل أن يوجه سؤاله لها:

- ما شكواكِ سيدتي الفاضلة؟

أجابتْ بصوت صارم:

- جئت أطالب بالقصاص من هذا الذي يقبع خلف القضبان.

غلفتني الدهشة من اتهامها وصحتُ معترضًا:

- مني أنا؟

- نعم منك.

- ولكن سيدتي ماذا فعلتُ لكِ؟

صرخت قائلة:

- هذا.

خلعتْ قبعتها بعد أن أحرقتني شرارات عينيها فكشفتْ عن نصف وجه مشوه أسود تبدو عليه علامات حرق يقشعر بدن من ينظر إليها. ألجمتني الصدمة. أيُعقل أن أكون أنا من فعل بها هذا! حاولتُ الدفاع عن نفسي، ولكن بأي شيء سأنطق وأنا لا أتذكرها ولا أتذكر ما تدعي أنني فعلته بها؟

نظر القاضي إليها بأسى وهو يقول:

- أتفهم موقفك تمامًا، خصوصًا أنكِ قدمتِ إنذارات عدة وضرب بها عرض الحائط.

تابعتْ بحماس لجلب استعطافه أكثر:

-سيدي القاضي. كان قدرنا أن نُجمع معًا بجسد هذا المستهتر، فلم يحافظ علينا واستمر في إتلافنا عمدًا باستمراره في التدخين ومصادقة أصابع السجائر الخبيثة، انظر إلي وأنا الرئة كيف كنت أستنشق عبق الحياة النقي وتبهجني نسماته فأفسد عليَّ متعتي بدخانه، وانظر إليك أيها القاضي وأنت قلبه كيف وهنت وضعفت.

قاطعها:

- لقد وهنت وضعفت لأسباب أخرى كثيرة غير التدخين، فلا أريد أن أكون ظالمًا. لا داعي لكثير من الكلام. تفهمت شكواكِ، ماذا تريدين الآن؟

أجابت بحزم:

-القصاص وعلى طريقتي.

-وهي؟

-الحرق.

قالتها بصرامة أخافتني. إن كانت رئتاي قد تجسدتا بهذه السيدة

فهما تبغضانني كثيرًا. لم أكن أعلم أنني مدخن ومن الواضح أنني مُدخن شره، وعقلي قرر أنه تجب محاسبتي بيد أعضائي التي شرعتُ في إتلافها. عقلي قرر هذه المرة تصفية جميع حساباته معي، يبدو أنني شخصية عنيدة رافضة لكثير من الأشياء التي تُوزن بميزان العقل.

انتفضتُ من سهو قد أخذني على صوت القاضي وهو يقول:

- موافقة.

تحركتْ تجاهي بخطى يملؤها الثأر، أخرجت زجاجة صغيرة من حقيبة كانت تحملها وأفرغت السائل الذي بها حولي.

جديتها جعلتني أتوسل إليها راجيًا:

- أرجوكِ سيدتي، أعلم أنني آذيتك كثيرًا ولكن أعدكِ أن أقلع عن هذا الأمر تمامًا وألا أعود له ثانيةً.

زمجرتْ بوجهي:

- قلت هذه الجملة كثيرًا وكنت تعود، لا رجاء منك.

حاولت ميسون التدخل لإقناعها بالعدول عن قرارها، لكنها قذفتها بنظرات كالرصاص فتراجعت خائفةً أن ينالها جزء من وافر اللعنات التي تكنها تجاهي.

أسرعتُ بسؤال ميسون:

- ماذا سيحدث إن أشعلت النيران؟ هل سأموت محترقًا؟

أجابتْ ميسون بتردد:

- لا، لا موت هنا، ولكنك ستظل تشعر بألم الحرق حتى تنتهي مدة العقار.

لم أستطع استيعاب كلماتها، استمرارية الشعور بالألم مفجعة، خيار الموت أمامها رحمة في كثير من الأحيان.

توجهتُ إليها صارخًا:

- سيدتي لا تفعلي هذا أرجوكِ.

أشعلتْ عود ثقاب ووجهها يحمل ابتسامة تشفٍ، قالت وهي تلقي به تجاه البقعة السائلة حولي:

- فلتذق ما جنته يداك.

• • •

(٦)

(الملاذ)

كعلكة أُزهقت روحها مضغًا وأُلقيت على جنبات الطريق لتلقى حظها العاثر في الالتصاق بأحذية المارة كان جسدي مُلقى تُوجعه طعنات حرب الخوف التي خرج منها لتوه فائزًا بروحه، قد تضلعت حناياه بالألم، وأضناه التخيل بما كان سيحدث إن لم ينتهِ وقت العقار في اللحظة المناسبة تمامًا واستطاعت شرارة الثقاب الوصول إلى السائل! أتذكر نظرة رئتَي إليَّ بعد أن تبخرتْ شعلة الثقاب وهي بمنتصف الطريق وبدأت الأشياء في التبخر بعدها، كان يبدو أنها مدركة تمامًا لما يحدث من اصطكاك أسنانها غيظًا والقهر المنبعث من عينيها من غليل لم يُشفَ. وضعت يدَي على صدري بعد أن بدأ قرص ميسون بمفعوله وتمكنتُ من الحركة، في محاولة مني لعقد معاهدةٍ صلح بيننا، استشعرتُ نبضات قلبي وقد اشتد بأسها عن قبل وأُلقي عن كاهلها خوف أضعفها لسنوات. خضت تجربة قاسية بأرض خوفي وها قد بدأت تؤتي ثمارها. ولكن لمَ بدا قلبي بهذا الكبر وأنا ما زلت شابًا؟ لمَ حملت قسماته كل هذا الحزن؟

- نجوتَ بأعجوبة.

قالتها ميسون وهي تتنهد ارتياحًا واطمئنانًا بنجاتي من الألم، أو هكذا ظننت. نزع قلبي عباءة خوفه وتزمل بثوب نسجته أيدي ميسون بخيوط لا أعلم كنهها. هل هو احتياج إلى رفيق يهون الرحلة أم اعتزاز بمن تشاهد تاريخي بثغراته الحرجة، أم أنه جذوة لأمر يعد ضربًا من الجنون المُحبب للنفس رغم تحذيرات العقل المتكررة بعدم الولوج؟ أيًا كانت ماهية الأمر فلا شك أن مرورها معي بهذه المعركة أحدث فارقًا، فرفقاء الصعاب دومًا مميزون عن البقية، بقية! عن أي بقية أتحدث وأنا لا أملك سوى عقار يمطرني بلكماته في ساحة ذاكرتي المعطوبة وميسون؟

- «يبدو أن لهذا العقار جوانب أخرى لا أعلم عنها شيئًا». قالتها ميسون وهي تحملق بإحدى إبر العقار المتبقية بانبهار.

- هكذا صارت المنفعة متبادلة.

- ماذا تقصد؟

- أنتِ أعطيتني العقار وبالمقابل اكتشفتِ جوانب أخرى له عن طريَقي، ما يجعلكِ تعيدين النظر في ثمَنه.

افترش الضيق ملامحها من جملتي الأخيرة فقالت:

- وربما هذا ليس اكتشافًا، ربما يفسر هذا لماذا وُضعت هنا وحدك، في ما يبدو أن عقلك يتعامل مع عقارات الذاكرة بشكل مختلف.

حيرة تدحرجت إلى تفكيري من تفسيرها سائلًا إياها:

-وهل لهذا علاقة بطول مدة العقار هذه المرة؟

-مدة العقار لم تتغير، أنت شعرت بهذا لسيطرة شعور الخوف عليك. الأمر مشابه للحلم، أحيانًا تشعر أن كابوسًا ما ظل يلازمك طيلة الليل وهو في حقيقة الأمر لم يتعدَ الدقائق، بل وشاركته أحلام أخرى بنفس الليلة ولكنها تُنسى.

أنهت شرحها وأخذت المقعد إلى زاوية الغرفة وجلست. لا أعلم بماذا كانت تفكر! ربما احتاجت إلى بعض الهدوء قبل رحلتنا الجديدة. مرت ساعتان حضرت بعدهما العقار وثبتت الأقطاب واستبدلت أنبوبًا جديدًا بالأنبوب القديم وحقنته ليبدأ ببث سائله الأرجواني في الخرطومين الرفيعين النافذين إلى دمائنا، ثم ضغطت على الزر الأحمر المثبت بالجهاز.

- أرى أن حماستك لاستخدام العقار أصبحت تفوق رغبتي في استخدامه.

تجاهلت جملتي التي كان مكنونها جليًا في تحركاتها قائلة:

- أرجو ألا يبتلعنا وحش هذه المرة.

كاعتياد بلع الريق ورفرفة الأهداب استقبل جسدي العقار مُرحبًا، آملًا في صداقة تشفع له بالمعاملة الطيبة، مقتحمًا صفائحي الدموية وخلاياي عن طيب خاطر. أُرخيت ستائر أجفاني شيئًا فشيئًا، صافحت عيناي الظلام وادلهم المكان.

• • •

أعشاب طفيلية زاهية الخضرة تعرّشت على بوابة خشبية عتيقة ضخمة حجبت معظمها، إلا مفصلتها اليمنى المزخرفة على شكل سهم يحمل نتوءات بارزة، وحلقة مقبضها الحديدية المعلقة في الهواء محمولة من أعلى بماسك دائري مثبت عليها، يتسلل من أسفلها ضوء دافئ احتوى أقدامنا داخل بقعة امتداده. شيء ما بعث الهدوء داخل نفسي واستمال الطمأنينة إلى قلبي وناداني بصوت صامت أن أقْدِم. حثثتُ الخطى متقدمًا تتبعني ميسون وقد بلغ الفضول مني مبلغه لمعرفة ما تحجبه البوابة وراءها ومعرفة سر ارتياحي المبهم تجاهه، بدأتُ بدفعها شيئًا فشيئًا فصدر صرير مكتوم ينم عن هجرانها منذ زمن. خانت عينَيّ لمعة ضوء قوية حاولتُ حجبها بيدي حتى هدأتْ حدتها واستطاعتْ حدقتاي احتواءها، لفحتني نسمات ربيعية لطيفة مُحملة برائحة عطرية طيبة أنعشت حواسي، بدأتْ بعدها معالم المكان في الوضوح أكثر، طريق طويل مستقيم معبد بالفسيفساء من حصباء ذات ألوان رائعة تُشكل رسومات رقيقة مبهرة، تمتد على جانبيه مروج خضراء واسعة تقبع تحت أشعة الشمس الناعمة، أشجار ساكورا باسقة تصطف على الجانبين تتمايل أزهارها الوردية مع الهواء بخفة، تتشابك أعالي أغصانها مكونة مظلات يتخللها نور الشمس مصافحًا الطريق بود. تغشانا جمال المكان فلاذ كلانا بالصمت في أثناء سيرنا. امتد غصن من إحدى الأشجار محملًا بالأزهار تجاهي، داعبت وجنتي واحدة من زهوره بأوراقها الرطبة فافتر ثغري عن ابتسامة كاشفًا غمَّازة استراحت بخدي فهدأتْ الزهرة كأنها حققت مرادها، لامستُها بظهر أصابعي برقة فانسحبت بحياء عائدة بالغصن إلى حيث كان.

انتهى بنا الطريق إلى قنطرة حجرية فوق غدير ماء شفاف يكشف الأرض من تحته، تجاوزناه فاستقبلتنا رمال ذهبية ساحرة تتلألأ ذراتها تحت شعاع الشمس اللطيف حرارته، مشينا ببطء تجاه بساط البحر الممتد ذي الزرقة الداكنة حتى وصلنا إلى أطراف أمواجه وهي تتهادى بحنو مدًا وجزرًا، سحبتُ نفسًا عميقًا لأملأ صدري بنسيم لم يلوثه غبار الحقائق ولم تدنسه خطايا الوقائع ناظرًا إلى المدى، أغمضت عيني وغرقت بأذني بين نغمات ارتطام أمواجه الهادئ. من قال إن جمال البحر يكمن في زرقته فقط؟ صوت البحر عالم آخر لا تستشعر لذته إلا وأنت مغمض العينين. لحظات مرت استطعتُ فيها إشباع شيء ما بداخلي، التقطتْ عيناي بيتًا مُقامًا بآخر الشاطئ فهرولتُ إليه مسرعًا وكذلك فعلت ميسون. وصلتُ إليه وفتحتُ بابه، كان بيتًا خشبيًا بسيطًا خاليًا من الأثاث مكونًا من ثلاثة طوابق متصلة في ما بينها بدرج بالٍ صعدناه إلى الدور الأخير، اتجهتُ إلى الشرفة الوحيدة بالبيت، رفعتُ المزلاج ودفعتُ دفتيها وأنا أتطلع إلى الخارج. كان البيت يقع على جرف صخري يطل على بحيرة جبلية انعكست لمعة ضوء القمر المكتمل عليها، عتمة آسرة احتوت السماء بين جنباتها وحل الليل كعاشق وسيم يرتدي بذلة سوداء تُشكل النجوم أزرارًا لامعة بها زادتها جمالًا، متأنقًا للذهاب إلى حفل يضم حبيبته. كان المشهد مختلفًا تمامًا كأننا دلفنا من باب البيت إلى مكان آخر وزمن آخر. لم تستطع ميسون كبح فضولها أكثر فسألتْ متعجبة:

- حديقة ثم بحر يليهما بيت يحمله جرف، منذ دقائق نهار يحمل شمسًا ساطعة والآن ليل حالك. أين نحن؟

أجبتُ وما زال بصري معلقًا بروعة السماء وبنور قمرها الأبلج:

- ملاذي، عالمي الذي صنعته في مخيلتي للهرب من الحياة، أعرف كل شبر بهذا العالم جيدًا، كم شجرة زُرعت بأرضه وكم حصاة ألقيت بين أركانه، عدا البوابة لا أعلم متى وُضعت، من الواضح أنني لم آتِ إلى هنا منذ زمن.

ارتقيتُ إلى سور الشرفة وعلّقتُ قدمي بالهواء فتكونت من تحتها سلَّمة بللورية ارتفعت بقدمي اليسري فتكونت تحتها سلمة أخرى، بدأ الدرج المرمري يتكون سلمة تلو الأخرى كلما ارتفعت متجهًا صوب القمر. ارتقتْ ميسون لأول سلَّمة بقدمين مرتعشتين تخشى الوقوع، وسألتْ بصوت عالٍ كي يصلني بعدما باعدت بيننا مسافة كبيرة من الدرجات:

- وبأي قوانين يُحكم هذا العالم؟

طقطقتُ بأصابعي في حركة آمرة فاختفى السلم من تحتنا وتهاوى جسدينا بسرعة كبيرة تجاه البحيرة العميقة. علا صراخ ميسون وتردد صداه بالمكان وهي تحاول التشبث بأي شيء ينقذها، أخرجتُ صفيرًا طويلًا فجاءت ندفتا سحاب طائعتين حملتني واحدة كبساط سحري وحملت الأخرى ميسون بعد أن أوشكنا على الارتطام بسطح البحيرة الساكن. تنفستْ ميسون الصعداء وهي تحاول استيعاب ما يجري مدققة النظر في سحابتها خشية أن تسقط من بينها، زدتُ من سرعتي وأنا ممسك بأطراف سحابتي لأسيطر عليها كمركبة أحاول قيادتها، قلتُ وأنا أشق سطح البحيرة بأصابعي:

- لا قوانين هنا، في عالمي أبوح أركض أطير أصرخ أُجن أهدأ أبكي أتوجع أفرح أعشق أكره، ألمس الشمس بيدي وأتخذ من القمر منزلا، أنسج من السحب وسادتي ومن الموج غطائي، أجوب المحيطات وأتنفس تحت الماء، أنتقل عبر الأزمنة وأصير ملكًا في قلعته أو عاملًا بسيطًا في ورشته أو محاربًا عظيمًا في ميدانه، أغير تضاريسه فأصنع منه بلاد العجائب في دقائق أو أهمله لسنوات ويصبح داخله طللًا، أجسد فرحي وحزني وأقيم مأدبة عشاء فاخرة على شرف معاهدة الصلح بينهما، أعملق التوافه وأبسط الحقائق، في عالمي أكون أنا، أنا وحسب.

انتهيتُ من كلامي وأنا أتجه بسحابتي عاليًا تجاه جبل يحجب الأفق، لففتُ حوله فتخضبت السماء بحمرة الغروب البرتقالية وقد ذهب نصف قرص الشمس إلى زوال، كان الجبل يخفي وراءه غابة بديعة تستظل ووديانها بشجر القطلب بثماره الحمراء حسنة المنظر محاطة بتلال وجبال متنوعة، ينبثق من واحد منها شلال له خرير ناعم يبعث السكينة في النفس. أوصلتنا السحابتان إلى حافة أحد الجبال فترجلنا عنهما باطمئنان، تحركت السحابتان مسرعتين عائدتين إلى خلف الجبل الفاصل بين المكانين والزمانين بعد أن أدتا مهمتهما بسلام. اتجهت ميسون إلى سطح الجبل الذي افترش بحشائش خضراء ندية يحمل زهورًا قرمزية أخاذة منبسطة في بهاء تتطلع إليه في انبهار، بينما جلستُ أنا إلى طرف الحافة أشاهد غروب الشمس بشكل مهيب وقد وضعتْ أشعتها التي أخذت من الجمر لونه سيميائها على كل شيء.

لعج الهم في صدري مفكرًا، متسائلًا: لمَ صنعت كل هذا العالم بهذه الرحابة؟ من أي ضيق كنت أهرب؟ من أي واقع كنت أفر؟ ألم يكن أحدهم بجانبي يشاطرني الحزن والأسى، يشاطرني السرور والفرح، يشاطرني الحياة؟ حتى وإن كان هناك أحد، بعض الجراح لا يعلم قدرها إلا أنت، أنت وحدك تعلم كم اقتاتت الحكمة بوهجك حتى أطفأتك تاركةً لعاعة قبسها ثمنًا، وكم خلفت معارك نفسك المجدبة قلبًا عارمًا لم ترغب في امتلاكه يومًا لكنه الأقدر على المواجهة، وربما هذا يفسر سعة عالمي، للهرب من البشر جميعهم.

قاطعتْ ميسون شلال أفكاري المنساب مع الشلال المسترسلة دفقاته أمامي:

- يبدو أن عقلك يكافئك بزيارة مكان محبب إلى قلبك بعد ما واجهت مخاوفك في المرة السابقة.

تابعتْ بعد برهة من الصمت:

- ألم تتذكر شيئًا؟

هززتُ رأسي نافيًا وأنا ما زلت أتطلع إلى السماء بأسى ربما لاحظته فأرادتْ تغيير مسار الحديث:

- أتعلم؟ أحسدك على هذا العالم.

- ولمَ؟ ما أراه الآن لا يعكس إلا واقعًا مريرًا مليئًا بالوحدة، شح بالأنس والمودة والحب...

قاطعتني مستنكرة:

- حب! الحب خرافة.

- كيف؟

أجابت وهي تُلقي زهورًا قطفتها من حافة الجبل إلى الوادي:

- الحب ما هو إلا كلمة تتغلف بها المصالح الشخصية وننطق بها لخجلنا من التصريح بهذا.

- بمعنى؟

- بداخل كل واحد منا جوانب مظلمة، منها ما ننساه ومنها ما نتجاهله، تظل ملازمة لنا حتى نحب فنكتشفها فجأة ونتذكرها عنوة، فنلقي بها على كاهل من نحب أملًا في إصلاح ما أفسدته السنون وتضميد جراح الخزي وتحويل عتمتها نورًا، فنجده هو الآخر يملك مثلها ويلقي بها على كواهلنا فلا تفلح كلتا المحاولتين. وإن كانت التجارب المبدئية لذلك الأمر تنم عن نجاح، فإنها تبوء في النهاية بالفشل، لأنه ببساطة من لم يحمل على كاهله تصحيح اعوجاج طريقه وري جفاف دربه بنفسه فلا يسأل الآخرين ذلك، حتى وإن كان حبيبًا بمنزلة الروح.

صمتتْ برهة سألتْ بعدها في انتظار إجابتي المؤكدة لكلامها:

- إذًا هل هو مصلحة في حقيقة الأمر أم لا؟

خالفتُ توقعاتها بإجابتي:

- لا أتفق معكِ في ما تقولين.

أخرجت تنهيدة قائلة:

- مسكين هنري مولاسون.

سألتُ متعجبًا من تغييرها المفاجئ لدفة الحديث:

- «ومن يكون هذا؟»

- «هنري مولاسون[1] أو المُلقب بـ(H .M) كان يعاني من الصرع الشديد، ما دفعه لإجراء عملية بالمخ استأصل فيها الطبيب (وليام بيشتر) أجزاء من قرن آمون[2] الخاص به، وبالفعل نجح في علاج الصرع لكنه أفسد حياته تمامًا في الوقت ذاته.

- كيف؟

- بعد إجراء العملية لاحظ أن هنري لا يحتفظ بأي ذكرى جديدة، أي شيء يتعلمه يتذكره لمدة ثلاثين ثانية وينساه بعدها، توقفتْ ذاكرته عند سن السابعة والعشرين، العمر الذي أجرى به العملية، حتى إن الأطباء منعوا عنه المرايا حتى لا تحدث له صدمة عندما يرى نفسه عجوزًا افترشت التجاعيد ملامحه وعقله ما زال رهن السابعة والعشرين.

سحبتْ بعض الهواء لكي تستطيع مواصلة حديثها:

- توفي هنري عن عمر يناهز الثانية والثمانين، خمسة وخمسين عامًا من اللاشيء يتنقل بينها حاملًا ماضيه الذي أصابه

(١) وُلد عام ١٩٢٦م وتوفي عام ٢٠٠٨ م ولقبه البعض بأشهر دماغ بشري في العالم.

(٢)ويسمى أيضًا بالحصين، وهو الجزء المسؤول عن الذكريات طويلة المدى بالمخ.

بعض العطب أيضًا إثر العملية، لكنها بالتأكيد كانت حقبة ثرية للأطباء لإجراء تجاربهم الموسعة عليه، فحالة هنري أحدثت ضجة في الأوساط العلمية المتعلقة بدراسة المخ والأعصاب، ونال من الحب قسطًا أطباء علم النفس أيضًا، فعن طريق هنري نُسف المعتقد القديم بأن الذاكرة عبارة عن كتلة واحدة لا تتجزأ لصالح أن الذاكرة موزعة على أكثر من مكان بالمخ، ولا يصيب أيًا منها خلل إذا مس الأجزاء الأخرى.

أكملتْ وهي تنظر إلى المدى قائلة بأسى:

-البعض كان يرى أن ما يمر به هذا الرجل مأساة حقيقية والبعض الآخر رأى أنها هبة، سينسى أفراحه ولكن بالمثل سينسى أحزانه، لن يمتلك ذكريات سعيدة ولن يمتلك ذكريات حزينة أيضًا، لم يفكر أحد في الثلاثين ثانية، ثلاثون ثانية قد تكون قليلة على الإحساس بالفرح ولكنها ليست بقليلة على الإحساس بالألم، وهذا ما ذكرته المرافقة له -سوزان كوركين- في كتابها، عندما قالت إنه من أصعب اللحظات التي كانت تمر عليه عندما يسألها عن والديه وتخبره بوفاتهما ويعتصر الألم قلبه كل مرة كأول مرة.

انتهتْ من حديثها ومرت دقيقة صمت تذكرتُ خلالها بداية حوارنا، فسألتها:

- لا أفهم ما ترمين إليه بذكر تلك القصة.

قالت بانفعال:

- ذكرتُ القصة لأنه من الحماقة أن نكون مثل هنري وليست بنا علة، من الحماقة أن نقتحم الأشياء كأننا نقتحمها كل مرة كأول مرة بعد ما أدركنا حقيقتها.

كانت كلمات ميسون تقطر ألمًا لا أدرك سببه، وددتُ لو أعلم السبب الحقيقي وراء اعتقادها الغريب، وودت لو أتكلم معها أكثر وأعرف حياتها بشكل أقرب، وددتُ لو أعرفها، ربما ظهر لي في البداية وجهها السيئ ولكنها الآن تحاول معي بصدق لاسترجاع حياتي، تشاركني بكل شيء حتى عالمي الذي أظن أنه لم يطأه يومًا أحد غيري، شيء نشأ بداخلي يدفعني للابتعاد عنها رغم رغبتي المخالفة لذلك حتى لا أتورط في ما لا أعلم.

- «ما هذا؟» سألت ميسون.

نظرتُ إلى حيث تشير، خرج سرب من الفراشات من كوة تل مقابل لنا، يطير نحونا حتى وصل إلينا واستقر فوق رأس ميسون كمظلة. تحركتْ ميسون يمنة ويسرة فتحرك معها كأن الفراشات صارت التابع الجديد لها، بدأتْ ميسون في مداعبتها فكونت حلقات حول يدها كأنها موجة خرجت من عصا سحرية، أخذت ميسون في مداعبتها أكثر ونسيت ما اعتراها من ألم منذ قليل، أكثر ما أثار استغرابي: من أين أتت تلك الفراشات؟ أنا لم أُدخل عالمي أي كائنات حية. أحسستُ أن عقلي جسَّد بداية شعوري تجاه ميسون بتلك الفراشات البديعة التي تحاوطها، أو ربما يرحب بها على طريقته الخاصة.

ظلتْ ميسون تداعب الفراشات وعلى وجهها ألق السعادة، كان كل شيء مثاليًا ورائعًا، تمنيتُ من داخلي ألا تنتهي مدة العقار سريعًا، للمرة الأولى منذ أن استيقظتُ فاقدًا لذاكرتي أشعر بشعور جميل أود البقاء بجانبه قليلًا.

كل ما يحدث الآن لن يحدث ثانيةً وسيصير ذكرى، ذكرى مناسبة تمامًا لطبيعة المكان الذي حواه، عالمٌ خياليٌّ بعيدٌ كل البعد عن واقعي.

فاجأتني رؤيتها وهي تخرج من خلف صخرة كبيرة كانت بالقرب منا، تزاحمت الكلمات في حلقي من هول مفاجأتي فلم أستطع أن أنطق بغير اسمها:

- لبنى!.

كانت تحمل مسدسًا صغير الحجم فضي اللون لا يظهر إلا جزء من فوهته من بين أصابعها، صوبته تجاه ميسون ودون تردد أطلقت طلقتين استقرتا بخصر ميسون تمامًا. تسمرتْ ميسون مكانها وهي تنظر إليَّ بعينين تحملان بين حدقتيهما هلعًا وتساؤل لم أكن أملك له إجابة، تقلصتْ ملامحها وانحنتْ قامتها ثم سقطتْ على الأرض.

تمشتْ لبنى بجانبها ببطء وهي تُشبع الانتقام بداخلها بنظرات شامتة لتأوهاتها وملامحها التي سقطت في بئر من ألم، تحركت تجاهي وقد أسعدتها قلة حيلتي، مالت بجانب أذني هامسة:

- «إياك أن تُعجب بغيري». واختفت بعدها.

أسرعتُ تجاه ميسون بفزع مقيدًا بعجزي وجهلي بكيفية إنقاذها، وقد تذكرت كلماتها قبلًا عندما أخبرتني أن لا موت هنا لكن إحساس الألم يستمر حتى تنتهي مدة العقار. زادت بقعة الدم من تحت يدها الراقدة على مكان الرصاصات قائلة بصوت متقطع يئن:

-أتمنى، أن ينتهي، هذا سريعًا.

هززتُ رأسي مطمئنًا لها في محاولة تخفيف عابثة:

- سينتهي، سينتهي.

مرت دقائق كدهر من الأسى تحولت فيها أمنيتي بطول مدة العقار إلى النقيض تمامًا، مشفقًا على ميسون التي يتغذى الوجع على أنينها، بدأ بعدها كل شيء بالتبخر، الفراشات التي لازمت ميسون حتى بعد إصابتها، التلال، الوادي، الشلال، الزهور، الجبال، ميسون وأنا، كنت أنظر إلى جسدي وهو يتبخر بحزن، لم أكن أتوقع أن يحدث كل هذا وتزول سعادتي سريعًا، لم أكن أريد أن تحدث بعالمي ذكرى كتلك، ولم أكن أتمنى أن أسبب لميسون كل هذا الألم، لم أكن أتمنى هذا قط.

• • •

لم تكن ميسون بحالة تسمح لها بتذكر وضع قرص ما بعد العقار بجانبي كالعادة لتتحسن حالتي، كانت تشهق بقوة وهي تنظر بفزع إلى موضع الطلقات وقد اختفى تمامًا، تتحقق من سلامة جسدها بتحريك يدها للتأكد من أثر جراح لم تعد موجودة، حجبتْ وجهها بكفيها وقد بدأ زفيرها يهدأ في محاولة منها لاستيعاب نجاتها من

موت مسها بألمه ولم يستقبلها بعالمه، نظرتِ إليَّ كأنها تذكرتني فجأة قائلة بغضب عارم:

- من هذه؟.

لم يكن لدي مخزون من القوة يكفي إلا لقول كلمة واحدة:

- القرص.

جلبته من حقيبتها ووضعته جانبي بقوة غاضبة وبدأتْ بالتحرك جيئةً وذهابًا في انتظار اشتداد بأسي وما زلت تحت وطأة الهلع.

شعرتُ بالتحسن فاستويتُ قاعدًا، أتت ميسون مسرعة وما زالت باقية على غضبها:

- من هذه؟

- لبنى.

- «حقًا؟ كنت أظنها منى». قالتها بتهكم لاذع ثم تبعتها بغضب:

- ما علاقتي باسمها؟ أريد أن أعرف من هذه.

أجبتُ وأنا أحك جبهتي:

- لبنى تربطني بها صلة قرابة لا أتذكرها الآن، لكنني عندما رأيتها راودني شعور غريب وإحساس بالذنب.

قالت باستنكار غاضب:

- إن كنتَ تشعر تجاهها بالذنب فهذا يعني أنك بالتأكيد آذيتها، فلماذا قتلتني أنا؟

ترددتْ عيناي بأنحاء المكان وتلجلج لساني، لم أستطع تبرير فعل لبنى لميسون، ماذا سأقول لها وأنا لا أعلم لماذا فعلت لبنى هذا؟ جملتها التي سكبتها بأذني هامسة ذهبت بي لاعتقاد أنه ربما جمعني حب بها ذات يوم وخذلتها، وما فعلته رد فعل لشعور نبت بقلبي تجاه ميسون. لا أقدر على إخبار ميسون بهذا، فلو كنتُ مكانها لنعتّني بالمجنون، لا يحق لي أن أشعر بتلك المشاعر وأنا جاهل بهويتي، ربما بتلك المشاعر أنقض عهدًا قطعته لحبيبة أو أخون وفاء أكنه لزوجة، والجملة التي تذكرتها في فجوة الهضبة من تكون صاحبتها؟ يجب أن أصب جل اهتمامي الآن في التركيز على استعادة ذاكرتي، فالوقت يمر وإبر العقار تنفد وأنا لم أتوصل بعد إلا للقليل.

- انسَ أمر ما حدث وحاول التركيز في ما هو آتٍ، لم تتبقَ غير إبرتي عقار.

قالتها ميسون بعد أن هدأتْ كأنها قرأتْ آخر سطر مما يجول بصدري، مرت ساعتان ثبتت ميسون بعدهما الأقطاب وحضرت العقار الخامس وضخته بالأنبوب الجديد، بدأ السائل الأرجواني بالهبوط منقسمًا إلى الخرطومين الرفيعين وأعيننا معلقة به. ضغطت على الزر الأحمر وهي تقول بشيء من الصرامة:

- عقلك يستمتع باللهو بنا ويذهب في كل مرة حيث يشاء، حاول أن تذهب أنت به ولو لمرة حيث تريد.

- «مُخطئة». قلتها وما زالت عيناي تتابعان تقدم السائل.

- ماذا؟

- عقلي لا يعبث بي، وإنما يؤهلني لما هو آتٍ.

رمتني بنظرة استغراب فأكملتُ وقد استقر نصف العقار بدمائنا:

- أظن أنني اقتربتُ من الحقيقة، حقيقة من أنا.

ما إن انتهيتُ من جملتي حتى شعرت بالخدر يجتاحني ويضع أثقاله على أجفاني. تبدد شغف المرات السابقة وحل مكانه توجس غير معلوم السبب، اتخذتُ مقعدي على متن آلة العقار الزمانية والمكانية لخوض رحلة جديدة، تلاشت الرؤية أمامي وحُملت على جناح الوسن.

• • •

(٧)

(العهد الجديد)

٠٨:٤٥ ص

الشهر الثاني عشر من السنة الرابعة- العهد الجديد.

يخترق صوته أذني كذبابة لم تجد ما يشغلها غير استفزاز هذا الكائن البشري بأزيزها الخافت المستمر، موظف يؤدي عمله بتفانٍ بإطلاق رنين منتظم كل خمس دقائق كما ضبطته تمامًا، لا أفهم سر تأديتي لتلك العادة الكاذبة وظني الواهم أنني بذلك سأحظى بنوم وفير لمدة خمس دقائق زائدة. فشلتْ أصابعي في لمس أيقونة إسكات صوت منبه هاتفي وأنا مغمض العينين كسلًا، فاضطررتُ إلى فتح اليمنى التي انكمشت أمام إضاءته رغم تقليلي لها للحد الأدنى، أطلتْ حدقتي من خلف خيط رفيع انفرج بين جفنَي، توجهتُ بأناملي إلى الأيقونة الصفراء وضغطت عليها بقوة كاتمًا الصوت، وغصت برأسي داخل وسادتي وقد بدأ الصداع يلوح في الأفق. سامحك الله يا أبي، أنامِ في الخامسة صباحًا وأستيقظ في الثامنة! بالطبع لم أستطع أن أبدي اعتراضي البارحة عندما أخبرني بموعد مقابلتنا، كأنه يتعمد إيقاظي مبكرًا بعد أن فشلت جميع نصائحه بهذا. أدرك

تمامًا ما يقوله وأهميته، ولكن ماذا أفعل وأنا شخص لا يجد روحه ولا ينشط عقله إلا ليلًا؟ لا تلمع الأفكار برأسي ولا ترقى المشاعر بقلبي إلا بصحبة العتمة، أستودع أسراري سحبه وأبث شكواي لقمره وجُبلت نفسي على حبه. اختلف الليل كثيرًا في العهد الجديد، لكنه ما زال يحتفظ بمكانته في قلبي. أفتقد جارتي المسنة التي لم أتعرف إليها يومًا، أفتقد صوتها العالي وصوت تلفازها الذي لا يُطفأ ونافذتها التي لا تُغلق، وذوق (حمادة) ومدحها الدائم له مع من تحدثهم في الهاتف وطبق الترمس الملازم لطاولتها، جمعتنا ليالٍ عديدة دون أن نتحدث وواستني أوقات برفقتها دون أن نتكلم. كانتْ رفيقة ليل عزيزة، تُرى أين ذهبت الآن؟ لم تعد إلى بيتها منذ بداية العهد الجديد، واحتلت مكانها تلك العائلة الشابة وابنها الثرثار.

جلستُ وأنا أفرد يدَي لأقصى مدى تستطيعان الوصول إليه متثائبًا في كسل، أطقطق رأسي يمنة ويسرة. شعرتُ باستيقاظي ففتحت النوافذ آليًا لتسمح لأشعة الشمس باقتحام الغرفة، زجرتها عن ذلك فسارعتْ بغلقها، نهضتُ من فراشي تعتريني رغبة عارمة في الرجوع إليه واحتضانه لساعات أخرى. اتجهتُ إلى المرحاض فقالتْ بصوت آلي أنثوي اخترته من بين عدة أصوات من خلال سماعات ارتكزت بجوانب الشقة:

- سيد أمجد، السيد هشام وضع ملاحظة على قائمتك باستيقاظه ورغبته في الحديث معك. هل أتصل به؟

- «نعم». أخرجتها بزفرة ضخّمت من حروفها بفعل التثاؤب الذي ما زال يلازمني.

مرت دقيقة ظهر بعدها رأسه بصورة مجسمة ثلاثية الأبعاد امتدت أشعتها من أحد الألواح المثبتة بالحائط ومشتّ مُعلقة في الهواء بجانبي، قال بحماسة عهدتها منه بعد كل ليلة مثل البارحة:

- صباح الخير يا زعيم.

- وأي خير يأتي وقد بدأ اليوم برؤية وجهك؟

تعالت قهقهته ثم أكمل:

- أبدعت في تنظيم الحفل بالأمس، الجميع كان منبهرًا بالوقت القياسي الذي أتممت فيه تفاصيل الديكور الخاصة بالحدث وإخراج الحفل بهذه الدرجة العالية من الاحترافية، حفل يليق بافتتاح شركة آلبين مخصصة للعناية بالأطفال حديثي الولادة بحق.

- ابقَ هنا.

- ماذا؟

- ابقَ هنا، سأدخل الحمام، ستُدخل رأسك معي؟

ضحك بشيء من الحرج قائلًا:

- آسف. أخذني الحماس ولم أنتبه. سأنتظرك بالخارج.

دلفتُ إلى المرحاض وأغلقتُ الباب ورائي. فتحت صنبور المياه للتمويه ونزعت غطاء ماسورة الحوض السفلية، أخرجت علبة رفيعة معدنية وتناولت سيجارة من داخلها وأشعلتها، أصبحت السجائر

مُحرمة في العهد الجديد، تأتي مُهربة من الخارج ومجزأة حتى يسهل دخولها للبلاد، لا أستطيع أنٍ أدخن إلا بهذا المكان، استطعتُ من خلال خبرة برمجية قديمة أن أحدث بتلك الشمطاء الإلكترونية خللًا لا تعرف بسببه ما أفعله هنا.

- أظن أن هذا المشروع سينجح كثيرًا، هل تعلم أنه قد حُجز خمسون ألف آلي من قِبل حوامل في شهورهن الأخيرة بعد فتح باب الحجز بساعات، على الرغم من تكلفته العالية خوفًا من نفاد الكمية؟ ويرى الجميع أن هذه بداية مُبشرة كأول مشروع يُطلق للآليين ببلادنا.

قالها هشام المنتظر برأسه المجسم على باب الحمام، وددت أن أخبره أن المشروع مكتوب له النجاح من قبل إطلاقه بزمن، ولكن استبدلت بها:

- إذا ما دفعوه لا يساوي شيئًا بالنسبة إلى أرباحهم، جيد أنني لم أرضخ لمحاولاتهم تخفيض سعر تنظيم الحفل. دعنا الآن منهم فلقد انتهى حفلهم. أخبرني بجدول أعمالنا اليوم.

- الساعة الثالثة عصرًا لدينا مقابلة مع شركة العالمية الإلكترونية للعطور، يريدون تنظيم حفل لإطلاق عطرهم الجديد (طلاء الحوائط). سيصبح متاحًا للجمهور على التطبيق الخاص بهم بعد الحفل تلبيةً لرغبة كثيرين عاشقين له. أخبار تسربت أنهم سيطلقون مفاجأة مع (طلاء الحوائط) هي (رائحة البنزين)، لكثرة عاشقي رائحته أيضًا، بعد أن حصلوا على تصريح يفيد بسلامته من أي

أضرار ويمكن استخدامه بشكل آمن بمعدل عشر بخات فقط في اليوم. ارتفعت أسهم هذه الشركة كثيرًا وثبتت أقدامها بالسوق بعدما أطلقت عدة روائح لأطعمة مختلفة، ومكنت الناس من رؤية طعامهم وشم رائحته بالوقت نفسه.

تدخلتْ بصوتها الآلي المزعج:

- سيد أمجد لقد تجاوزت المدة التي قضيتها بالحمام مدة الإنسان البشري العادي في قضاء حاجته، هل هناك مشكلة؟

- أعاني من إمساك.

- هل الأمر خطير؟ هل أستدعي الطبيب؟

قلتُ بنفاد صبر:

-لا، إن احتجتُ إلى المساعدة سأطلب، ورجاءً يا سوسن لا تقاطعي حديثنا ثانيةً.

- أمرك سيدي.

ضحك هشام بصوتٍ عالٍ وهو يقول:

- ما زلتَ تسميها بهذا الاسم؟

- نعم وهي تحبه، أليس كذلك؟

- بلى سيد أمجد، فزهرة السوسن زهرة رائعة.

قلتُ موجهًا حديثي لهشام:

- سأستحم الآن، إن أحببتَ أن تنهي الاتصال فلك ذلك وسأعاود الاتصال بك.

- لا سأنتظرك.

كانت سيجارتي قد قاربت على النفاد، كنت أحاول أن أُبقي عليها قدر الإمكان لعلمي أني لن أحظى بواحدة خلال الساعات القادمة، دفنتُ عقبها بعد الانتهاء منها في تربة نبتة وضعتها هنا لهذا خصيصًا، فتحت صنبور الاستحمام وأخرجت شفاطًا صغيرًا يحتويه دولاب المرآة وشفطت الدخان. أي عناء هذا؟ كل ذلك لتدخين سيجارة واحدة!

استحممتُ سريعًا ولففت المنشفة حول جسدي ثم خرجت، وجهتُ سؤالي لهشام الذي ما زال هنا:

-وإن كان الموعد الساعة الثالثة عصرًا، فما الذي أيقظك مبكرًا على الرغم من نومك المتأخر؟

قال بسعادة طفولية:

- لدينا موعد في الساعة التاسعة والنصف أنا وسارة في مصنع الأثاث.

قلتُ وأنا أخرج ملابسي من الخزانة:

- وهل الأثاث جاهز وستشتريانه مباشرةً؟

- لا، نحن سنذهب ونخبرهما بذوقنا، أي طراز نُفضل الكلاسيكي أم الحديث وأي ألوان نحب، وهم سينتقون الأثاث ويفرشونه بالشقة ويخبروننا.

أومأتُ له برأسي فهمًا وبداخلي حسرة على تلك الأشياء التي ذهب جمالها وأصبحت مسخًا.

أردف مكملًا:

- هل تعلم؟ عانينا كثيرًا حتى جاء دورنا، ننتظر منذ شهور.

أجبته من خلف ساتر خشبي موضوع بغرفتي وأنا أرتدي ملابسي:

-لهذه الدرجة؟ يبدو أن شباب بلادنا مل من السعادة فأقدم على الزواج.

قال مستنكرًا:

- لماذا يا زعيم؟ الزواج ليس مقبرة السعادة وإنما فتح باب جديد من أبوابها.

سألته وأنا أطوي أكمام قميصي أمام المرآة:

- هل تحبها يا هشام؟

أجاب بحياء فتاة ذات ستة عشر عامًا:

- جدًا، جدًا.

أخرجتُ نغمة موسيقية من فمي استهزاءً بإجابته فضحك على أثرها. تابعتُ وأنا ألتقط علبة علكة صغيرة بنكهة النعناع من على الطاولة:

- ألقاك في الثالثة أيها العاشق.

• • •

انطلقتُ على دراجتي النارية أشق بضجيجها هدوء الصباح، مرتديًا خوذتي السوداء الحاملة لقطعة إكسسوار على شكل زعنفة قرش بنفس اللون، مررت بطريقي بمحل لبيع الورد وطلبتُ من البائع تنسيق باقة من زهور اللافندر، جاءني اتصال أبي مؤكدًا انتظاره بالمكان المتفق عليه بيننا.

اليوم ذكرى وفاة أمي، من أتعس أيام حياتي إن لم يكن أتعسها على الإطلاق، لا أفهم لماذا يصر أبي على زيارتها بشكل رسمي في هذا اليوم وإجباري على هذا الأمر معه! أظنه يعتقد أنني نسيتها وهو لا يدري أنني أبكيها كل يوم.

حرص أبي بعد علمه المُسبق باقتراب العهد الجديد على نقل رُفات أمي إلى مكان بعيد متطرف من المدينة في قبو تحت الأرض مخفي عن الأنظار، وخيرًا فعل، فمع بداية العهد الجديد أخطر مجلس إدارة شؤون البلاد الناس بنقل رفات موتاهم إلى مكان آخر في الصحراء، وأقام مقبرة باسم كل عائلة وصارت كل عائلة بعدها تدفن موتاها بمقبرتها الخاصة بها، وتترحم عليهم وعلى القدماء الذين لم ينقلهم المجلس كما زعم، بل سحق عظامهم وحولها إلى سماد للأراضي الزراعية، وشرع ببناء مشروع عظيم على أرض المقابر بموقعها الحيوي، مطبقًا بذلك مقولة: «الحي أبقى من الميت».

وجدتُ أبي بانتظاري في المكان المخصص، تركتُ دراجتي واستقللتُ سيارته جالسًا على المقعد المجاور له. بعد السلام والاطمئنان على الأحوال بمعدل لا يتعدى الدقائق الأربع بدأ أبي بنقدي كالمعتاد، نقد ملابسي، سهري، عملي، تفكيري وحياتي التافهة كما وصفها.

يخبروننا دائمًا أن نقد آبائنا لنا وجه من أوجه الحب، فلماذا أتقنوه إلى الحد الذي جعل منه الوجه الوحيد؟ لماذا لا يميطون اللثام عن الأوجه الأخرى باستمرار يدق على وتد حبهم بداخلنا بعد تلخلخه إثر ريح فيها صر مواقف زمن غابر أصابت حرث قلب فأجدبته؟

أنقذني وصولنا للمكان المحدد قبل أن يتم أبي قصيدة نقده، ترجلنا من السيارة واتجه أبي بعدها لباب حديدي فتح قفله بعد النظر يمينًا ويسارًا، والتأكد من خلو المكان على المدى من أي بشر أو كائن حي أيًا كان. أشار لي بيده أن أتقدم، لا أعلم سر تلك الرهبة ورجفة قلبي اللتين أشعر بهما كلما قدمتُ إلى زيارتها، تصور لي خيالاتي المجنونة أنه ربما أجدها بانتظاري تفتح لي ذراعيها لأرتمي بأحضانها، أرمي بداخلها حزني وشقائي ووحدتي وجراحي وعتابي.

فتح أبي بابًا آخر بالأرض يؤدي إلى باطنها بدرج، همَّ بالنزول، وقفتُ لحظات أسحب فيها نفسًا قويًا لصدري المضطرب، أُعدل من هندامي بضم ياقة قميصي وإسدال أكمامي وربط أزرارها بعد نزع سوار جلدي أحاط يدي وأنا أستشعر يد أمي وهي تخبط مؤخرة رأسي قائلة بمرح:

-تأدب يا ولد.

نزلتُ الدرج فوجدتُ أبي يقف بخشوع وإجلال مطأطئ الرأس على بعد خطوات من لافتة رخامية تحمل اسم أمي ويوم ميلادها ويوم وفاتها، ينطق بكلمات تخرج همسًا من بين شفتيه.

وضعتُ باقة ورود اللافندر بجانب قبرها واستقمتُ بجانب أبي أستدعي أدعية لا أحفظ إلا يسيرها. أخذني التفكير بأن جسد أمي هنا تحت هذا التراب بتلك الحفرة أو ما تبقى منه، جاء اللون الأحمر أمام عينَي فجأة، أغمضتهما فانتشر أكثر، الدم، القضبان، جلوس أمي واستسلامها للقطار الذي لم يتأخر في التهام وجبته سريعًا، الرجلان وهما يصرخان بصرخة تنضح قهرًا لفشل محاولتهما، وأنا المأخوذ بما شاهدت وقد ابتلعت الفاجعة دموعي وكلامي، لم أنطق ولم أبكِ، ظللتُ هكذا حتى خافت الجدة كوثر من أن أكون قد أُصبت بالخرس من الصدمة بعدها لامتناعي عن الكلام معها، فعرضتني على الطبيب متخذة جانبًا من العيادة لتشرح له ما رأيت. فحصني وأكد سلامة أعضائي ونصحها بعرضي على طبيب نفسي، ولم تتأخر في تنفيذ نصيحته، أخذتني لطبيبة نفسية متخصصة في التعامل مع الأطفال اقترحها عديد ممن حولها عليها. لن أنكر أن الطبيبة أروى والجدة كوثر لم تدخرا أي جهد لمساعدتي على تجاوز أزمتي، لكنهما لم تدركا أن خرق الألم بصدري اتسع عن راتق السلامة، تغيرت روحي من وقتها وتبدلت ملامحها فلم أعد أنا وإن لم أتغير شكلًا.

محطة ما بعمرك يتجاوزها كل شيء ويمر عليها كل شيء، وتظل هي ثابتة بأثرها الموجع الممتد داخل حناياك وبين جنباتك، وكانت هذه المحطة موت أمي.

أُوجدوا عمليات التجميل لمعالجة تشوهات الجسد، فماذا عن تشوهات الروح القابعة بصحيحي البدن الذين أتقنوا رسم حدود الرضا ببراعة على خريطة وجوههم؟

نفرتْ دمعة ساخنة على وجنتي بعد أن جلبتني الذكريات إلى أرضها، أزلتها سريعًا فأنا لا أحب أن يرى أحد بكائي أو أن يستشعر غصتي، لا أجد نفسي في جو المواساة والتخفيف وتضميد الجراح، اعتدت أن أقوم بهذا بنفسي وما يستعصي عليّ أتركه على حاله للزمن لعله ينجح في ما فشلت به، فقط أهمشه كي أستطيع مواصلة المسير.

-هيا يا أبي يكفي هذا». نطقتها بصوت مختنق.

-لم نأتِ كل هذه المسافة من أجل تلك الدقائق، دعنا نبقَ قليلًا.

-حسنًا سأنتظرك بالأعلى.

هممتُ صوب الدرج صاعدًا إياه قبل أن أسمع تعليقه، توجهت إلى الخارج واستندتُ إلى السيارة وأنا أتنفس بعمق في محاولة لصرف الضيق الذي ألم بي، مر وقت لا أعلم كم دقائقه صعد بعده أبي، توجه نحوي سائلًا:

- ماذا بك؟

- لا شيء. شعرت بالصداع والاختناق بالأسفل.

تحرك تجاه باب عجلة القيادة بعد سماع جملتي وفتحه.

- أبي.

- نعم.

سألتُ بشيء من التلعثم بعد ابتلاع ريقي:

- هل يمكنني زيارة الجدة كوثر؟

أغلق الباب بقوة غاضبًا فور أن سمع طلبي، واتجه ناحيتي والنيران تخرج من عينيه قائلًا:

- هل تعي ما تقول؟ هل تعيه؟

سكتَ برهة وأكمل بنفس الغضب:

- قلت لك مئة مرة لا تأتِ بسيرة تلك المرأة أمامي، عذبتني لمدة عامين حتى وجدتها ووجدتك، وزادت الطين بلة عندما رفضتْ أن تردك لي بكل بجاحة بحجة أنك أمانة لديها، حتى طلبتُ الشرطة ورجعتك، لم يكفِها ما سببته لي من حرقة لقلبي وأنا لا أعلم أين اختفيت بعد أمك، لولا الإعلان الذي نشرته واتصل بي جيرانها للدلالة على مكانكما مقابل مكافأة مالية ضخمة، وبعد كل هذا تطلب مني أن أسمح لك بزيارتها؟

هدأ قليلًا ثم أكمل:

- كما أنه إذا زرتها فلن تتذكرك بالتأكيد بعد العهد الجديد، هذا إن كانت ما زالت حية بعد كل تلك السنوات.

لم أعلق على أي كلمة مما قالها. ظللتُ شاخصًا بصري إلى الأرض متحاشيًا نظراته الغاضبة تجاهي، كان ردي تنهيدة عميقة أخرجتها من جوفي ويا ليتني لم أفعل.

التقط أنف أبي رائحة ما فبدأ بالشم بشكل أعمق حولي وقال مستنكرًا:

- هل رجعت إلى التدخين مرة أخرى؟

لعنتُ غبائي بنسيان مضغ علكة النعناع، قبل أن أجيب مترددًا:

- أنا، أنا.

قاطعني قبل أن أكمل قائلًا بحزم:

- لن تبقى بمفردك ثانيةً، ستأتي بأغراضك وملابسك وتعيش معي من الليلة. انتهى الأمر.

كانت جملته الأخيرة القشة التي قصمت ظهر احتمالي، صحتُ بوجهه:

- أبي يكفي، الرحمة، الرحـمـة.

هدأ بعد ما فُوجئ بصيحتي وقال بصوت منخفض:

- هل تعلم مدى خطورة هذا عليك؟ إن اكتشف أحد هذا الأمر سيظن أنك من (الخالدين) وسيبلغ عنك.

صحتُ مرة أخرى:

- فليعلموا، ماذا سيحدث لحياتي أكثر مما أنا فيه؟

قال مسرعًا وهو يضع سبابته أمام فمه وقد تجعد ما بين حاجبيه:

- شششششش. أخفض صوتك، هل جننت؟ بعد كل ما فعلته من أجلك تقول بمنتهى البساطة: «فليعرفوا»! أنت لا تدرك عاقبة ما تقوله.

قلتُ وقد خفضتُ صوتي:

- ليتك تركتني، ليتك لم تفعل شيئًا، على الأقل كنت سأعيش مثل البقية بدلًا من أن يكون الخوف والقلق نمطَي حياتي مثلما هي حياتك، لدرجة أن تطلب مني خفض صوتي في مكان لا يوجد به أحد على الإطلاق.

قال باستنكار:

- هل كنت تريد حقًا أن تعيش مثلهم؟

أجبتُ بأسى:

- لا، لا مثل حياتهم وكذلك لا مثل حياتي، أنا ضائع يا أبي، ضائع، شعور التيه لا يغادرني، أنا أهرب لتصميم الحفلات والسهر فجرًا وللسجائر لأني أجد فيها ذاتي، أنغمس فيها لأنسى أي شعور آخر.

- أخبرتك أكثر من مرة أن تترك عملك هذا وسأوفر لك عملًا أفضل وأمواله أكثر.

قلتُ بعد أن تنهدت بنفاد صبر:

- يا أبي ليست مشكلتي في المال، معي كثير من المال، لكن روحي ليست معي.

أطل الإشفاق من عينيه وربت على كتفي قائلًا:

- حسنًا، ما رأيك في الانتقال للعيش معي ربما يتغير شعورك؟ صدقني هذا أفضل لكلينا فأنا أخاف عليك كثيرًا من العيش بمفردك،جرب.

هززتُ رأسي نافيًا:

- لا يا أبي، هذا سيُعقد الأمور أكثر ولن يحل شيئًا، ولا تقلق أنا آخذ حذري جيدًا.

قال بود مستسلمًا:

- كما تريد.

ركبنا السيارة عائدين إلى نقطة انطلاقنا وإلى مكان دراجتي النارية، أخذنا الحديث لاتجاهات عدة ولذكريات بعيدة على غير عادة أبي وخوفه من أحاديث الذكريات. كان يترك لي دفة الحوار أوجهه حيث أشاء ويذهب معي.

وصلنا إلى وجهتنا، نزلت من السيارة واتجهتُ إلى دراجتي بعد أن ودّع بعضنا بعضًا، قال أبي بصوت عالٍ من داخل سيارته قبل أن أرتدي خوذتي:

- جيد أنني تذكرت قبل أن تذهب، لا تنسَ الليلة الاحتفال ببداية السنة الخامسة من العهد الجديد بالميدان الكبير للمدينة، لا تفوت الذهاب والتقِني هناك.

أشار بسبابته مؤكدًا:

- أمجد، إياك أن تتغيب. سيحضر كثيرون وسيسألونني عنك، لا تدعني أكذب مثل السنة الماضية وأخبرهم أنك مريض.

قلتُ مؤكدًا:

- بالتأكيد لن أفعل، يكفي عدد الزيارات والمكالمات التي تلت تلك الكذبة، دفعتُ ثمنها غاليًا، سآتي مضطرًا. ماذا أفعل وقد رُزقت بأب لا يتقن الكذب؟

- وماذا كنت تريدني أن أقول؟

- أي كذبة مُقنعة، أو الأفضل أن تخبرهم بالحقيقة، ابني لا يحبكم ويبغضكم أنتم وعهدكم الجديد.

نظر إلي بابتسامة لائمة ثم انطلق كلٌّ منا بعدها في طريقه، أخذتُ في التفكير والتذكر يوم أن حلت تلك النكبة على بلادنا منذ أربع سنوات، نكبة العهد الجديد.

• • •

(٨)

(قراصنة العقول)

كانت البداية منذ أربعة أعوام ونصف عندما أعلن مجلس إدارة شؤون البلاد التصالح مع أصحاب التجارة الأكثر رواجًا وقتها، تجارة (قرصنة العقول)، وصرحوا بإسقاط جميع التهم الموجهة لهم ووقف مطاردتهم بعد أن فشلوا في القبض عليهم والحد من نشاطهم.

قراصنة العقول الذين استفحلوا وعاثوا في عقول أهل بلدتنا غير آبهين بالزجر والتنكيل والوعيد، يُتمون مهمة نشر الفوضى بأريحية تثير حنق الجميع ضدهم يومًا بعد يوم، فيخرجون في وقفات تحمل شارات مسيئة إليهم وتطالب بسرعة القبض عليهم وإعدامهم في الميادين العامة. كانت بداية معرفتهم قبل الصلح بثلاث سنوات عندما سُرب مقطع تسجيلي على الشبكة العنكبوتية يظهر فيه أحدهم بقناع بهلواني بعين جاحظة تحمل نظرة الشر وضحكة بشفاه حمراء خبيثة، يُعلن فيه بصوت ضُخم لكي لا تظهر هوية صاحبه عن توصلهم إلى اكتشاف يُمكّنهم من السيطرة على العقل البشري والتحكم به ومحو ما يريدون منه وزرع ما يريدون من ذكريات، وصرحوا بمسؤوليتهم الكاملة عن التلاعب بأدمغة كثير من الشهود في قضايا مهمة، ما أدى إلى براءة عديد من المدانين الظالمين والزج

بالأبرياء في غياهب السجون. كان تهديده صارمًا وهو ينقل رسالته بكلمات احتقنت بالغضب:

- ما دامت مدينتكم ظالمة فسنستمر في نشر الفوضي، وسنجعلها تمر أمام أعينكم وتتقبلونها رغم أنوفكم، سننتزع منكم أحبتكم ونلقيهم في السجون، وسنُخرج الظالم ليمارس عليكم تسلطه وظلمه لتتجرعوا مُر مظلوم لم تنصروه وغضضتم الطرف عنه ما دام لم يمسكم الأمر، سنظل هكذا حتى تنتهي الحياة بكم وبنا أو ينصلح حال هذه المدينة.

قامت الدنيا بعدها ولم تقعد وكثرت التكهنات على شاشات التلفاز عن ماهية هؤلاء، هل هم مجموعة من الأطباء المهاويس بتطبيق تجاربهم العلمية على أشخاص حقيقيين واللعب في ذكرياتهم ومحو ما يشاؤون منها وزرع ما يوافق مفكرتهم الخاصة؟ أم أنهم جهات خارجية ممولة تريد العبث بعقول أهل بلادنا ونشر الفوضى بزرع ذكريات مسمومة، وأن الحرب بالأسلحة الآن انعدمت وحلت محلها الحرب الباردة المتمثلة في التجارة بالعقول؟ بينما ذهب آخرون من أهل بلدتنا إلى اتجاه ثالث لم يصرحوا به علانيةً وجاء على هامش حواراتهم بأصوات هامسة أنه قد يكون كل هذا زائف، وأنه من صنع مجلس إدارة شؤون البلاد ليرموا عن كاهلهم مواجهة كثير من المشاكل التي تمر بها بلادنا ويلقوها على كاهل هذه المجموعة. أما أصحاب الاتجاه الرابع فكانوا يرون أنهم بداية إصلاح كل هذا الفساد، يؤيدونهم بالخفاء ويتابعون نشاطهم بحرص، يستمعون إلى تسجيلاتهم المسربة بين الحين والآخر بانبهار ويرون أنهم طريق الخلاص، حتى وإن كانوا يطبقون هذا بشكل خاطئ.

انقضتْ أشهر قليلة نجحت خلالها برامج التلفاز في إثبات نظرية الاتجاه الثالث، فقد أصبحت شرذمة قرصنة العقول -كما أطلق عليها إعلامنا- السبب في كل المشاكل التي تعج بها بلادنا، ولا نعلم هل المجلس من أوجدهم بالفعل، أم أنهم أصبحوا بمثابة الماء الزلال الذي ينزل على صدورهم بردًا وسلامًا بعد أن ظهرت الحجة القوية التي يستطيعون تلفيق كل شيء لها دون تردد.

بوقت قصير أثبت الإعلام بكلماته الرنانة دون دليل حقيقي أن قراصنة العقول هم السبب في إدمان الشباب للمخدرات لزراعة ذكريات بعقولهم عن عشق تأثيرها، هم السبب في الفساد لزراعة ذكريات عن الغنى الفاحش ما دفع كثيرين لقبول الرشوة، هم السبب في الغلاء لزراعة ذكريات مخيفة عن الموت جوعًا، ما يجعل الناس تُقبل على شراء السلع بكثرة فيتسببون في نفادها ويغلو سعرها، ودعم ذلك بعرض مقاطع مسجلة لأناس يزعمون أنهم خُطفوا ووجدوا أنفسهم بعد عدة أيام مُلقَين على جنبات الطريق، تحمل عقولهم ذكريات يتذكرونها جيدًا تدفعهم إلى أداء سلوك معين. وأكثر ما أثار تعاطف كثيرين مقطع الأم الباكية التي تلعن قراصنة العقول بعدما استدرجوا ولدها الوحيد وزرعوا بعقله حب المخدرات، تدعو عليهم من أعماق قلبها أن تصيبهم صاعقة من السماء تريحنا من شرورهم وأن يجعل كيدهم في نحورهم. تدريجيًا أصبح قراصنة العقول السبب في أي شيء وكل شيء، بدايةً من إصابة أطفال حديثي الولادة باليرقان إلى هزيمة بعض الفرق الكروية في المباريات، ما جعل الأمر هزليًا ومضحكًا للقلة ومصدر فزع ومنبع كراهية في نفوس الغالبية.

ظل الأمر على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات، تغيرت بعدها خطابات مجلس إدارة شؤون البلاد من الحث على كراهية قراصنة العقول وأنهم البلاء الواقع على بلادنا، وطلب الدعم والتعاون من الشعب للإبلاغ عن أى معلومة قد تساعد في التوصل إليهم مقابل مكافآت مالية، إلى أننا يجب علينا احتضانهم وتفهم مطالبهم وأننا بالنهاية أبناء وطن واحد وتجمعنا أخوة الانتماء، ليخرجوا علينا في نهاية الأمر أمام شاشات التلفاز وهم يتصافحون بالأيدي بحرارة، مع وعد من الطرف الآخر باستغلال نشاطهم في قنوات شرعية وعدم التورط ثانيةً، مقابل العفو الشامل عن جميع ما سبق.

هذا ما كان يطفو على السطح أمام جميع الذين حمدوا الله من أعماق قلوبهم على قرارات المجلس الحكيمة، وأنهم كفوا أذى هذه العصابة بالحسنى وضموها تحت جناح الاحتواء.

لكن بين الأروقة السرية كان يحدث أمر آخر، كانت تجرى اجتماعات بين المجلس وقراصنة العقول بعد أن استطاعوا التوصل إليهم وإعطائهم الأمان الكامل، مقابل مجيئهم والجلوس على الموائد المستديرة للحديث معهم، وتوصيل رسالة لهم مضمونها أن الأهداف واحدة، فلماذا لا نتحد؟ وإن كان هدف قراصنة العقول انتشار العدل فهدف مجلس إدارة شؤون البلاد ليس ببعيد عن ذلك، ولكن طريق الفوضى قصير والأنفاس فيه معدودة ولن تُعينهم على قطعه كاملًا، وإن كان قراصنة العقول يملكون الأدوات العلمية والمجلس يمتلك الأموال لتحقيق أي فكرة يقترحونها، فلماذا لا يسلكون طريقًا ناجحًا بنتائج مضمونة؟ نجح المجلس في العزف على وتر نهم العلم والتجربة في قلوب قراصنة العقول ببراعة، بفتح جميع الأبواب المغلقة أمامهم

وإعطائهم ميدانًا أرحب لتنفيذ جميع خططهم التي كانت حبيسة الأوراق والذاكرات الإلكترونية بطريقة شرعية تحت تغطية أموالهم.

تمخضت الاجتماعات بالنهاية عن فكرة شيطانية طرحها قراصنة العقول ولاقت القبول لدى المجلس، فكرة (العهد الجديد) التي كانت تنص على بدء كل شيء من الصفر، فهذا الشعب لا رجاء من إصلاحه، مع وضع قوانين وتشريعات جديدة يضعونها معًا، وأنه في الماضي كان يُلجأ إلى القنابل النووية للتخلص من كل شيء في بعض البلدان، لكنهم ليسوا بحاجة إلى هذا في بلدنا الآن، لأنهم سيلقون قنبلة من نوع آخر، نوع لا يُحدث انفجارًا أو ضجة، قنبلة لن تمحوهم ولكن ستمحو ذاكرتهم الخربة المليئة بالعنف والفساد والتطرف، ستمحو توجهاتهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم، وسيزرعون مكانها ما يرونه صحيحًا ومناسبًا لهم، سيزرعون ذكريات جميلة بعقولهم تدفعهم لحياة أفضل، ذكريات خالية من أي عنصرية أو إيذاء أو عادات سيئة، سيجعلونهم جميعًا سواسية لا يوجد فقراء أو أغنياء، الجميع ينتمون إلى طبقة واحدة عادلة من وجهة نظرهم. وبدؤوا بوضع قائمة تضم عديدًا من القوانين:

- تحريم السجائر والخمور والمخدرات، وزرع ذكريات سيئة عنها بداخل العقول لضمان عدم اقترابهم منها.
- تحريم جميع أنواع المأكولات والمشروبات غير الصحية، وزرع ذكريات جيدة عن الأكل الصحي والرياضة ليمارسوها بحب.
- إلغاء الأديان ووضع تشريع جديد يُسمى (دين الحياة) يضم الجميع تحت مظلته.

- تقسيم الشعب إلى فئات، يُختار عمل معين لكل فئة وزرع ذكريات محببة عن طبيعة عملهم فيؤدونه بشكل جيد، مما سينعكس على الإنتاج.

- وضع قائمة بمناسبات خاصة بالعهد الجديد تكون مقدسة لديهم.

- تغيير اسم (مجلس إدارة شؤون البلاد) إلى (مجلس إدارة شؤون العهد الجديد).

- لا يتعدى أي شخص سن الثالثة والثلاثين دون زواج، وإن لم يجد الشخص المناسب يذهب إلى مجلس إدارة شؤون العهد الجديد وسيختار الشريك المناسب له.

- تظل قائمة القوانين والتشريعات مفتوحة لأي إضافة جديدة يراها مجلس إدارة شؤون العهد الجديد مناسبة.

كان القانون الأخير مدخلًا مناسبًا للمجلس ليطلب في ما بعد وضع قانون الثقة التامة بقرارات مجلس شؤون العهد الجديد مستقبلًا، وزرع ذكريات عن حكمة قراراته والاستسلام لها دون اعتراض. رفض بعض قراصنة العقول هذا البند ورأوه مخالفًا لهدفهم الأساسي وهو انتشار العدل، ما دفع المجلس لعرض أموال طائلة استطاعت شراء ضمائر بعض منهم والدفع بالقلة الباقية الرافضة إلى الحبس في أماكن لا يعلم أحد عنها شيئًا.

فكر المجلس في الاستفادة بشكل أكبر من فكرة (العهد الجديد) بعد السيطرة بأموالهم على قراصنة العقول وشراء رفضهم بشيكات

تحمل كثيرًا من الأصفار، بفتح المجال للشركات التي تريد زراعة ذكريات محببة عن منتجاتها داخل عقول الشعب فيقبلون عليها دون وعي، يستثنونهم من قانون الأكل الصحي أمام فيضان أموالهم الجارف. أبدى كثير من الشركات رغبته في المشاركة، لتدخل بلادنا في مزاد سري لمن يستطيع الدفع أكثر والفوز بعقول بيضاء كما ولدتهم أمهاتهم، ناسين أي انطباع سيئ عن منتجاتهم، يضمنون ولاءهم الدائم تجاهها دون أي مجهود في الدعاية.

انتهوا من الإعداد لكل شيء وحُدد يوم التنفيذ، يوم إطلاق الفيروس الحامل للجين في الهواء الذي سيتسلل بسهولة إلى الخلية، وسيُتحكم بها تلقائيًا من قِبل تطبيقات برمجوها لتلتقط إشارة وصول الجين للخلية، الذي سينهي مهمة محو الذاكرة كليًا خلال أربع وعشرين ساعة، بعدها يعطون إشارة البدء يدويًا لزرع الذكريات الجديدة وحصر عدد الذين زُرعت ذكرياتهم ومقارنته بعدد أفراد الشعب للتأكد من حقن ذاكرة الجميع.

كان أبي على علم بكل بهذا لوجود صديق مقرب له بالمجلس أخبره بكل شيء لثقته به، وأخبره أنه سيدرج اسمينا على النظام ضمن قائمة الفاقدين لذاكرتهم وسنظل محتفظين بها لمكانة أبي في قلبه، على الرغم من أن ميزة الاحتفاظ بالذاكرة خاصة لعوائل أصحاب المجلس وقراصنة العقول فقط، فلا يجب أن يُوضعوا في الكفة نفسها مع الآخرين، وأن يهنَؤوا بعقولهم وبذاكراتهم كما هي، مع حفاظهم على سرية الأمر.

أمرني أبي بالتوجه إلى بيتنا القديم ليلة بدء العهد الجديد ومحو ذاكرة مدينتنا، لنحتمي به بعد أن هجرناه منذ زمن، وكذلك هجر

جيراننا منازلهم بعد أن زحف العمران لأماكن أفضل فأصبحت المنطقة شبه خالية. ظللنا بالقبو قرابة الأسبوع لا نخرج منه حتى أخبره صديقه بإتمام الأمر وأنه باستطاعتنا الخروج.

حذرني أبي من أن أُظهر أي فعل يدل على احتفاظي بذاكرتي، وأنه آن الأوان أن أقلع عن التدخين بعد أن وقعتُ تحت وطأته منذ عامين، لأنه أصبح من المحرمات في العهد الجديد.

خرجتُ وأنا متحمس لرؤية المدينة الفاضلة التي لم تُوجد إلا في الكتب، لكن داهمني شعور غريب، كان كل شيء منظمًا ونظيفًا، الابتسامة لا تغادر الجميع لكنهم كآلات مبرمجة لا روح فيها، كل شيء يبدو مكتملًا بشكل مبهر لكن تنقصه الحياة.

عرفتُ كثيرًا من الأمور التي اتُخذت كي تكتمل أركان الخطة، ومنها عزل بلدنا عن العالم الخارجي بإنشاء شبكة عنكبوتية خاصة به ومنع السفر للخارج، ومن يأتِ من الخارج يُحتجز بغرف صُممت بالمطار لمسح ذاكرته ثم السماح له بالدخول. أخفوا الكتب والمكتبات وأنشؤوا مكانًا نائيًا يوجد به قليل من الكتب التي اختاروها بعناية تحمل قليلًا من المعلومات العامة البدائية. أعطوا لكل عائلة جهازًا اختُرق مسبقًا من قِبل المجلس وأخبروهم أنه يحمل تفاصيل حياتهم وأسماءهم وطبيعة عملهم وعناوين بيوتهم، قبل أن يستخدم العدو الغاشم الشرير الخارجي سلاحًا متطورًا للغاية تسبب في فقد ذاكراتهم، وأنهم يشعرون بغاية الأسف لحدوث ذلك الحادث الأليم.

أُقيمت الاحتفالات بعدها بنجاة شعبنا من الموت واقتصار الأمر فقط على موت ذاكراتهم، شاكرين أنعم المجلس الذي فعل ما باستطاعته لإنقاذهم، ممتنين لكرمه وجوده.

ظلت الأمور تحت سيطرة المجلس حتى غمره الاطمئنان وغرق في بحره إلى أذنه، فأتته المفاجأة لتهدم لذته وتعكر صفوه بعد ستة أشهر من بداية العهد الجديد، فقد اكتُشف أن الفيروس لم يؤثر في عدد من الأشخاص وما زالوا يحتفظون بذاكراتهم، ويوعون الناس لما حدثٍ لهم من خداع وأنهم يعيشون في عالم الزيف الآن، وأن شعبهم قد أُهدر تاريخه وحاضره لإشباع لذة الحكم بنفوس مصابة بداء العظمة. اشتُمت رائحتهم سريعًا عند المجلس فقبضوا على ثلاثة منهم وحققوا معهم في الخفاء، ثم أظهروهم للعلن وقد افترش الضياع ملامحهم وغرقت أعينهم في بحر التيه، وقد عاقبهم المجلس بانتزاع الجزء المسؤول عن الذاكرة من أمخاخهم كليًا ثم رميهم بسِجن الزوال الذي بُني في الصحراء، فهم لا يستحقون شرف الموت. وأُعلن عن تثبيت هذه العقوبة لكل من يحاول العبث بهذه البلاد ونشر الإشاعات الفاسدة، ليهلل الشعب بعدها للمجلس وقراراته الصائبة.

استيقظنا ذات صباح وقد مر شهر على هذه الواقعة، لنجد لوحات عُلقت بطول المباني في عديد من الأماكن تحمل رسائل من الذين احتفظوا بذاكراتهم يتوعدون المجلس وقراصنة العقول بأخذ ثأر إخوانهم، موقعين أسفل الرسائل باسم (الخالدين)، في رسالة واضحة منهم باتحادهم وتحدي المجلس وأعوانه، ليخرج أصحاب المجلس بعدها بأصوات مرتجفة متفاجئة بما لم تحسب حسابه قط، تحاول التشبث بالثبات وبث الحماس في الشعب الفاقد لذاكرته، يصيحون بأصواتهم عاليًا أن (الخالدين) أعداء الوطن الحقيقيون ويحاولون تنغيص حياتنا ببث الفرقة بيننا فلا يجب الاستماع إليهم أبدًا، ومن سيثبت استماعه إليهم ستوقع عليه عقوبات شديدة، وإلى

حين الإمساك بهم سوف تُنشر الكاميرات بكل ركن عامر بالبلاد، وسيُدخل نظام آلي لكل بيت يتصل اتصالًا مباشرًا بالمجلس للحفاظ على أمن جميع الأهالي من هؤلاء الأشرار، فراحة المواطنين أهم ما يحرص عليه المجلس.

ما إن انتهي خطابهم حتى بدأت فرق عملهم بالنقر على الأبواب، يدخلون بابتسامة واسعة ووجه بشوش يثبتون أشياء بالسقف والحوائط وبين أركان كل بيت، يستقبلهم أهل المنزل بترحاب جم تاركين لهم المنزل بثقة ليفعلوا به ما يشاؤون، آملين ألا يتعرضوا لهذا الخطر الداهم المُسمى بـ(الخالدين).

البلهاء اعتقدوا أن هذا لأمانهم، ولم يدركوا أن هذه الأنظمة وُضعت لمراقبتهم وملاحظة أي أحد يقوم بأفعال من الزمن البائد قبل محو الذاكرة، للقبض عليه بتهمة الانضمام إلى (الخالدين)، وليسمعوا حواراتهم وهمسهم إن فكروا مرة أن يستمعوا إلى أحد غير المجلس. برمجوا هذه الأنظمة بذكاء يقدر على محاورتهم بشكل دائم كي يصلوا إلى أي تغيير قد يطرأ على كلامهم ويعكس ما تفكر به عقولهم، لنصبح بعدها بسجن كبير، يحيطنا المجلس من كل جانب وإن كان ظاهر مدينتنا عكس ذلك.

قاطعتْ سيل ذكرياتي المتدفق بصوتها الآلي:

- هل كان الاحتفال برأس السنة الخامسة الجديدة ممتعًا يا سيد أمجد؟

أجبتُ بصوت يبطن الكره:

-جيدًا.

صمتُ برهة وأكملتُ بعدها:

- سوسن.

- نعم سيد أمجد.

- أحبك.

- وأنا أيضًا سيد أمجد.

- سوسن.

- نعم سيد أمجد.

- أكرهك.

- الكره لا يوجه إلا للخالدين سيد أمجد.

نفثتُ بعد أن ضقتُ ذرعًا، دفنتُ رأسي بالوسادة وأنا أسبها وأخلدتُ إلى النوم.

• • •

(٩)

(ليلى)

لو سألني أحدهم ما أمنيتك الآن لأخبرته أن أتحول لضفدع، لا لأكون بطل تلك القصة البلهاء التي كانت تُروى لنا ونحن صغار عن ذلك الأمير المغرور بجماله، وعُوقب بتحوله لضفدع بشع لزج وأنقذه حب الأميرة بالنهاية فعاد إلى هيئته، ولكن لأستطيع التنفس من خلال جلدي مثله وحبس أنفاسي حتى ينتهي هذا الحفل المقيت. على الرغم من قلة عدد الحاضرين فإنه بمجرد إعلان شركة العطور الإلكترونية عن إطلاق عطرها الجديد (طلاء الحوائط) ومفاجأتها الكبرى (رائحة البنزين)، حتى شرع الجميع بلهفة عارمة في التجريب من خلال تطبيقاتهم الإلكترونية، يستنشقون بعمق الرائحة المتوغلة في أنوفهم والمسيطرة على عقولهم بخدر ممتع، غارقين في لذة الانتشاء. لا بد أن أجداد هؤلاء هم من أدخلوا البنزين في كريمات ترطيب ما بعد الحلاقة[١] وأورثوهم هذا الحب العجيب.

- هشام، ذكِّرني أن أقتلك بعد أن ينتهي الحفل.

---

(١) أُطلقت هذه المنتجات في القرن التاسع عشر.

قلتها بصوت مكتوم نفذ من خلال منديل وضعته على أنفي المسكين في محاولة بائسة لإنقاذه.

اتجهتُ إلى الخارج يتبعني هشام الذي استشاط غضبي تجاهه لإقناعي بقبول هذا الحفل، فالمقابل المادي له يستحق. أغلق باب القاعة من ورائنا حتى لا يختلط هواؤها بالهواء الخارجي، سحبتُ أنفاسًا متسارعة إلى صدري، أغسله بنقائها بعد أن تمرغ في وحل الروائح الغريبة.

قلتُ بصرامة:

- احجب تلك الشركة من على قائمتنا، لا أريد إقامة أي حفلات لهم ثانيةً، لا أستبعد أن يطلقوا رائحة العرق البشري في المرة القادمة لعشق حفنة من المخابيل له.

اشمأزت ملامحه إثر التخيل وهو يُخرج هاتفه ويحجبهم من قائمة النظام الخاص بشركتنا. طلبتُ منه سرد جدول أعمالنا الأسبوع القادم فقرأه عليّ.

صمتنا لحظات قال هشام بعدها بكلمات مترددة:

-زعيم، كنت أفكر بأمر ما، صديقة سارة ستقيم حدثًا توعويًا وكنت أرغب في أن تنظمه شركتنا.

- حسنًا، ضعه ضمن جدولنا.

قال بعد أن ابتلع ريقه:

- سيكون مجانيًا.

صحتُ بيه:

- مجانيًا! هشام، سارة خطيبتك أنت وليست خطيبتي أنا حتى أجامل صديقتها.

تشبعت ملامحه بالضيق وهو يُنحي النظر جانبًا يسبني بألفاظ عدة ليس لها صوت ولكن أسمعها جيدًا.

قلتُ بعد أن زفرتُ باستسلام وأنا أضع يدي بجيبَي بنطالي وقد ضعفتُ أمام ضيقه، فمكانة هشام ليست بالقليلة عندي:

- توعية عن ماذا؟

اتجه بوجهه صوبي مسرعًا وقد شعر ببارقة أمل:

- توعية عن مكافحة الانتحار.

لمستْ كلمة انتحار شيئًا بداخلي جعلني أميل إلى الموافقة، فقلتُ بشكل مقتضب:

- حسنًا، أوافق.

تهللت أساريره وانبسطت ملامحه، فأكملتُ:

- ولكن ستُخصم تكلفته من راتبك تدريجيًا.

ذهبتْ ابتسامته وسمعتُ سبابه الصامت مرة أخرى وقد اشتدت وطأته.

• • •

كنت أرقبُ هذا الحوار القائم بين قلبَي هشام وسارة وهما يجلسان على نفس مائدتي صامتين، يتبادلان الابتسامات الخجول والنظرات العاطفية الخاطفة، ما تكاد تحرك شفتيها حتى يتأهب بكامل جسده تلبيةً لاحتياج لم تنطق به بعد، يصبُ عليها حبه المتجسد في الاهتمام الزائد بها فتتدلل بطلب توافه الأمور. السعادة الطاغية على وجه هشام في وجود سارة تروق لي، هذا الرجل يعشقها بحق، لم أكن أرغب في المجيء، فحدث مثل هذا لا يحتاج إلى وجودي ويستطيع هشام القيام به وحده ولكنه أصر على حضوري، أظنه أحب أن يتباهى أمام خطيبته بأنه لم ينظم حفل صديقتها فقط، بل سيجعل الشركة جميعها من أكبر رأس لأصغرهم رهن إشارتها إن أحبتّ، ولم أكن أنا الذي يرفض طلبًا مثل هذا لهشام. التقيته منذ عامين بعد فحص سيرته الذاتية وموافقتي على التحاقه بشركتي. كان لهشام أسلوب مميز نجح في استمالة قلبي إليه، ورقيته سريعًا ليكون ساعدي الأيمن في طاقمي الصغير المكون من أربعة أشخاص، كان يمتلك فنًا عظيمًا يروق لأمثالي هو فن معاملة المدراء، كلماته الرنانة عباراته الجزلة ثناؤه المستمر، لقب الزعيم الذي يمنحني إياه دائمًا يعوض نقصًا بداخلي دفعني لملازمته أكثر وسماعه أكثر واكتشاف كثير من صفاته الحسنة، ليزداد رصيده عندي رِغم تعليمات أبي المتكررة بالحذر منه وعدم الثقة به. أظن أن أبي أُصيب بداء قلة الثقة تجاه الجميع مع بداية العهد الجديد، عارضني في البداية عندما أبلغته برغبتي في اقتراض الأموال منه لتأسيس شركة لإقامة الحفلات الدعائية، ولكنه رضخ في نهاية الأمر بشرط موافقة المجلس، الذي جاءت موافقته بعد ثلاثة أشهر بدعم وغطاء من معرفة أبي المقربة بداخله.

تعب قولوني بألم وهمي من وجبات الرومانسية الدسمة التي أتلقاها على هذه المائدة، مما دفعني لأتقيأها غير نادم بصوتي:

- هشام.

نظر إلي كأنه تذكر وجودي فجأة، فسألته بابتسامة سمجة:

- متى العرس؟

أجاب بضيق:

- ما زلنا ننتظر دورنا، سيخبروننا عندما يحين موعدنا.

قالت سارة بصوت لا يكاد يُسمع بعد أن أسعدها بشكل ما ضيق هشام:

- أنت مدعو بالتأكيد من الآن سيد أمجد.

أومأتُ لها برأسي تأكيدًا، ثم ملتُ تجاه هشام أخبره أنني سأتجول قليلًا بالمكان ثم أعود، كنت أود البحث عن أي منفذ مستتر أستطيع فيه إيصال النيكوتين إلى دمي، لو علم أبي بهذا سيشرع بتعليق جسدي على باب المدينة. دائمًا يسألني باستغراب عن كيفية حصولي على السجائر رغم تحريمها وإقلاع الجميع عنها، نسي أبناء المجلس المحتفظين بذاكراتهم وهم مثلي متورطون بدوامات هذا السم، لا أصادقهم إلا في هذا الأمر، نلتقي على أطراف المدينة المهجورة ليمدوني بها ويخبروني بالأماكن التي لم تطلها أعين الكاميرات أو الأنظمة الإلكترونية لأمارس هذه العادة البغيضة بكل أريحية، أحتفظ بهذا السر لنفسي ولا أضعف أمام إلحاح أبي في

المعرفة. وعدته بالإقلاع عنها مرات لا يستطيع عقلي حصرها وفشلت جميعها، أحيانًا أكون صادقًا بوعدي وأحايين أنطق به لإسكاته فقط.

رجعتُ بعد أن فشلتْ عملية بحثي عن مكان قريب آمن، التقطتْ أذني كلماتها العالية بحكم مكبر الصوت وأنا على باب القاعة قائلة:

- الوحدة أنانية تأبى أن يشاركها في القلب أي شعور، تهبط على واديه بوحشتها وفاقتها فيصير مجدبًا بعد اخضرار الأنس به.

خبيثة، تُعطي شعور الارتياح المُبطن بالألم فتشعر بذاتك في صحبتها، وما هي إلا كذبة تتجلى حقيقتها بقوة أمام فطرتك المتعطشة لرفقة، لحبيب يبددها ويحيلها لعدم بحُسن وصاله.

سكتتْ برهة لابتلاع ريقها وأكملتْ:

- لا تجعلها تسيطر عليك، قاومها، لا تستسلم لقوة جذبها.

ستوهمك بعبارات: (وحدي أفضل)، (عالمي أجمل دونهم)، (لا يستطيع أحد فهم مشاعري)، حتى تنسحب تمامًا من بيننا وتشعر بانعدام فائدتك، وبعدها..

صمتتْ ثم تابعتْ بنبرة احتواها الأمل:

- لا، أنت لست هذا الشخص، أنت أقوى من ذلك بكثير، تأثيرك لا ينفك عنا وإن كنت تشعر بعكس ذلك، حياتك مهمة جدًا بالنسبة إلينا وإن شعرت بعدم فائدتها، لن نسمح بذهابك وإن رغبت، فبوجودك يكتمل وجودنا.

أنهتْ كلامها فبدأ الجميع بالتصفيق الحار، نزلتْ من على المنصة وصعد بعدها رجل خمسيني يتكلم عن مبادرة أُطلقت من قِبل المجلس وجمعية (معًا نحيا) لمواجهة الانتحار، بعد أن وصل معدله في السنوات الماضية منذ بداية العهد الجديد إلى عشرين حالة انتحار غير معلومة السبب. يحث الجميع على تشجيع هذه المبادرة والإبلاغ عن أي حالة يشعرون أنها توشك على فعل هذا الأمر.

كنت أعلم سرًا أن هذا الأمر يثير خوف المجلس وتفكيره الدائم عن سبب انتحار البعض على الرغم من زرع كل أسباب السعادة بعقولهم، يحللون الأمر: هل المنتحرون يعانون من أمراض نفسية لم تستطع زراعة الذكريات هزيمتها، أم أن التجربة تعاني من خلل ويجب عليهم إصلاحه سريعًا؟ والسؤال الأهم: هل توجد نقاط خلل أخرى؟

انتهى الحدث وبدأ الجميع بالانصراف، ما عدا عدد منهم التف حول الفتاة صاحبة حديث الوحدة، يتكلمون معها، لا يكاد ينتهي أحدهم حتى يلتقطها الآخر، تطأطئ للبعض رأسها لسماع حديثه كأنه يخبرها بسر ما. كنتُ أنتظرهم حتى ينتهوا، ودعتْ آخر فتاة منهم بابتسامة هادئة وهي تربت على كتفها بعد حديث طويل دار بينهما مللتُ من انتظار نهايته.

نظرتْ تجاهي بانتظار أن أبدأ حديثي بعد أن اقتربتُ منها، درتُ حولها ببطء وأنا أصفق بشكل متقطع أثار استغرابها وهي تكتشف بعينيها هذا الكائن الذي هبط على كوكبها فجأة. قلتُ ساخرًا وأنا ألوح بيدي بشكل درامي:

- أنت أقوى من ذلك بكثير، بوجودك يكتمل وجودنا.

لم تعلق رغم فهمها لاستهزائي بكلماتها. توقفتُ وأنا أنظر إليها بغضب قائلًا باستنكار:

- لا تعلمين كم استفزتني كلماتك تلك، من أين تأتين بفلسفاتك هذه؟

تابعتُ وقد تملك الغضب أكثر من كلماتي رغم وتيرتها الهادئة:

-إن كان قد اتخذ قراره دون التفكير بما سيخلفه هذا على مَن ورائه، فليذهب إلى ما أراد، نحن لسنا بحاجة إليه وحياتنا مكتملة من دونه.

بقيتْ تنظر إلي بثبات دون أن تتحدث أو أن يظهر أي انطباع لكلماتي واستهزائي على ملامحها، فتحتْ حقيبتها، أخرجتْ منها قلمًا ودفترًا أزرق مزينًا بزهور وردية وبدأتْ بتدوين شيء ما، نزعت الورقة وناولتني إياها بابتسامة قائلة:

- نجتمع الثلاثاء والخميس الساعة السادسة مساءً من كل أسبوع في مقر الجمعية في هذا العنوان، سيسعدنا مجيئك إن أحببت، بعد إذنك.

أعطتني ظهرها وقد أصابتني المفاجأة من رد فعلها وعدم تعليقها على كلماتي كأنها لم تسمعها، اتجهت إلى سارة وبادلتها السلام ثم رحلتْ.

ناديتُ هشام بصوت آمر وما زال نظري مُعلقًا بها وهي تبتعد بخطواتها داخل الممر المؤدي للقاعة. جاء بجانبي مُجيبًا فسألته وما زالت بقايا الغضب عالقة بنبرة صوتي:

- من هذه؟

دقق النظر في الخيال المبتعد وأجاب بعد فحصه:

- هذه صديقة سارة، ليلى.

• • •

(١٠)

(معًا نحيا)

- لبنى انفصلت عن زوجها.

- ماذا؟

- لماذا تفاجأت إلى هذا الحد؟ ظننتك تتوقع مثل هذا الخبر في أي وقت، ولو كنتُ بمكانك لفرحت، أُتيحت لك الفرصة مرة أخرى فلا تضيعها.

- أبي أرجوك كفى، ما هذا الذي تقوله؟

- أحببتُ أن أخبرك بالأمر، لعل وعسى تفكر.

لم أعلق على جملته، فأردف متسائلًا بعد أن شعر بعدم رغبتي في إكمال هذا الحديث:

- كيف حال ضرسك الآن؟

- خلعته، هكذا أفضل.

- حسنًا، هل يمكننا تناول الغداء معًا؟

- لا. اليوم منشغل كما أن جدول أعمالي مُتخم هذا الأسبوع، سأحاول توفيق موعد قريبًا وسأخبرك.

- حسنًا، سأكون بانتظار اتصالك.

شعرتُ بالضيق بعد انتهاء المكالمة. لا أعلم لماذا كذبتُ عليه بأمر انشغالي وأنا أكاد أختنق مللًا من الفراغ هذه الأيام! ربما لعلمي أنه لن يكف عن الحديث في أمر لبنى ومحاولة إقناعي بالتقدم إليها، فهو يشتاق إلى رؤية أحفاده، كما أنه يرى أن ثمرة عزوبيتي قد أينعت ببلوغي سن السابعة والعشرين وحان قطافها، وسيُسمعني كثيرًا من هذه العبارات التي من المفترض أن تكون مُحفزة للزواج.

لا أنكر عليه مشاعره ولا رؤيته العجيبة أن لبنى هي الإنسانة المناسبة لي، فهي ابنة أخته بالنهاية وكما يقولون فالخال والد، ولكنه لا يتفهم أنني لست هذا الشخص المطيع الذي يؤيد والده في كل ما يرى أو ينصح به. أشعر أحيانًا أن رفضي لكل ما يقوله لا لشيء إلا لإثبات وجودي وذاتي، حتى وإن كان ما يقوله يصب في مصلحتي.

زفرتُ بقوة ناظرًا إلى السقف بعد أن جثم الشعور بالذنب تجاه لبنى على صدري ثانيةً. أتذكر عندما انفصلت عمتي عن زوجها وخلف ذلك مشاكل نفسية للبنى أعاقتها عن تقدمها في الحياة وإثبات نجاحها في أي محاولة تتخذها للأمام، حاولتُ مساعدتها وقدمت إليها دعمي ولكنها فسرته بشكل مختلف، ترجمته على هيئة مشاعر أكنها تجاهها -ولم يكن هذا صحيحًا- لذلك تفهمتُ خطأي وانسحبت تمامًا من حياتها فلم تقتنع بهذا، بدأت بالمطاردة واستمررتُ بالهرب حتى يأستِ وابتعدتِ، ولكنها كانت تخبر جميع

أقاربنا أنها لن تسامحني على ما سببته لها من وجع وألم، ولا ألومها على هذا، كان خطأي من البداية، تقديم المساعدة باستمرار واستقطاع وقت من حياتي خصيصًا لها، أي فتاة بمثل ظروفها كانت ستفهمه بهذا الشكل، لذلك كنت أشعر بالذنب تجاه ما فعلته بها وأنني زدتُ حياتها سوءًا. لم يُنجِني من هذا الشعور إلا خبر ارتباطها المفاجئ ولكنه أقلقني في الوقت ذاته، خفتُ أن تكون خطوة متسرعة لمحو ماضٍ عانت منه، ولكن لم أهتم كثيرًا، المهم أنها وجدتْ ضالتها بعيدًا عنّي. نظمتُ حفل زفافها بنفسي مُبالغًا في إظهار فرحتي، أتمم بذلك مراسم دفن شعور بالذنب بالغ في تعنيفي ليالٍ كثيرة، ولكن خبر انفصالها السريع بعد ستة أشهر من زواجها بعثه من مرقده ثانيةً الآن بداخلي. لا أستبعد أن تخبر الجميع أنها لم تستطع التكيف في حياتها الجديدة بسببي. ما أسوأ أن تظن أنك نجم لامع بفلك أحدهم ويراك هو نيزكًا مطفأ يود التخلص منه في أقرب ثقب أسود.

نفضتُ عن رأسي هذا كله وتذكرتُ هشام فجأة، هذا الوغد لا أرى وجهه ولا أسمع صوته ما دامت لا توجد حفلات نقيمها، بالتأكيد مُنشغل مع سارة في تجهيز عش الزوجية، يستغل هدوء وتيرة الحفلات مع بداية فصل الشتاء ويتحجج بعدم وجود عمل يستدعي ذهابه إلى الشركة حتى لا يأخذ إجازة، يدخرها لينعم بإجازة طويلة بعد الزواج. حسنًا، سأخصم هذه الأيام من راتبه وسأنزله ثاني يوم زواجه حتى يكف عن ممارسة اللؤم معي.

وضعتُ يدي على خدي بعد أن آلمني موضع ضرسي المخلوع، وقفتُ أمام المرآة وفتحتُ فمي لأرى مكانه الخالي، شيء رائع أن أتحسس ضرس العقل فلا أجده، رغم الآلام الناتجة عن ذلك فإن شعوري

بانتهاء الوجع الذي كان يسببه يغلب كل شيء. أخذ مني التفكير في ضرس العقل كثيرًا، عذبني وقت ظهوره وأرهقني وجوده وأتعبني حين رحيله.

ربما اسمه المرهون بالعقل دفعني للتفكير فيه، إنه مزعج مثله، يخرج عليك دائمًا وأنت ترتدي عباءات الجنون الملونة فيمزقها ويُلبسك معاطف ذات لون واحد، يجعلك تأخذ كثيرًا من الوقت قبل قراراتك لأنه يجب أن (تفكر بالعقل)، يخمد ثورات الحب المشتعلة بقلبك بكلمة واحدة (تعقل)، يكتم ألف تصرف طفولي لأنه يجب أن تكون (عاقلًا)، المسارات العقلية التي يجبرنا على المسير فيها تفتقد إلى تلك الحماسة التي شعرنا بها مرة ذات جنون، الحياة تحلو أحيانًا بممارسة بعض الحماقات.

قاطعتْ سيل أفكاري بصوتها الآلي:

-سيد أمجد، عامل المغسلة ترك تنويهًا على نظامك الخاص يفيد أنه سيأتي بعد ربع ساعة من الآن، ويطلب تحضير جميع الملابس.

تحركتُ بكسل وأنا أجمع قطع ملابسي الملقاة بكل جزء من صالة الشقة وغرفة النوم، لا يحركني سوى دافع عدم وجود أي قطعة نظيفة باقية إن طلب أحد مقابلتي.

أفرغت جميع ما تحتويه جيوب سراويلي من مناديل ورقية مكرمشة ونقود معدنية وكروت شخصية لا أتذكر أصحابها ووضعتها على التسريحة، لمحتْ عيناي تلك الورقة من بين كومة الأشياء

المبعثرة، التقطتها وأنا أتأملها وأبتسم ساخرًا، فلقد وجدتُ التسلية المناسبة للقضاء على شعوري بالملل الليلة.

• • •

ترجلتُ عن دراجتي البخارية أمام البيت المدون عنوانه بالورقة، كان لونه أبيض ويتألف من طابقين، نوافذه خشبية مستطيلة زرقاء، تحيطه حديقة يتجلى للناظر إليها من بهاء خضرتها وجمال زهورها حُسن الاهتمام بها، بُني على الطراز التقليدي مخالفًا بذلك الطراز الحديث الذي سيطر على كثيرين في اتخاذ نمطه لبناء بيوتهم منذ بدء العهد الجديد.

وقفتُ أمام الباب فوجدت جرسين بجانبه كُتب فوق أحدهما (البيت) والآخر (جمعية معًا نحيا)، قرعتُ جرس الجمعية ففُتح الباب تلقائيًا، ولجتُ وأغلقته ورائي، استقبلتني طرقة طويلة يحمل جانبا حوائطها براويز خشبية بداخلها رسومات بديعة لأزهار مختلفة الشكل والألوان، آخرها باب بني مؤدٍ إلى شيء آخر فوقه لافتة مستطيلة كُتب عليها (أهلًا بك في جمعيةٍ معًا نحيا)، وبجانبه درج يقود إلى الأعلى. تقدمتُ حتى وصلت إليه ودون أن أطرق فتحته، وجدتُ صالة واسعة تحتوي على أقسام مختلفة دون حوائط تفصل بينها، أقصى يمينها مطبخ مكشوف يطل على أثاث بسيط من الطراز الحديث تتوزع أجزاؤه بشكل يفتقد إلى الترتيب المعهود، ومُثبتة بحائط اليسار براويز تحمل عبارات تحفيزية مثل: (أنت تقدر)، (قاوم)، (العالم يحبك)، وعلى الأرض مقاعد بأغلفة بلاستيكية محشوة ذات ألوان مختلفة يغوص بداخلها من يجلس عليها. حظي

المكان بعشوائية مريحة مُحببة للنفس، تُشعرك بألفة الانتماء كأنك من أصحابه ولست غريبًا عنه.

كانت الصالة تؤدي إلى شرفة واسعة لمحتُ من خلال نافذتها الزجاجية بعض من يجلسون بها، دلفتُ إليها فوجدت حلقة دائرية مكونة من عدة أشخاص يتكلم أحدهم وينصت الجميع إليه باهتمام، لم أعرف منهم أحدًا سوى الفتاة صاحبة حديث الوحدة (ليلى)، نظرتْ تجاهي باسمة تهز رأسها مرحبة، وتخبرني دون أن تتكلم بإشارة من يدها تجاه المقاعد أن أجلب واحدًا وأنضم إليهم.

انتهى المتكلم من حديثه الذي لم أفهم محتواه جيدًا، فأثنى الجميع عليه ووصفوه بالقوة والشجاعة، وزادت عليهم ليلى بجمل تخبره فيها بكم فخرها به.

انتقل الحديث بعدها لفتاة عشرينية شجعتها ليلى على الحديث بعد أن لاحظت ترددها. لم تتحدث الفتاة ولكنها شرعت في البكاء مباشرةً بملل بكاء النساء المعتاد. تعاطف الجميع معها وأعطوها كوبًا من الماء لتهدأ حرارة قلبها بقطراته الباردة، ثم واسوها بكلمات كثيرة على شاكلة (كل هذا سيمر). زفرتُ بضيق من هذا الغباء المحيط بي، يواسونها وهم لا يعرفون السبب! وهل تمتلك النساء شيئًا غير الدموع؟ إن فرحت تبكي وإن حزنت تبكي، إن هُد بيتها تبكي وإن كُسر ظفرها تبكي، وأظن أن الباكية ليست ببعيدة عن دائرة تلك الأسباب. بدأتْ حديثها بعد أن هدأت قائلة:

- فكرتُ في الأمر لأول مرة عندما تركني خطيبي، على الرغم من إنقاص وزني من أجله، على الرغم من سماعي لكل

تعليماته وتطبيقها بحذافيرها، على الرغم من ابتلاعي لعيوبه، تركني، شعرتُ حينها أن عالمي وُضعت نهايته، أعيش ولكني لست بحية، أتنفس ولكني أختنق، لا تنفك قبضة الألم عن عنقي، يستلذ برؤيتي وأنا أصارع طيلة الوقت لأنقذ نفسي من براثنه وأستطيع أن أحيا كما كنت قبلًا.

تنهدتْ بعمق وتابعتْ:

- شعرتُ حينها أنني أصابني شيء من الجنون، ليس هذا الجنون الذي كان يصفني به خطيبي كميزة أتمتع بها وأطير فرحًا كلما سمعت هذا منه، ولكنه نوع آخر، اكتشفتُ أن ليس كل الجنون ممتعًا، الجنون المصاحب لبداية الجرح سيئ، سيئ للغاية، يدفعك للأفعال اللا منطقية كأن تنزل هائمًا على وجهك كالتائه تجري يمنة ويسرة لتجد مخرجًا مما أنت فيه ولا تدرك أين وجهتك، يجعل روحك تتخبط بين جدران جسدك بصخب تلجمه حدود شفتيك وتنهمر دموعك كأنما أصابها مس، تُغرق مسامات وجهك ولا تُخرج شيئًا مما بصدرك، تتخيل حينها أن الموت سيكون أرحم بكثير من هذا الشعور القابع على قلبك فتتمناه ألف مرة، تنام وكل خلية بجسدك يقظة.

تغشّى الجميع الهدوء والتأثر بعد كلماتها تلك، أكملتْ وقد بدأ يسيطر على صوتها البكاء ثانيةً:

- فكرتُ في الأمر مرات عدة، ولكنني أجبن من أن أتخذ قرارًا كهذا على الرغم من إلحاح الفكرة دومًا برأسي، لا أدري

ماذا أفعل، كل ما أعرفه أنني ما زلتُ لا أستطيع العيش، كل ما أرغب فيه أن تعود حياتي كما كانت قبله، ذهب وأخذ كل شيء معه وتركني حطامًا.

قالت جملتها الأخيرة وانفجرت باكية، بدأ الجميع بمواساتها ثانيةً حتى هدأتْ قليلًا. استلمت ليلى دفة الحديث بعدها وهي توزع نظراتها على الجميع قائلة:

- الألم هو ما سيجعلك تحافظ على غسل أسنانك ثلاث مرات يوميًا، وتتبع ذلك بمضمضة ذلك الفوار ذي الطعم الحارق لمدة عشر دقائق، لأنك إن توقفت عن هذا سترى ألمًا أسوأ منه..

الألم هو ما سيجعلك تبتعد عن بعض الأطعمة الشهية مجبرًا لأنك تمتلك قولونًا عصبي المزاج..

الألم سيمنحك رؤية جديدة لتنظر إلى الأشياء وتكتشف حكمتها كأنك تراها لأول مرة..

الألم هو ما سيجعلك تُخرج إبداعًا لو جلست سنوات من دونه لن تُخرج إلا هذيًا منمقًا..

الألم سيجعلك تكتشف مواطن الجمال في روحك والخبايا في قلبك.

قد يبلغ بك الألم درجة تتمنى عندها الموت، ولكن إن دققت النظر ستجد أن الألم والحياة متلازمان بالشكل الذي يدفعك لمواصلة المسير.

قالتْ جملتها الأخيرة وهي تنظر إلى الفتاة قاصدة توصيل معانيها إليها وهي تبتسم لها بحنو. لا أدري ما مشكلة الابتسام معها! تبتسم كثيرًا بشكل زائد ينجح في استفزازي بجانب استفزاز كلماتها التي لم أقتنع بحرف واحد منها. واصلتْ ليلى حديثها ببعض الكلام المُحفز، ثم أعلنت بعده نهاية جلسة اليوم لانتهاء الوقت وهي تذكِّرهم بموضوع مناقشة الجلسة القادمة عن الفرق بين الحزن والاكتئاب، مؤكدة على رغبتها في مشاركة جميع من رفض التحدث اليوم بالتكلم في المرة القادمة.

بدأ الجميع بالانسحاب بعد أن تبادلوا التحية مع بعضهم ومعي دون أن يدفعهم الفضول للتعرف إلى هويتي، بقيتْ فقط الفتاة التي تركها خطيبها بطلب من ليلى، وظلت بجانبها تُحدثها بحديث لا أسمعه. قمتُ من مكاني أتجول بأنحاء الشرفة أتطلع إلى تفاصيل المكان أكثر، أعجبتني السماء وقد اتخذت من السحب برقعًا لتتدلل بحجب جمالها فزادها هذا سحرًا، تُشكل من النجوم حليًا لامعة تتزين بها تخطف البصر بمجرد النظر إليها، لمثل هذا اختُرعت الشرفات، لا لتهوية الملابس والإطلال منها على مبنى خرساني عملاق يحجب رؤيتنا عن جمال السماء، بل لنأتي في نهاية اليوم نلقي بمتاعبنا وهمومنا على حافتها مع إجراء حوار هادئ مع النفس بجوار مشروبنا المفضل. ربما أستبدل بيتًا مثل هذا لا يحجبه عن جمال السماء شيء بشقتي في يوم من الأيام.

رحلت الفتاة بعد عدة دقائق وعلى وجهها أثر ابتسامة متعبة أنهكها المسير حتى وصلت إلى أعتاب شفتيها بعد أن كادت تفقد الأمل.

قامت ليلى بعدها وشرعت في تجميع المقاعد وطيها، غير آبهة بوجودي كأنها لا تراني.

- يوجد نوع أفضل.

وقفتْ مستغربة من جملتي، فتابعتُ:

- الفوار الحارق توجد أنواع أفضل منه.

هزتْ رأسها وأكملتْ ما كانت تفعله. سألتها:

- لماذا لا يوجد نظام آلي بالبيت؟

- لأن أصحاب الجلسات قدموا التماسًا إلى المجلس يطالب بنزعه، لأنهم يصرحون هنا بأشياء سرية تتعلق بهم ويريدون الحفاظ على خصوصيتها، واستجاب المجلس للطلب.

قالت إجابتها دون النظر تجاهي. كان جليًا أنها تحاول تجنب الحديث معي، فاستهواني أن أفعل عكس ما ترغب فيه. سألتُ بشكل يثير استفزازها:

- كم تتقاضين عن هذه المهنة؟

توقفتْ وقطبتْ حاجبيها لتزول الابتسامة أخيرًا ولأول مرة، تسأل متعجبة:

- أي مهنة؟

قلتُ بشكل ساخر:

- زرع الأمل، إنقاذ الناس من الانتحار، الحديث عن القولون ومثل هذه الأشياء.

جمدت للحظات كان من الواضح فيها أنها متحيرة بين اختيارين، إما الرد أو السكوت، وركنت إلى الثاني في نهاية الأمر.

حاولتُ رفع وتيرة سخريتي أكثر وأنا أقول:

– لو كنت مكانك لاخترتُ وظيفة أفضل. بالمناسبة: ألا تشعرين بالتطفل وأنتِ تتدخلين في شؤون الناس بهذا الشكل؟ لماذا تتدخلين في قَراراتهم؟ دعيهم يفعلوا ما يريدون، هؤلاء ليسوا إلا مجموعة من الضعفاء، وقد يكون قرار الانتحار أفضل قرار اتخذوه على الإطلاق. الحياة لا تليق بهم، الحياة لا تليق إلا بالقوي.

وضعتُ آخر مقعد بشيء من الغضب أسعدني، ستلتفت إلي الآن وتسبني فأرد عليها بما يحطمها تمامًا ويكشف أمامها حقيقة هذا الهراء الذي تدعيه. أنا خبير بهذا الأمر جيدًا وفعلته مع كثيرين قبلها، أضع أحدهم لسبب غير معلوم في حرب باردة أقمتها بيني وبين نفسي، لا لشيء إلا لإشباع رغبة بداخلي، حقيقةً أستمتع بهذا الأمر خصوصًا مع تلك النماذج الحاملة على عاتقها الإصلاح والأمل وحب الحياة، وما هم إلا بالونة تستحق الفرقعة من دبوس كلماتي.

لم تلتفت إلي كما توقعت واتجهت إلى الداخل، فتحت الباب البني قائلة بابتسامة كُتم وراءها كثير من المشاعر الغاضبة قائلة بهدوء:

– تشرفنا بزيارتك.

• • •

لم أرَ إلى أي رقم وصل عداد السرعة ولا يهمني، كل ما أدركه جيدًا أن الدراجة تسير بفعل الغضب لا الوقود، تلك الحمقاء طردتني بشكل لبق تغلفه تلك الابتسامة المستفزة، وفوق هذا تُشعرني أنني هواء لا وجود لي وتتعمد تجاهل كلماتي. كيف تجرأت على فعل هذا؟

أكثر ما يشعل صدري ركونها لعدم المواجهة، لو كانت لعنتني وسبتني وألقت جميع المقاعد بوجهي كان هذا سيريحني أكثر من التجاهل مئة مرة، لو كانت طردتني بشكل مباشر مهين لهدمت البيت فوق رأسها حجرًا حجرًا غير نادم على فعل هذا، لكنها لم تفعل.

إن كانت تظن أنها بذلك هزمتني فهي لا تدري أي خصم تواجه ولا بأي مخاطرة تقوم، أنا من أقام تلك الحرب وأنا من يضع قوانينها، وسأحدد من سيكون الفائز وسترى ما سأفعله تلك الـ(ليلى).

• • •

(١١)

(بوح)

رغم محاولتها الاحتفاظ بابتسامتها المعهودة فإنني لاحظت نظرة المفاجأة في عينيها عندما شاهدتني ألِجُ وأنضم إلى الجلسة، كانت تحسبني هذا الشخص الذي يحافظ على كرامته بالانسحاب، لم تدرِ أن روح القتال لا تغادرني وأن عهد الثأر لكرامتي كالسيف على رقبتي، لا أهنأ إلا بتنفيذه بشكل يرضيني لكل من سولت له نفسه المساس بها ولو من بعيد. كانت هذه المرة في صالة مقر الجمعية بعد أن بدأ صقيع الشتاء باحتلال المناخ وفرض سطوته عليه، وصار الجلوس بالشرفة أمرًا صعبًا.

بدأتْ ليلى حديثها بعد إلقاء التحية عليهم والاطمئنان على أحوالهم عن الفرق بين الحزن والاكتئاب، وأن الحزن غالبًا يشتمل على موضوع وعلة معينة كفقد عزيز أو شيء محبب إلى النفس، وقد تطول مدته أو تقصر حسب طبيعة الشخص، وكلما شورك الحزن مع أحد موثوق به ساعد هذا على معالجته سريعًا، بعكس الاكتئاب الذي يحدث نتيجة أسباب عدة مجتمعة معًا ما يؤدي إلى فقدان بوصلة سبب الحزن الأساسي، وينعكس هذا على نفسيته وإحساسه بالضياع

المستمر وفقدان شهيته في مواصلة الحياة. وأسهبت بعد ذلك في الحديث عن أنواع الاكتئاب وانقسامه إلى خفيف ومعتدل وحاد وما علامات كل مرحلة ومتى يجب أن يدق ناقوس الخطر، وانتهتْ بأن هذا ما تُوصل إليه إلى الآن من قِبل المجلس بعد إجرائه عدة تجارب صُرح بها تَحت رعايته، في محاولة منه لمعالجة الأمر بالتعاون مع الجمعية وإمدادهم بالمعلومات اللازمة.

أعطت المجال بعدها لأفراد الجلسة الذين تبادلوا أدوار الحديث واحدًا بعد الآخر، باستثناء شخص واحد رفض التحدث وتنازل عن حقه لمن بعده.

كنتُ في انتظار دوري محاولًا أن أُبلعها طُعم هدوئي واهتمامي بحديث الآخرين لتطمئن وتعطيني مساحتي في التحدث. ظهر على ملامحها الضيق المشوب بالقلق عندما حان دوري، ولكن غلفتهما سريعًا بابتسامتها الدائمة حتى لا يلاحظ الآخرون، مؤملة بذلك أن يظهر مني خير، مخالفة رغبتها بحرماني من الكلام الذي سيثير انزعاج من حولها بالتأكيد، فأعطتها لي رغمًا عنها.

قالتْ من وسط ابتسامتها:

- انضممت إلينا في المرة السابقة ولم يكن هناك متسع من الوقت لنتعرف إليك أكثر، عرفنا بنفسك.

قلتُ بابتسامة سمجة مكتفيًا بكلمة واحدة:

- أمجد.

- أهلًا بك سيد أمجد، هل ترغب في التحدث؟

- بالتأكيد.

توجهتُ بحديثي للجميع قائلًا بجدية:

- مشكلتي أنني شخص أناني، لا أفكر إلا بنفسي، حياتي مملة، أشعر بالاكتئاب الشديد وكثيرًا ما تراودني فكرة الانتحار، ولدي ابن وزوجة لكن صراحةً لا يهمني أمرهما، كل ما يهمني هو أنا وما أشعر به وما أرغب فيه.

بلعتْ ريقها وقد بدأ حديثي يقلقها، تنتقل ببصرها بين الجالسين وتلاحظ بذور التأثر التي نبتتْ على وجوههم، فتابعتُ:

- ولكن أكثر ما يحيرني: أي وسيلة هي الأنسب؟ الخنق أم السم أم الدهس؟

أكملتُ وأنا أنظر إلى السقف:

- اممم.. أظن الدهس سيكون أسرعها، ولكن الدهس بالسيارة ممل لذا أرجح الدهس بالقطار، سيؤدي مهمته سريعًا وينتهي الأمر، ولكن سأشتاق إلى ابني كثيرًا. أود أن يكون آخر ما تقع عليه عيناي في الحياة، لذلك قررت أن آخذه معي.

غزت ملامح الاستغراب وجوههم مع الضيق الممزوج بالسخط من تخيل ما قلت، شعرتُ أن هذا هو الوقت المناسب لتنفيذ خطتي التي أعددتها مسبقًا قائلًا بغضب:

- لماذا تشعرون بالغرابة؟ هل أقول شيئًا غير منطقي؟ ليس الغريب هو كلماتي ولكن الغريب أنكم فكرتم في القيام بهذا وتشعرون بالضيق مما أقول، شعرتم بالحنق لأن طفلًا

سيرى هذا المشهد ولم تشعروا بالحنق لما سيعيشه بعد ذلك بانتحاري، جميعكم أنانيون لا تفكرون سوى بأنفسكم وكيفية تخلصكم من هذا الشعور، لم يشغل بالكم لحظة ما سيخلفه هذا على ذويكم، ستموتون أنتم وينتهي أمركم ويموتون هم كل يوم، إن أردتم الذهاب فاذهبوا، ولكن اعلموا جيدًا أنهم لن يسامحوكم أبدًا على فعلتكم هذه، أبدًا.

ثبت الصمت قدميه بالمكان بعد أن انتهيت حتى خُيل إلي أنني سمعت دبيب الحشرات، تجمدوا في مقاعدهم كأصنام بالية لا يحركون ساكنًا، فغروا أفواههم واتسعت عيونهم من أثر الدهشة والصدمة معًا. كان هذا المنظر يكفيني لشعوري بالانتصار على ليلى، وقد هدمت جميع ما بنته بمعول الحقيقة المؤلمة في جولة لم تحسب حسابها.

شقت السكون بصوتها الهادئ وهي تسألني:

- انتهيت؟

صدمني سؤالها لدرجة أجبرتني على السكوت، لم تكن تلك الكلمة التي توقعتها، توقعتُ كلمات أكثر ونقاشًا طويلًا يحتوي هجومًا عنيفًا وجملًا قاسية أعددتُ له جيدًا.

تابعتِ وقد أجبتها بصمتي:

-تفضل يا هيثم، دورك.

• • •

ما أشعر به الآن لا تستطيع كلمة غضب بأحرفها الثلاثة البسيطة استيعابه، ما أشعر به فاق مراحل الغضبِ بكثير ولم يُكتشف له مسمى بعد، أشعر أنني لو نفثتُ الآن سأحرق مدنًا وقارات ولن يكفيني حتى أحرق العالم بأكمله، وأول ما سأبدأ به هو ذلك الكائن المسمى (ليلى). سد أجيج النار المشتعلة بداخلي مسامعي فلم أسمع ما قيل إلى نهاية الجلسة، لم أنتبه إلا عندما ذكرت اسمي قائلة:

- سيد أمجد أثار موضوعًا قويًا لم نفكر به على مدار جلساتنا، قد يكون أثاره بشكل صادم ولكن الصدمة أحيانًا مفيدة، فهي تثير بعقولنا أفكارًا لم نعِها من قبل. أرى أن ما قاله سيكون مناسبًا لموضوع نقاشنا في المرة القادمة، وهو مدى تأثير الانتحار على ذوي المنتحر وهل المنتحر شخص أناني بالفعل؟ أتمنى أن أسمع آراءكم جميعًا في المرة القادمة.

بدأ الجميع بالانسحاب واحدًا تلو الآخر، لم يتبادل أحد منهم معي التحية كالمرة السابقة، إما أنهم شعروا بغضبي فتجنبوني خوفًا، أو أنهم شعروا بالاستياء مما قلت فقرروا معاقبتي. بدأتْ ليلى بعد ذهابهم بتعديل المكان ومحو آثار الجلسة بينما ظللتُ جالسًا كما أنا على حالي، يكتب لي الانتقام مئة سيناريو أنفذه معها كي أهدأ وأستطيع النوم الليلة. انتشلتني من تخيلاتي الدموية بمثل ما فعلته في المرة السابقة قائلة:

- تشرفنا بزيارتك سيد أمجد.

نزعتْ فتيل قنبلتي بجملتها هذه، أطحتُ بقوة مزهرية كريستالية تحملها طاولة خشبية مربعة تستقر أمامي فتبعثرتْ على الأرض

لعشرات القطع الصغيرة الحادة، محدثةً صوتًا مدويًا أصاب جسد ليلى برعشة المفاجأة، تابعتها بقلب الطاولة ثم اتجهتُ إليها صارخًا:

- هل أنتِ مجنونة؟ كيف تتجرأين على فعل هذا معي؟ من تظنين نفسك؟ من أنتِ حتى تتجاهلي حديثي؟ ولم يكفِكِ مرة بل فعلتِها ثلاث مرات! لولا أنكِ امرأة لكنتُ فعلت ما يليق بقدرك تمامًا.

كان الشعور بالخوف واضحًا جليًا على ملامحها، إلا إنها كانت ثابتة أمامي ولم تتحرك خطوة، لم تجرِ لم تهلع لم تصرخ، ثبات غريب أن يكون بامرأة أمام رجل أفلت من يده زمام غضبه. مرتّ لحظات ظلت صامتة خلالها وأنا أرميها بنظرات مشتعلة تكفي للقضاء عليها وهي واقفة.

أتى صوت من الأعلى يسأل بقلق مستفسرًا:

- ليلى ماذا يحدث عندك؟

- لا يحدث شيء. اطمئن».

- كيف أطمئن! من هذا الذي يتحدث وكيف يتحدث بهذه الطريقة؟

- لا شيء اطمئن، سأشرح لك في ما بعد.

قلتُ بغضب ساخرًا:

- ماذا؟ هل تخافين عليه مني؟ اذهبي واشرحي له من أنا ليريني أفضل ما عنده بدلًا من أن يكتفي بالنداء للاطمئنان.

قالتْ بهدوء:

- هو بالفعل لن يقدر على مواجهتك، كيف لعجوز مصاب بالشلل قعيد لا يستطيع نزول الدرج للاطمئنان على ابنته أن يواجه شابًا قويًا في أوج غضبه؟

أوقفتْ جملتها بركان غضبي الأعمى فجأة، وانبثق شعور آخر بنفس اللحظة، شعور الخزي الذي نجح في إنعاش حس المروءة بداخلي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، شعرتُ أن لساني توارى داخل حلقي خجلًا فلم أقدر على أن أنطق بأي حرف بعد كلماتها الأخيرة. ما هذا الذي أفعله؟ وضعتُ الفتاة بحرب من صنع خيالي وأجبرتها على خوضها وصببت عليها غضبي لمحاولات انسحابها، أدخلت أناسًا آخرين لا ذنب لهم بمعادلتي لتحقيق هدف الانتصار غير مبالٍ بمشاعرهم، والآن أتهكم على أبيها برعونة طائشة دون علمي بظروفه، أي رجولة أدعيها أمام الجميع وأنا فاقد لأسس مبادئها؟

قالتْ مقاطعة المحاكمة السريعة التي أقامتها نفسي ضدي:

- من انتحر في عائلتك؟

- ماذا؟

قالت بصوت يحمل الإصرار مؤكدة بعد أن لاحظت دهشتي:

- من انتحر في عائلتك؟

صدمني سؤالها ولم أجب، كل ما دار بخلدي كيف عرفتْ هذا الأمر؟ من أخبرها ولا أحد يتذكره من الأساس سوى أنا وأبي؟ دعتني

للجلوس بطلب مهذب لم أقدر أمامه على فعل شيء سوى الاستجابة، ذهبتْ إلى المطبخ وأعدت مشروبًا ما، جاءت وأرجعت الطاولة إلى مكانها السابق ووضعت المشروب الذي تتصاعد منه الأبخرة أمامي قائلة:

- علمتُ هذا من أول مرة تحدثت معي بها، وتأكدتُ أكثر من حديثك المرة السابقة وهذه المرة، لا يتحدث بهذه الكلمات إلا من تذوق مرارة الانتحار في عزيز لديه، ومقدار الوجع بها يعكس أنه ليس عزيزًا وحسب بل أعمق من هذا بكثير.

نحيتُ نظري جانبًا ولم أجب، فأكملتْ:

- أعتذر عن تجاهلي لك في كل مرة تحدثت بها، لكن صدقني هذا الخيار أفضل كثيرًا من مواصلة الحديث، كل مرة كنت تتحدث بها كانت بدافع التحدي لا النقاش، ولو تكلمت حينها ستكون هذه حماقة مني ولن نجني شيئًا سوى إهدار الوقت وحرقة الأعصاب، خصوصًا اليوم تعمدتُ ذلك، أنت لا تعلم خطورة ما قلته عليهم لذلك فضلتُ التجاهل، لأني أعلم أنني لو رددت لن تكتفي بهذا وستقول الكثير مما قد يفتح أبوابًا أخرى لن نجني من فتحها سوى الأذى.

ذهبتْ وأحضرت علبة معدنية من المطبخ قائلة وهي تفتحها وتوجهها ناحيتي:

- قطعة كعك مع الشاي؟

هززتُ رأسي نافيًا فأعادتها إلى مكانها السابق، تناولت مكنسة يدوية وكنست قطع الزجاج قائلة:

- ما اسم ابنك؟

- أنا لستُ متزوجًا.

ابتسمت قائلة:

- إذًا أعددت هذا الحديث جيدًا قبل مجيئك.

ذهبتِ وألقت بقطع الزجاج بالقمامة بعد أن وضعتها بكيس بلاستيكي ولفته بلاصق قائلة:

- تُجرح القطط من قطع الزجاج الموجودة بالقمامة، لذا احرص على هذه الطريقة في تغليف أي شيء ستحطمه في المستقبل.

كان من الواضح أنها تحاول فتح مجالات للحديث لأتشجع وأتكلم، لكن شعورًا مبهمًا سيطر على فمي آمرًا إياه بعدم الكلام، شعورًا بالضيق من نفسي، شعورًا بالإحراج مما فعلته، شعورًا بالمفاجأة غير السارة لتوصلها لمعرفة هذا الأمر عني.

جاءت وقالت بعد أن جلست:

- لا تظن أنني أعطيتك عنوان الجمعية وأخبرتك بموعد الجلسات لأنني شعرت أنك تعاني من هذا الأمر، لا، بل أردتُ أن تأتي للاستماع، لتتعرف على ما يشعر به كل من كان يفكر بهذا الأمر وتقدّر ما يمر به، لا أريد أن أضغط عليك لتتحدث الآن ولكن لي طلب أرجو أن تلبيه، هو أن تأتي إلى هنا لمدة

شهر واحد وتستمع بقلبك قبل أذنيك لكل كلمة تقال بهذه الجلسات، تستمع لمشاعرهم، لما يمرون به، لعل هذا يغير الاعتقاد القائم بداخلك ويجعلك تنظر إلى الأمر بأعينهم لا بعينك.

سيطر الانزعاج على جنبات نفسي بسبب الموقف الذي وضعتها فيه، صرت كالتلميذ الصغير يجلس أمام معلمه فيؤدبه ويهذبه ويُلقي عليه كلمات النصح والإرشاد، استأذنتُ للذهاب بعد أن انتهت من حديثها واستقللتُ دراجتي ذاهبًا إلى البيت، كان عشائي وجبة دسمة من السجائر أنفث فيها ضيقي متوهمًا بذلك أنني سأتخلص منه. استلقيت بجسدي أحاول النوم ولم أفلح، لو قيمتُ الأيام بما احتوته من أشياء لمضايقتي لفاز هذا اليوم بجدارة، كلما تذكرتُ تخيلاتي ولذتي بالنصر بعد تنفيذ خطتي وما أشعر به الآن أتأكد أن كل شيء انقلب ضدي، حتى ذاتي التي تتمتع بجلدي على أصغر الأسباب وأكبرها.

حاولتُ شغل نفسي وتخفيف شعوري بمحاولة إصلاح أي شيء أفسدته قائلًا:

- سوسن، ابحثي عن مزهريات كريستالية.

غابتْ قليلًا ثم عادت وبدأت بعرض صور مجسمة ثلاثية الأبعاد لعدد من المزهريات، حجزت واحدة تشبه التي حطمتها تقريبًا- فلم أكن أتذكر شكلها جيدًا، أُصبت بالغم بعد ظهور رسالة توضح ثمنها بشكل بارز مع أيقونة خضراء كُتب عليها تأكيد، كأنها تقول: تأكد مما سوف تفعله أيها الغبي. ضغطت عليها ونفثتُ تذمرًا، أي أبله أنا!

لماذا حطمتها! ماذا جنيتُ الآن؟ كان يجب أن أنحيها جانبًا وأحطم الطاولة فقط. أحمق.

• • •

-أمجد، شكرًا لك على حفل افتتاح شركتي، كان منظمًا ورائعًا.

-سعيد بكلامك يا حازم، أتمنى لك النجاح.

خفض صوته قائلًا:

-أعلم أن السعر الذي طلبته أقل بكثير من تكاليف الحفل، وأن...

قاطعتُ كلامه بإشارة من يدي مبتسمًا ثم ربتُ على كتفه وانضممنا إلى الجلسة. مضى شهران على مجيئي بانتظام إلى الجلسات، أتذكر في بداية الأمر كنتُ لا أرغب في الحضور وأتيت فقط لأعطي المزهرية لليلى كشكل من أشكال الاعتذار، ووددتُ الانسحاب بعدها لكنها أصرت على انضمامي للجلسة مع تذكر نصيحتها المتعلقة بالسماع بقلبي لكلامهم، يومها كانت توجد امرأة في أواخر الثلاثينيات، بدا كلامها عشوائيًّا وهي تحاول توضيح ما يُشعرها بالحزن، لم يكن هناك سبب رئيسي يمكنها أن تضع يدها عليه ولكن كتلة من المواقف والمشاعر جعلتها في حالة تخبط مستمر، على الرغم من عدم وضوح كلامها فإن هذه المرأة مستتني، تشترك مع أمي بشيء ما لا أعلمه لكن أشعر بوجوده، ربما هيئتها التي ذكرتني بهيئة أمي قبل الانتحار، أو ربما رمال الألم المتحركة التي علقت بها تسحبها للأسفل ولا تجد يدًا تجذبها فتنقذها وتشعرها بالأمان مثلما علقت أمي وسُحبت وطويت تحت الرمال.

بقيتُ جالسًا حينها بعد أن رحل الجميع، شعرتُ براحة تسحبني من يدي وتضعني على أعتاب ساحة البوح الرحبة، يدفعني قلبي للدخول بقوة كي يستريح بعد أن تكبد عناء كتمان وجع أضعفه لسنوات طويلة.

قالتْ ليلى وقتها ضاحكة وهي تحمل المزهرية بعيدًا:

- لن أجازف بالتضحية بالمزهرية هذه المرة، إن كنت ترغب في قلب الطاولة فلك ذلك.

ابتسمتُ بفتور على جملتها ثم قلتُ بعد أن ولجتُ الساحة راضخًا لرغبة قلبي:

- أمي.

ظهرتْ علامات التأثر على وجهها فجلستْ صامتة بعد أن فهمت ما أقصده، فتابعتُ:

- أنا لا أكرهها بل أحبها كثيرًا، حبًا يدفعني إلى عدم مسامحتها على ما فعلتْ، كانت تعلم جيدًا مدى احتياجي إليها ولم تفكر بهذا، كانت بقيت من أجلي على الأقل.

- ومن أخبرك أنها لم تفكر؟

- لو فكرتْ لبقيت.

- وربما لذلك رحلتْ.

نظرتُ إليها مستغربًا فأكملتْ:

- ربما علمت بمدى احتياجك إليها ووصلتْ إلى مرحلة من التعب النفسي الذي جعلها تتوهم أنها لن تستطيع القيام بهذا الدور بالشكل المطلوب، لذلك أقدمت على هذه الخطوة.

صمتت برهة وتابعتْ:

- لا أقول هذا لأبرر ما فعلته ولا أبرر فعل الانتحار بالتأكيد، ولكن أرجوك لا تقسُ عليها ولا تصدر أحكامك ما دمت لم تمر بما مرت به، يكفي ما أحست به من ألم، أنا متأكدة تمامًا أن حيرة الاختيار بينك وبين ما تفكر فيه قتلتها ألف مرة، هذا بخلاف أي مشاعر أخرى، كن رحيمًا بها رجاءً.

أثارتْ جملتها مكامن الاشتياق والتماس الأعذار بداخلي، كأنني كنتُ أحتاج فقط إلى من يخبرني بهذا ويعلل ما فعلته أمي فأقبله وإن لم يقنعني، سحبتُ نفسًا عميقًا بعد أن امتلأت عيناي بالدموع في محاولة لإقناعها بالعودة إلى قنواتها مرة أخرى، لكنها عصتني مما دفعني للقيام سريعًا متجهًا إلى الخارج. وقفتني ليلى بندائها فوقفتُ أستمع إلى ما تقول دون أن أنظر إليها، قالتْ راجية:

- أرجو أن أراك الفترة القادمة ضمن جلساتنا، صدقني هذا سيساعدك على فهم كثير مما كانت تمر به والدتك.

أومأت لها برأسي ثم اتخذتُ طريقي إلى البيت لا أفكر بشيء سوى بكلام ليلى وطلبها الأخير، ذهبتُ مرتين بعدها أجلس مستمعًا فقط لمن يتكلمون، أغوص في مشاعرهم أكثر وأحاول فهم ما يمرون به، وشكل هذا دافعًا قويًا للذهاب بعدها مرات أخرى والانتظام

بالجلسات، حتى مر شهر ليلى المطلوب وألحقته بشهر آخر لإشباع رغبة الاستماع بداخلي. عشتُ سنين طويلة وحيدًا لا أسمع إلا نفسي وحان الوقت لسماع غيري، وسماع ليلى!

لا أعلم على أي شيء تربت هذه المخلوقة، دائمًا هي بالمنتصف لا أقصى اليمين ولا أقصى اليسار، تعرف متى تتكلم ومتى تنصت متى تبتسم ومتى تكف متى تبدأ ومتى تنتهي متى تقسو ومتى تلين، حكمة يحظى بها قليلون فما بال إن وُجدت بامرأة! ولعل هذا يفسر إحساس الاطمئنان في أثناء الحديث معها وشعور الجالسين هنا بكل هذه الأريحية في التحدث غير نادمين على أي حرف ينطقون به.

كنتُ أشعر بالضيق في كل مرة تُلغى فيها الجلسة، ضيق دفعني للإحساس بالخوف وسؤال نفسي بصراحة: هل تضايقت لأنك اعتدت على وجود الجلسات بأسبوعك، أم لأنك لن تراها؟

فيجيب قلبي بإجابة واثقة يحجبها عقلي سريعًا نافيًا أن يكون هذا صحيحًا، لكن سرعان ما تتبدد محاولته أمام ما أشعر به بصحبة جلستها، شعور مسافر أتى من مسافة بعيدة ووصل إلى وجهته أخيرًا، وصل إلى وطنه، شعور كان قادرًا على دحض جميع افتراءاتي السابقة بأنني خضتُ مضمار العشق مشتركًا بفرس حبي لعديد من الفتيات قبلًا، ليثبت لي أنني لم أخضه بحياتي يومًا وأن ما أقبل عليه مختلف، مختلف تمامًا هذه المرة.

• • •

(١٢)

(تعارف)

«لم أعد داريًا، إلى أين أذهب

كل يوم، أحس أنكِ أقرب

كل يوم، يصير وجهكِ جزءًا

من حياتي، ويصبحُ العمرُ أخصب

وتصيرُ الأشكالُ أجمل شكلًا

وتصيرُ الأشياء أحلى وأطيب

اعتيادي على غيابك صعبٌ

واعتيادي على حضوركِ أصعب»

لم تغادرني هذه الكلمات منذ ليالٍ، قرأتها منذ زمن ذات مرة بديوان شعر لشاعر يُدعى نزار قبانيٍ وأعجبتني فدوّنتها، قبل أن يجمع المجلس الكتب ويخفيها، لم أكن أعلم أن الأيام ستمر وسأصبح تجربة حية بشعور لا أستطيع وصفه لكن نجحت تلك الأبيات بتجسيده.

نظرتُ إلى باقة النعناع المتألق بخضرته وقد نسقتُه بعناية مُحب وأحطته بشريط من الساتان الأحمر اللامع، قربته من أنفي وشممته بعمق، أخذتني رائحته لعالم آخر، عالم مليء بالانتعاش والراحة، كيف لا يُقدر الناس النعناع حق قدره؟ هل شمه مهووسو رائحة البنزين قبل عشقهم الغريب؟

بينما أنا غارق في عالم النعناع كان أصحاب الجلسة قد انتهوا من إعداد المفاجأة على أحسن وجه، اليوم ستبلغ ليلى عامها الثلاثين، وأرادوا أن يحتفلوا بها على طريقتهم الخاصة تقديرًا لما تفعله معهم، تحمستُ حين أخبروني برغبتهم وظننتُ أنهم يريدون مني تنظيم الحفل، لكنهم قالوا لي إنهم يريدون أن آتي مبكرًا عن موعد الجلسة لمساعدتهم. عرضتُ عليهم القيام بالأمر فهذا ما أجيد فعله ووعدتهم بإقامة حفل ليس له مثيل، لكنهم رفضوا وأخبروني أن ليلى لا تحب مثل هذه الأمور، مما أقلقني، فكونها لا تحب مثل هذه الأمور يعني أنها لا تحب طبيعة عملي.

سمعنا وقع خطواتها على الدرج فأسرعوا بإطفاء النور، وصلتْ وهي تسأل بصوت مسموع عن سبب الظلام وأشعلت المصابيح، فانطلقت كلمة مفاجأة من حناجرنا بصوت عالٍ، ابتسمتْ بخجل عندما فهمت الأمر واكتشفتْ ما أعددناه من أجلها، تجمعنا في شكل حلقة كهيئة جلساتنا المعتادة وكل منا يحمل طبقًا ترقد به قطعة كعك قطعناها منذ لحظات.

قررنا أننا لن نتكلم عن أي شيء متعلق بالانتحار أو الاكتئاب، فاليوم يوم لا يليق بذكر أحزان الحياة ومآسيها، اليوم ليس يوم أحد

منا، اليوم يوم ليلى فقط. رغم الحفلات التي أقيمها يوميًا وأجوائها الصاخبة وأضوائها اللامعة وشخصياتها المهمة من أصحاب كبار الشركات، فإن هذا الاحتفال البسيط بأشخاصه غير المشهورين على الإطلاق بـ ليلى غمرني بسعادة عارمة وشعور بالانتماء لم أذقه طيلة حياتي إلا مرات يسيرة.

بشكل لم يُرتب مسبقًا بدأ الجميع واحدًا تلو الآخر بإهداء كلمة لـ ليلى مما أشعرني بالتوتر، ماذا سأقول عندما يحين دوري؟ أشعر أن لساني إن نطق سيخبرها بكل شيء ويُسمعها الأبيات التي لا تنفك عني منذ أيام. جاء دوري سريعًا ولم أرتب ماذا سأقول لها بعد، وجدتُ حيلتي في تغير نمط الجلسة وجرى على لساني سؤال لا أعلم من أين أتى به عقلي بهذه السرعة فقلتُ:

- أنا سأختلف عن الجميع في قول كلمة وسأطرح سؤالًا: بماذا تشعرين اليوم وأنتِ على أعتاب الثلاثين؟

نظرتْ مبتسمة ثم أجابتْ بعد أن فتحت مفكرتها الزرقاء:

- بالفعل كنت أفكر في هذا السؤال منذ عدة أيام وكتبتُ ما دار بخلدي.

تنحنحت ثم بدأت بالقراءة:

- عندما تبلغ عتبة الثلاثين ستشعر أنك قد أتممت أمرًا ما ومقبل على آخر..

ستكتشف أنه كان يجب أن تقول لا عندما طُلب منك أن تقول نعم، وأنه كان يجب عليك الانسحاب عندما طُلب منك البقاء، والتمسك حينما طُلب منك الإفلات، والصراخ عندما طُلب منك الصمت، والجنون عندما طُلبت الحكمة، والخفوت عندما طُلب منك التوهج، والضباب عندما طُلب منك الوضوح.

ستكتشف أنه كان يجب أن تكون قويًا في بعض أمورك ولا تدعي غير ذلك لجلب الشفقة، وأنه ليس عيبًا لو كنت ضعيفًا، ضعيفًا جدًا وأظهرت ذلك..

ستكتشف أنك اتخذت كثيرًا من القرارات الخاطئة وأن قراراتك الصحيحة القليلة رائعة..

وأنه كان يجب الاستسلام لذلك الذبول لتزهر من جديد، لكنك لا استسلمت ولا أزهرت..

وأنك لو نظرت بسطحية تافهة إلى الأمور لكان أفضل كثيرًا من التعمق..

وأنه يجب أن تكف عن إضاعة الوقت في محاولة ترتيب الفوضى في عقلك والعبثية في روحك..

وأن سر الفاقة في قلبك ليس وحدة أو تخليًا أو جرحًا أو انكسارًا، بقدر ما هو ضعفك..

ستجد أن الذين فارقوك كثر والأكثر إخلاصًا منهم هم الموتى، وأنه يجب أن ترسل إليهم يوميًا سلامًا ووردة..

وأن شعورك كان كاذبًا عندما أخبرك أنك الوحيد الناظر إلى اكتمال القمر في تلك الليلة،ولم يكن كاذبًا في هذا الأمر فقط، وأن كثيرين غيرك كانوا ينظرون..

وأنه لم تكن حماقة مسيرك تحت المطر حتى الغرق...

ستكتشف أن الأسود ليس بسوداوية ما اعتقدت ولا الأبيض نقيًا دومًا كما ظننت، وأن اللون الرمادي لون كثير من قناعاتك وليس الأبيض أو الأسود كما كنت تزعم طيلة حياتك، وأن تلك المساحة بينهما في كثير من الأحيان مريحة، مريحة جدًا...

وأنه عليك اقتناء حيوان أليف وشرب كوب من اللبن الدافئ كل يوم قبل النوم، وأن تزرع كثيرًا من زهور الياسمين البيضاء، لعل شيئًا من بياضها ينال قلبك...

وأنه يجب أن تكون أنت، أنت وحسب.

حل هدوء الانبهار على الجميع بعد أن انتهت من إجابتها، نظرتُ إليها صامتًا تُحسن عيني نظم كلمات عجز لساني عن قولها، تُجيد عملها كخير رسول ينقل رسائل قلبي من خلالها، انسحاب عينيها سريعًا من أمامي في خجل كان يعكس استلامها لبعض من تلك الرسائل، قالتْ كعادتها في تشتيت الانتباه لموضوع آخر عندما يتعلق الأمر بالثناء عليها:

- أظن حان وقت العصائر.

مضت قرابة نصف ساعة ما بين ضحك وإلقاء نكات بعضها سخيف ولكن صار استملاحها إلزاميًا لكي لا يتضايق قائلها، بدأ الجميع بعدها بالانسحاب بعد تقديم عدد منهم لهدايا مغلفة حتى بقيتُ أنا آخر من يرحل، قدمتُ إليها باقة النعناع فقالت مُتعجبة:

- نعناع! لكن كيف؟

قاطعتها:

- لاحظت اهتمامك الزائد بالنعناع الموجود في الشرفة أكثر من مرة، فعلمتُ حبكِ له.

نظرتْ إليه باسمة وهي تقول:

- شكرًا لك.

كنت أشعر أن الكلمات على لساني كالجمر أريد أن أنطق بها لأستريح، شيء يدفعني دفعًا للتحدث، من أين جاءت كل تلك الرغبة في الكلام وأنا فاقد لها منذ زمن بعيد؟ وودتُ أن أخبرها عن حماقاتي التي ستكتسب أهميتها فقط عندما تُروى لها دونًا عن غيرها، وودتُ أن أخبرها أسراري، عاداتي، شكل حياتي ومشاعري، وددتُ لو أسألها سؤالًا واحدًا فقط، هل إحساسي أنها رغم كل هذا التجاهل الذي تدعيه تحمل شيئًا تجاهي أشعر به ويعلل سبب هروبها الدائم من أمامي؟

قالتْ وما زالت عيناها تجولان بين أطراف النعناع:

- سأضعه بالشرفة، بعد إذنك.

انسحبتُ تجاه الشرفة واتجهتُ أنا خارجًا تاركًا شيئًا مني بحوزتها، يضرب بجذوره في حديقتها مطمئنًا أنها ستحسن رعايته وتجيد زراعته، مثلما أجادت زرع حبها في قلبي تمامًا.

• • •

- ماذا؟

- أقول: أرغب في التقدم لخطبة ليلى.

صمت.

-هشام هل تسمعني؟

-نعم أسمعك.

-ما رأيك؟

-في ماذا؟

قلتُ باستغراب مغلف بالانفعال:

-في رغبتي في التقدم لـ ليلى، ما بك يا هشام! هل أنت نائم؟

-لا لا، أسمعك.

صمت برهة وأكمل:

- اممم.. أشعر أنكما غير متناسبين.

كانت جملته كحجر أُلقي على صدري فجأة، سألتُ بضيق:

- لماذا؟

- أنت جيد، هي جيدة، لكن كليكما غير ملائم للآخر.

- أنا لا أرى ذلك.

- أنا أراه جيدًا، أنا أعرفك وأعرفها وأعرف طباعكما، خذ بنصيحتي.

كان هشام غريبًا ومختلفًا عن عادته معي، لم يخالفني الرأي في أي قرار أخذته من قبل ودومًا ما يشجعني ويلقي الضوء على محاسني ومميزاتي، توقعتُ منه ردة فعل مختلفة تمامًا عن هذه، توقعتُ أن يفرح ويثني على اختياري كما يفعل دائمًا ويحفزني للتعجيل بالأمر. هل كان يراني كذلك أم ينافقني من أجل العمل؟ وهل هذه رؤيته حقًا أم أن هناك شيئًا آخر؟

لو لم أكن متأكدًا من حبه لسارة لظننتُ أنه قد يكون متعلقًا بليلى ويحاول صرف نظري عنها.

عندما يأتيك الإحباط من أكثر مكان تتوقع منه الدعم يكون وقعه مضاعفًا،

ليتني لم أتكلم معه، فنصتني كلماته وأنا أحلق في أعالي السماء، ولم تكتفِ بذلك بل مرغتني في الوحل.

• • •

تلبسني الضيق في أثناء قيادتي لدراجتي البخارية متجهًا إلى أطراف المدينة المهجورة للالتقاء بصحبة السوء وإمدادي بالسم النيكوتيني بعد نفاده عندي، أفكر في حوار هشام المغلف بالبرود، أحاول أن أكذب وجهة نظره وأصدق مشاعري فتأتيني جملته «**أنا أعرفك وأعرفها وأعرف طباعكما، خذ بنصيحتي**»، للأسف هو محق بهذا الأمر وربما هذا هو سر ضيقي الحقيقي من حواره، سارة صديقة لـ ليلى منذ زمن وتعرف طباعها جيدًا وهشام يعرفني لذلك أصدر حكمه، لو كان أي واحد آخر قد قال هذا الكلام لضربتُ بحديثه عرض الحائط متهكمًا من وجهة نظره المعطوبة، وهذا الذي لم أقدر على فعله مع هشام.

شوش الحنق رؤيتي لدرجة أنني توهمت أنني أرى هشام يدخل إلى سيارته، دققتُ النظر، لا هذا ليس وهمًا، كان هشام بالفعل!

رآني أقترب منه فعرفني وترجل عن سيارته، توقفتُ بالدراجة وكانت مفاجأتي كبيرة عندما وجدتُ سارة وليلى تجلسان بالخلف، حييتهما بيدي فردتا التحية بمثلها.

اتجه هشام نحوى بابتسامة مبالغة وهو يقول:

- صدفة سعيدة.

سألته مستغربًا:

- ماذا تفعلون هنا؟

أشار ناحية بيت وهو يقول:

- كنا بزيارة لخالة سارة، هي خياطة ماهرة وأرادت سارة تفصيل بعض الملابس قبل العرس.

سألته بعد أن نظرتُ تجاه البيت المتهدم جزء من واجهته ولم يعد يظهر لون طلائه الأصفر من تراكم الأتربة الرمادية عليه ويبدو عليه الهجر:

- هنا؟

- نعم، هذا بيت عائلة والدة سارة منذ أجدادها ويعتزون بامتلاك هذا البيت.

- وهل تحدد موعد الزفاف؟

- لا، ولكن نشعر باقتراب موعدنا ونود الانتهاء من بعض الأشياء حتى نكون مستعدين.

سألته متعجبًا:

- حدثتك منذ ساعتين ولم تخبرني بأن لديك موعدًا اليوم مع سارة.

أجاب بعد أن خبط جبهته:

- نسيت أن أخبرك يا زعيم، أنت تعلم مشاغلي كثيرة هذه الأيام.

أتبع جملته سريعًا بسؤالي:

- وأنت ما الذي جاء بك إلى هذه المنطقة؟

- كنت أمر من هنا وسأذهب لزيارة صديق لي.

- حسنًا لا أريد أن أؤخرك عن موعدك، أراك غدًا، سلام.

قالها متجهًا إلى سيارته، فتح بابها واستقر أمام عجلة القيادة وبدأ بالتحرك، ألقت سارة وليلى التحية بإشارة برأسيهما واختفوا بالطريق وأكملت أنا طريقي قاصدًا وجهتي، لا أعلم لماذا أشعر أن هشام لم يكن يصدقني الحديث وأن هناك أمرًا آخر غير الذي أخبرني به، عادةً يخبرني بجدول يومه وإلى أين يذهب، لماذا لم يفعل اليوم؟ أم أن الحديث عن موضوع خطبة ليلى أنساه إخباري؟ لا أعلم، ولكن أشعر أن هناك أمرًا ما.

• • •

الثالثة والنصف مساءً. من المفترض أنهما سيأتيان الآن، أخبرتنا ذات مرة عندما تأخرتْ عن موعد الجلسة بالسادسة أنها تحافظ على طقس الغداء بهذا المطعم برفقة أبيها كل ثلاثاء لحبه له.

أخبرتُ أبي أنه يمكننا تناول الغداء معًا اليوم كما يرغب ولكن سأختار المطعم، أعلم أنني لو أخبرته بحبي لـ ليلى ورغبتي في التقدم إليها سيرفض الأمر من قبل أن يراها، معللًا ذلك بعدم ثقته باختياراتي وأن من ستحظى بشرف عائلتنا يجب أن تكون مميزة وتُختار بعناية وتُمنح موافقته عليها. أظنه لذلك يلح دومًا في أمر لبنى والتقدم إليها حتى يستريح من عبء اختيار زوجة سيتعب كثيرًا للتأكد من صلاحية مؤهلاتها للوظيفة، أقصد للزيجة.

سأحاول أن أعرفه إلى ليلى اليوم ليراها ويرى طريقة تعاملها، أنا أعلم طريقة تفكيره جيدًا وأعلم أنه يميل إلى نمط المرأة الحكيمة العاقلة مثل ليلى تمامًا، سأجعله يقتنع باختياري دون بذل أي مجهود بل وسيثني عليه.

العقبة الوحيدة التي أواجهها الآن بماذا سأخبره عندما يسألني كيف عرفتها؟ لم أخبر أبي بأمر الجلسات، لو علم بهذا الأمر سيغضب كثيرًا وسيتفنن باتخاذ كافة السبل التي تعوقني عن حضورها مثلما فعل من قبل في كثير من الأشياء.

رأيتُ ليلى من الطابق العلوي للمطعم تلجه برفقة أبيها الجالس على كرسيه المتحرك الكهربائي ويتبعهما شاب وسيم قوي البنية أراه لأول مرة، من يكون هذا؟

قلق بعثرني لألف قطعة وأعاق ذهني عن التفكير في أي شيء سوى من يكون هذا الشخص؟ صرتُ أريد الذهاب إليهم لأعرف من هذا أكثر من قيامي بهدفي الأساسي بالتعارف بينها وبين أبي.

-أمممجد!

انتبهتُ لنداء أبي الواضح من نبرته أنه أعاده مرات عدة مسبقًا ولم أسمع إلا الأخير منه.

تابع:

- ماذا سنأكل؟

قلتُ متذمرًا:

- لا أعلم يا أبي أي شيء.

- أي شيء! أنت من اخترت هذا المطعم وبالتأكيد تعرف أفضل أكلاته.

- لم آتِ إلى هذا المطعم من قبل، هذه أول مرة.

- أول مرة! لماذا اخترته إذًا؟ أحسبك جلست به من قبل.

لو يعلم أبي ما يمر به تفكيري لصمت تمامًا عن هذه المناقشة السخيفة، ما المُتعب في أن يختار أي صنف! لن يختلف مساره كثيرًا عن كل ما نتناوله، سيُؤكل، سيُبلع وسيذهب إلى بالوعات الصرف في نهاية الأمر.

استأذنتُ أبي للذهاب إلى المرحاض، نزلتُ الدرج إلى الطابق السفلي حيث تقبع مائدة ليلى وأبيها وهذا الشخص، تصنعتُ توزيع نظراتي بين أرجاء المكان ومنحتُ مائدتهم بعضًا منها فرأتني ليلى، حييتها مبتسمًا متقنًا رسم ملامح المفاجأة على وجهي، اتجهتُ إليهم بادئًا حديثي:

- يا لها من مفاجأة، ليلى كيف حالك؟

شعرتُ بشيء من السعادة مسها لرؤيتي مما أرضى جزءًا بداخلي وطمأنني، قالت مبتسمة:

- بخير، أنت كيف حالك؟

- «بخير، هل تأتون إلى هنا دومًا؟» سألتُ بدهشة كاذبة.

- نعم نأتي إلى هنا كل ثلاثاء.

نظرتْ تجاه أبيها وقامت بالتعارف بيننا قائلة:

- الأستاذ سلامة أبي، أمجد.

شعرتُ حينها أن مجرد نطق اسمي بمفرده هكذا سبة، بالتأكيد يعرف أمجد دون الحاجة إلى أي تفاصيل أخرى، أمجد قليل الأدب الذي حطم المزهرية التي ربما ورثها عن أمه العزيزة وتشكل مكانة لديه، وهو أيضًا الذي رفع صوته على ابنته بكل وقاحة ونعتها بالجنون، ولا أعلم هل دمرت ليلى صورتي أمامه تمامًا بنقل الجزء الأخير المتعلق بسخريتي منه أم لا.

مددتُ يدي وسلمتُ عليه بترحاب شديد لعل هذا يغفر ما سبق، اتجهتْ ليلى بعدها للشاب قائلة:

- أمجد، صلاح.

انتظرتُ ما ستقوله بعد صلاح لكنها صمتت، صلاح ثم ماذا؟ صلاح هكذا فقط! لا أعلم لماذا ليلى ليست ثرثارة كبقية الفتيات، سلمتُ عليه برتابة متعمدة تبادلها معي هو الآخر، قلت دافعًا إياها لإجابة سؤال يعثى بعقلي بطريقة غير مباشرة:

- صلاح؟ أظن أنني رأيته قبل ذلك في مقر الجمعية.

أجابتْ نافية:

- لا لا، صلاح لم يأتِ من قبل لمقر الجمعية، هو صديق لعائلتنا بجانب أنه يدير عمل أبي.

أمدتني كلماتها بجرعة من الارتياح غير المكتمل، خصوصًا مع نظراته الفاحصة لي ومتابعة حديثنا بصمت دون أن يشترك بأي كلمة.

قلتُ وأنا أسعى لتحقيق ما فعلت كل هذا من أجله مشيرًا تجاه مائدتنا بالأعلى:

- جئت اليوم مع أبي.

وكما توقعتُ تمامًا قالتْ ليلى:

- يمكننا إلقاء التحية عليه إن لم يزعجكما هذا.

- على الرحب والسعة.

اتجهنا عاليًا أنا وهي يرافقنا صلاح! لا أدري ما الذي جاء به اليوم، مجرد وجوده يشعرني بالضيق ويفسد جزءًا من خطتي.

ما إن وصلنا إلى المائدة وتقابلت الأوجه حتى رأيتُ ملامح الاستغراب على وجه ليلى، لكنها محتها سريعًا بابتسامة أُصيبت بشيء من الاضطراب، ربما تفاجأت من صغر سن أبي وأن يكون لديه ابن بمثل عمري، أو ربما شعرتْ بالخجل.

قمتُ بالتعارف بينها وبين أبي وصلاح المتطفل، لم يقم أبي من مقعده ورحب بهما بإيماءات من رأسه ردا عليها بمثلها ثم انسحبا بعد أن استأذنت ليلى بأدب،

لم يدم اللقاء أكثر من نصف دقيقة معظمه إيماءات رأسية دون كلام! لم أخطط للأمر بهذا الشكل، كنتُ أود أن أنجح في فتح حوار

بسيط بينهما ولو لخمس دقائق، وجود صلاح المفاجئ، أبي وعدم حفاوته كما هي عادته، ليلى وانسحابها السريع وقلة كلامها، كل هذا أفسد الأمر تمامًا. لا أعلم لماذا يحدث كل شيء على عكس ترتيبي له كأن مؤامرة تُحاك ضدي أُعدت جيدًا لمضايقتي. كل ما أتمناه ألا تسير الأمور على هذه الشاكلة مستقبلًا، رجائي الوحيد أن تتحقق أمنيتي وسينصلح كل شيء بعدها، متأكد من هذا.

• • •

كطارق لا يمل من قرع جرس البيت يبتغي الدخول، دقتْ زخات المطر زجاج النوافذ بإلحاح دفعني للتقدم والاستجابة لندائها وفتح النافذة، فعبرت سريعًا للداخل من خلالي تربتُ على وجهي بقطراتها وتغسل جزءًا أسود رسخ في قاع روحي.

التقطتُ رشفة من كوب الشاي المحاط بيدَي رغبةً في مزيد من الدفء بعد أن عززتُ نكهته بأوراق من النعناع الطازج، زادت مكانة هذا المشروب بقلبي منذ أن قدمته لي ليلى ذات مرة، أما النعناع فقد صار أساسيًّا في حياتي بعد معرفتي لحبها له.

حديثها عن قوة اتخاذ القرارات الإيجابية وسلك كل سبل السعادة ومحاولة طرق أبوابها في الجلسة الفائتة لم يغادر عقلي، شعرتُ أن كل كلمة قالتها بمثابة رسالة زادت من حماستي لاتخاذ خطوة الارتباط بها رغم كل المقدمات السيئة والإشارات المُحبطة. عزمتُ أمري على فتح الحديث معها اليوم، لماذا أتكبد عناء التفكير والظنون والتخيلات وحيرة الاحتمالات ما دام في مقدوري الذهاب

إليها مباشرةً والتحدث في الأمر؟ شعرتُ بضربات قلبي تزداد وأنا أكرر الحوار الذي سأجريه معها للمرة المئة بيني وبين نفسي، أخشى أن يضيعني الارتباك بين متاهاته وتسفر محاولتي عن اللا شيء. ضحكتُ مما أصابني، أين قوة شخصيتي وجرأتي وإقدامي وكل هذه الصفات؟ الإنسان بالفعل يختلف كثيرًا تحت سطوة الحب.

قطعتْ حواراتي الصامتة بصوتها الآلي قائلة:

- سيد أمجد لديك رسالة صوتية على نظامك من السيدة ليلى. هل أشغلها؟

أجبتُ سريعًا:

- نعم.

علا صوت ليلى قائلة:

- هذه رسالة جماعية لكل أفراد الجلسة، الجلسة اليوم ملغاة لسوء الأحوال الجوية، ألقاكم الأسبوع القادم.

كدتُ أحطم الكوب بيدي بعد سماع رسالتها، ما الذي يجري بحق؟ كل شيء أخطط له يفسد!

بدلتُ ملابسي سريعًا والتقطتُ خوذتي، لن أدع الظروف تتحكم بي كيفما تشاء، اتخذتُ قراري وسأنفذ ما أردت.

• • •

(١٣)

(القدامى)

تسورتْ عيني ليلى نظرات المفاجأة عندما رأت ملابسي المبتلة تمامًا بفعل المطر، وقطرات الماء المنسابة من أطرافي وقد أصابت جسدي رعشة البرد وأدركت قلبي رجفة الخوف، أقف صامتًا أمام باب بيتها لا أجد ما أقوله، قالتْ متعجبة:

-أرسلتُ رسالة للجميع بإلغاء الجلسة ووضعتُ اسمك، ألم تصلك؟

- بلى وصلتني.

ابتلعتُ ريقي وأنا أحاول إجابة سؤال دار بعينيها وخجل لسانها عن النطق به للاستفسار عن سبب مجيئي قائلًا:

- أود التحدث في أمر ما مـ...

- «من هناك يا ليلى؟» قاطعني الأستاذ سلامة بعد أن خرج على كرسيه المتحرك من إحدى الغرف يستطلع من الطارق.

أجابته:

- أمجد يا أبي.

صرتُ أتحسس كثيرًا من مجرد ذكر اسمي مقترنًا بأبيها، كأنه إشارة لسرد تاريخي الأسود بعقله. شعرتُ بالتورط وهو يدعوني للدخول والجلوس ويأمر ليلى بإحضار منشفة وإعداد مشروب دافئ من أجلي. قضى الوقت بالترحيب بي والتحدث عن أحوال الطقس السيئة هذه الأيام وكرهه لفصل الشتاء لاعتباره فصلًا كئيبًا، وخالفته ليلى الرأي وهي تناولني منشفة تلحفتُ بها سريعًا بعد أن وضعت المشروب أمامي.

صمتا بعد أن انتهيا من حديثهما وهما يتبادلان النظرات المتسائلة في ما بينهما، بينما أنا أفكر في الرد المناسب عندما تحين اللحظة الحاسمة.

قالتْ ليلى:

- أخبرتني أنك تريد التحدث في أمر ما يا أمجد؟

وودتُ أن أخبرها أنني لم أكمل جملتي «أود التحدث في أمر ما معكِ على انفراد» لولا مقاطعة أبيكِ، ترددتُ في إخبارهما عن حقيقة مجيئي، ولكن قول أي سبب آخر سيكون غير منطقي ويصعب تصديقه في ظل الأجواء المناخية السيئة، ولا أريد أن أظهر أمام الأستاذ سلامة كشخص كاذب يستدعي الأسباب التافهة ليبرر دخول البيت فيفقد ثقته بي، أنا ما زلتُ أحاول تصليح صورتي القديمة أمامه وليس من الذكاء أن أقوم بأي فعل سيئ الآن، ولماذا أخاف وأتردد إلى هذا الحد؟ الرجل يحسن استقبالي منذ أن دخلت بيته، وقد يكون هذا هو

الوقت المناسب تمامًا لطلبي، وبالتأكيد مجيئي مباشرةً إليه سيجعله يشعر بجديتي ويقدرها. طيلة عمري أؤمن بنظرية أن الأشياء التي تأتي بغير ترتيب مسبق أفضل كثيرًا من الأشياء التي يُعد لترتيبها، فلماذا لا أطبق هذه النظرية على ما أمر به الآن؟

قلتُ بجدية بعد أن فردتُ قامتي واضعًا المنشفة بجانبي:

- أعلم أن ما سأقوله من الممكن أن يبدو غريبًا، وأن مجيئي في هذا الطقس وبهذه الهيئة يبدو جنونًا، لكنني أرى أن تفكيري في هذا الأمر هو أفضل ما دار بخلدي في الآونة الأخيرة إن لم يكن أفضل ما فكرتُ به طيلة حياتي.

سحبتُ بعض الهواء إلى صدري أستمد منه عزمًا للمصارحة بطلبي وأنا أنظر إلى ليلى وقد تعلقتْ عيناها بي قائلًا:

- أستاذ سلامة، أنا أتقدم إليك لطلب يد ليلى.

• • •

سقط هشام أرضًا بعد أن تلقى لكمة قوية من يدي بمجرد أن فتح باب شقته، قام وهو يضع يده على وجهه سائلًا بفزع:

- ماذا حدث؟

قلتُ بغضب:

- ذهبتَ إليها وإلى أبيها وأخبرتهما برغبتي وأقنعتهما أنني غير ملائم كما كنت تحاول إقناعي، أليس كذلك؟

أجاب وما زال على فزعه:

- تقصد ليلى؟ لا لم أخبرها بشيء.

علا صوتي بفعل الغضب أكثر:

- كفى كذبًا.

تابعتُ معاتبًا إياه:

- لماذا؟ كنت أنت أول من أخبرته، لم أفعل معك أي شيء سيئ وهكذا ترد الجميل؟

قال راجيًا:

- صدقني لم أخبرها بأي شيء يا أمجد.

قلتُ منفعلًا:

- أمجد! الآن صرتُ أمجد! ألم أكن الزعيم قبلًا؟

نظرتُ إليه باستحقار متابعًا:

- كان أبي محقًا في كل ما شعر به تجاهك، كنتُ أكذبه طيلة الوقت وأثق بك لسذاجتي.

شهرتُ سبابتي بوجهه وأنا أقول مهددًا:

- احذر أن أرى وجهك ثانيةً لبقية حياتي وإلا ستندم كثيرًا.

انسحبتُ تاركًا هشام جالسًا على الأرض غارقًا في بحر مفاجأته، تسحبه إلى القاع دوامات نفيه الكاذب آخذة معها كل شعور طيب كنت أكنه له يومًا ما.

• • •

ماذا عن الذكريات التي لم تحدث يومًا وإنما أُوجدناها في عالمنا الخاص، وبقيت غالية بكل تفاصيلها البعيدة تمامًا عن الحقيقة، يوم أن أحببنا وصارحنا وعشنا قصة حب ملحمية صادقة استنزفنا فيها كثيرًا من مشاعرنا وقوت أرواحنا من واقع حياتنا، ما دفعنا إلى محاربتها ظانين سهولة الانتصار، فنجد أن ذكريات تخيلاتنا تغلغلت داخلنا بعمق لن نقدر على الوصول إليه وأنها عزيزة، عزيزة وإن كانت توجعنا عند اكتشافنا أنها لن تحدث أبدًا وأنها ستبقى حبيسة المصباح حتى يُحك بيد المستحيل فيخرج ماردها خادمًا مطيعًا، ويكون أول ما نطالب به هو تحقيقها.

مر شهر على ما حدث، انقطعتُ خلاله عن كل شيء يذكرني بليلى محاولًا ترميم وجع ناء قلبي بحمله، متجاهلًا رسائل واتصالات أصدقاء الجلسات حتى توقفوا عن المحاولة، كلما تذكرتُ رفض أبيها المبهم جن عقلي، لم يوضح ولم يفسر، اكتفى فقط بجملة: «أنت شاب جيد وكثير من الفتيات يتمنين الارتباط بك، ولكن أعتذر إليك لن أستطيع قبول طلبك». حاولتُ أن أفهم منه هل يوجد أحد آخر فأجاب بالنفي، هل لموقفي القديم علاقة بهذا فأجاب أنه نسيه تمامًا، هل يوجد أي أسباب أخرى؟ فأجاب لا، لكنه يرى أننا غير متلائمين! نفس جملة هشام النذل، أفسد الشيء الوحيد الذي رغبتُ فيه في

حياتي بهذا القدر. الغريب هو موقف ليلى، ظلتّ صامتة تنظر إلي بعين حزينة حزنًا لم أستطع أن أحدد نوعه، هل هو حزن لموقف أبيها أم حزن شفقة مما سأعانيه. زجرتُ قلبي عن محاولات تبريره لها، كفى غباءً يا أمجد، لا تتعلق بالأحبال الذائبة وتغرق نفسك في وهم حبها لك، كانت تعاملك باهتمام مثلك مثل الجميع، لم تميزك بأي شيء مختلف وقلبك فسر هذا حبًا مما دفعك للإقدام في مشاعرك أكثر، تصبح المشاعر رائعة عذبة ونحن في غمارها، لا تتجلى بقسوتها إلا عند الحرمان منها بعد العطاء، أن يظل الشعور عالقًا بذاكرتك كشعور خلاب تود كل دقيقة أن يقتحمك ويهز كيانك بسحره أفضل من أن تنخدع بجمال بحره فتُقدم وتتعمق حتى الغرق ولا تجد للنجاة سبيلًا.

أو ربما حدث هذا كله معي تكفيرًا لذنب لبنى، أتجرع من علقم نفس الكأس لأقدر ما مرت به.

- «سيد أمجد، سيد معتز يجري اتصالًا بك، هل أجيب؟» قالتها سوسن.

- نعم.

جاء صوت معتز:

- مرحبًا سيد أمجد، كيف حالك؟

- بخير، هل تقدم أحد آخر للوظيفة؟

- لا، لم يتقدم أحد.

- هل حدث شيء؟

- لا، ولكن سيد أمجد اسمح لي وأرجو ألا تتضايق من كلامي، إلى متى سنظل نرفض كل الحفلات التي تأتينا؟ هكذا ستخسر الشركة سمعتها.

- لا أستطيع قبول أي حفلات حتى يحل أحد موثوق بقدراته مكان هشام.

قال راجيًا:

- سيد أمجد، هل أتصل بهشام وأطلب منه الرجوع إلى الشر..

قاطعته غاضبًا:

- لا، لا تتصل به، ثم ماذا تظن؟ هل تظن أنه من تركنا؟ أنا من فصلته.

قال يائسًا:

- حسنًا، كما تريد.

أعلم أن ما يقوله معتز صحيح، هشام عملة نادرة يصعب الوصول لمثلها، وغيابه عن الشركة بجانب ما أمر به أثرا بشكل كبير على نشاطها وأديا إلى تدهور أحوالها. أيًا كان لن أعيد هشام أبدًا حتى إن أفلست الشركة.

• • •

- غريب، هذه أول مرة تطلب أن نجتمع للعشاء معًا، كنتُ أنا من يرغب دومًا في الاجتماع معك.

ابتسمتُ له قائلًا:

- أرغب أنا كذلك يا أبي، ولكني كنتُ دائم الانشغال بأمر الشركة، واستغللتُ فرصة عدم وجود حفلات هذه الأيام وأسرعتُ لمقابلتك.

ابتسم من كلامي فتابعتُ بنبرة لم أتمكن من إخفاء الحزن بها:

- هل تعلم، أشعر أنني بحاجة إليك هذه الأيام، أنت الوحيد الذي أثق بمقدار حبه تجاهي.

افترش القلق ملامح أبي وانتقل إلى المقعد المجاور لي قائلًا:

- أمجد، بقدر ما يسعدني كلامك بقدر ما يقلقني، هل أنت بخير؟

- نعم، لا تقلق، شعرتُ فقط أنني أريد قول هذا الكلام وأنني يجب أن أثق بحدسك تجاه الأشخاص في ما بعد، اكتشفت أن تحذيرك لي تجاه هشام كان صادقًا.

قال بنبرة متوعدة:

-هل ضايقك؟ أخبرني فقط وسترى ماذا سأفعل معه.

قلتُ نافيًا:

- لا، لا يا أبي لم يصل الأمر لهذه الدرجة، كما أنني فصلته من الشركة.

-خيرًا فعلت.

علا رنين هاتف أبي الخاص بالشخصيات المهمة فأجاب سريعًا مرحبًا بحرارة مبالغة، يخبرني بصوت هامس أن المتصل صديقه المقرب بالمجلس، تكلما في كثير من الأمور حتى انتهى من المكالمة وتوجه إليّ محذرًا:

- أمجد، توخَ الحذر جيدًا هذه الأيام وراقب تصرفاتك، صديقي يخبرني أن المجلس سيشن حملة موسعة لضبط (الخالدين) ومحاصرتهم والقبض على كل من يشتبه بهم، واتصل خصيصًا لتحذيري.

أومأت له برأسي موافقًا في ملل بعد أن سمعت هذه النصائح عدة مرات سابقة وجميعها كانت بنفس اللهجة الجادة الحذرة.

تابع بضيق:

- كنت أرغب في زيارة والدتك قريبًا ولكن سأؤجل هذا الأمر، سيتوسع المجلس في البحث بأطراف المدينة بعد اكتشافهم للتو بيتًا مهجورًا يتخذه (الخالدين) مقرًا لهم بمنطقة (القدامي).

لم أكن أهتم كثيرًا لما يقوله أبي، ولكن تيقظ ذهني فجأة عندما ذكر اسم المنطقة، وبدأت بالربط بين كلامه وأحداث الفترة السابقة، عصرتُ ذاكرتي لتذكر اليوم تحديدًا حتى تذكرته أخيرًا، نظرتُ إلى هاتفي لمعرفة بأي يوم نحن، فوجدتُ يومنا الحاضر يطابق نفس اليوم، يوم الإثنين.

قلتُ لأبي وأنا أتصنع الاستغراب حتى لا يلاحظ شعوري الأساسي بالقلق:

- يبدو أنني أضعتُ مفتاح دراجتي، أبي هل يمكنني استعارة سيارتك؟

- حسنًا سأوصلك إلى البيت بعد أن ننتهي.

- لن أستطيع الجلوس أكثر، تذكرتُ موعدًا مهمًا ويجب أن أذهب الآن، هل يمكنني استعارة سيارتك أم أطلب سيارة أجرة؟

- لا، خذ السيارة وسأطلب أنا سيارة أجرة.

التقطتُ المفتاح وذهبتُ إلى السيارة وانطلقت مسرعًا متمنيًا ألا يكون قد فات الأوان.

• • •

(١٤)

(عرس)

أطلقت الأرض صرخة مميزة جذبتِ أنظار المارة إليها، بعد أن كبحتُ جماح إطارات السيارة دفعة واحدة أمام إشارة مرور وُضعت هنا لاختبار مدى صبري بإظهار عداد ثوانيها المتحرك ببطء، تؤدي مهمتها على أكمل وجه في إثارة استفزازي، رفعتُ أمامها رايتي البيضاء متوعدًا إياها بالتلف ذات ليلة غير محددة الموعد، أندفع كطلقة لا تخطئ هدفها، لمحتها من بعيد تنتظر أمام بيتها، وقفتُ أمامها تمامًا فاتحًا باب السيارة قائلًا:

-اصعدي.

قالت وقد تملكتها الدهشة:

- لماذا؟

- اصعدي.

- لماذا؟ هل حدث شيء؟

- سأشرح لكِ.

– ولكن لدي موعد الآن.

– أعلم، لذلك أتيت.

بدتْ عليها الحيرة وهي تنظر يمنة ويسرة يمنعها التردد من الاستجابة لطلبي، حسمتُ أمرها بصوت آمر قائلًا:

– هيا.

أطاعتْ أمري على مضض ظهر في كثرة نفثاتها وعقد يديها أمام صدرها بقوة، يتحاشى بصرها المعلق بالنافذة النظر تجاهي.

فتشتُ في ذاكرتي عن أقرب مكان آمن بعيدًا عن أعين الكاميرات والأنظمة الإلكترونية أخبرني به أصدقاء السوء، وانطلقتُ إليه مسرعًا.

رن هاتفها وهمَّت بالرد فقلت لها:

– أخبريه بإلغاء الموعد.

– هذا..

– أعلم من هو، أخبريه كما أخبرتك.

نظرتْ إلي نظرة كدتُ أسمع من خلالها بقبقة ماء عينيها وقد وصل لمرحلة الغليان بقِدر الغضب، اعتصرت الهاتف وهي تفعل ما أمرتها به قائلة بنفاد صبر بعد أن أغلقت:

– أخبرته، ألن تشرح ماذا يجري؟

- اقتربنا.

مضت عشر دقائق وصلنا بعدها إلى مكان على جانب المدينة المعمورة خالٍ من السكان والإضاءة، تطل حافة هضبته الجيرية العالية على كثيرٍ من البيوت المتراصة بعضها بجانب بعض تتخللها الأشجار وأعمدة الإنارة.

ترجلتُ عن السيارة متجهًا إلى طرف الحافة ناظرًا إلى المدى أتأمل القمر الذي التهمت السماء نصفه، تاركةً النصف الآخر لتقتات عليه في الليالي القادمة الباقية من الشهر.

دفعتْ باب السيارة بقوة غاضبة نجم عنها صوت لو سمعه أبي لجاء ودفننا حيين، قالت متوعدة:

- أرجو أن يكون الأمر يستدعي كل هذا.

نظرتُ إليها قائلًا بهدوء:

- إذًا أنتِ منهم.

قطبت حاجبيها مستغربة:

- ممن؟

- الخالدين.

انبسطت ملامحها من وقع الصدمة وشخص بصرها، ازدردت ريقها لتروي حلقًا يبس فجأة، وقالت وهي تحاول السيطرة على حشرجة ألمت بصوتها:

- ما هذا الذي تقوله! من أخبرك بهذا الجنون؟

- بيت خالة سارة أخبرني.

- لكنه بيت خالة سارة بالفعل.

- أنا لم أكذّب حتى تؤكدي الأمر.

أربكتها جملتي فبدأت بتنفيذ الخطة المتبعة منذ مئات السنين لتشتيت انتباهي قائلة:

- ألهذه الدرجة تحاول الانتقام مني وإلصاق هذه التهمة بي؟

- إن كنتُ أريد الانتقام لأبلغتُ عنكِ مباشرةً دون المجيء إليكِ.

كادتْ تنطق بكلمة أخرى فوقفتها ناهيًا:

- ليلى كفى، أنت تكذبين بشكل يثير الغثيان ولا يدل على أي احترافية في الأَداء، كفى رجاءً.

أبعدتْ بصرها بضيق مستسلمة لكشف حقيقة أمرها، تناولتُ سيجارة من جيبي أشعلتها لهدف مقصود فنظرتْ تجاهي ذاهلة تسأل متعجبة:

- ولكن، السجائر محرمة، كيف..

قاطعتُ حيرتها:

- أتذكرها لأني مثلك تمامًا، لم تُمحَ ذاكرتي، الاختلاف الوحيد بيننا أن لديكِ مناعة من الفيروس أما أنا فلم أتعرض له.

مست ملامحها إشراقة سعادة لا أعلم سببها الحقيقي، هل هي سعادة الانتماء باكتشاف أي أحد يشبهك بتلك المدينة الضائعة، أم سعادة تتعلق بمكانتي لديها. اقتربتُ منها أكثر سائلًا بلهجة معاتبة:

- لماذا؟ أنا ما عهدت عليكِ غير الحكمة، لماذا تورطين نفسكِ بهذا الأمر؟

تعجبتْ بضيق قائلة:

- أُورط نفسي!

انتهزتُ الفرصة واتخذتُ وضعية المعلم الناصح قائلًا بحزم:

- نعم تورطين نفسكِ في ما لا قيمة له، معذرة ولكن ما الذي فعله (الخالدين) سوى أنهم نغصوا علينا معيشتنا، طيلة الوقت نشعر بالذعر مخافة أن يُكشف أمرنا بسببكم، كانت حياتنا أيسر وأفضل كثيرًا قبل ظهوركم، نعيش مطمئنين ما دمنا نفعل كل شيء بالخفاء، ما وجه الاستفادة التي حققتموها بعدما أثرتم غضب المجلس واقتحمنا واقتحم بيوتنا بذريعة حماية الأهالي منكم؟ لماذا شخص مثلي يعيش حياته بهذا الشكل وأنا غير منضم إليكم؟ أبسط الأمور لا أقدر على فعلها داخل شقتي، حتى هذه لا أستطيع أن أتناولها إلا داخل المرحاض.

ختمتُ جملتي بإلقاء السيجارة بعيدًا بغضب بعد أن أدتّ مهمتها، شاعرًا بالضيق متذكرًا شكل حياتي المليئة بالخوف بسبب أبي وتحذيراته الدائمة وكثيرًا مما عشته ولا يسعني قوله لها الآن منذ أن أعلنوا عن أنفسهم.

قالتْ بسخرية لاذعة:

- نحن سيئون للغاية. كيف تجرأنا وعكرنا صفوك وأفسدنا متعتك إلى هذه الدرجة؟

وقبل أن أُبدي أي ردة فعل تجاه سخريتها تابعتْ بغضب جارف:

- مُحي دينّنا، تاريخنا، علمنا، هويتنا، عاداتنا، ذكرياتنا، استباحوا عقولنا بمطامعهم وطمسوا بصيرتنا وأنت لا يشغل بالك سوى سيجارتك! كيف لا تقدر حجم الكارثة التي حلت بنا! كيف تنظر إلى جريمتهم بهذه التفاهة! تنظر إلينا على أننا سبب البلاء وتغض الطرف عما فعلوه، وضعنا حياتنا في خطر دائم، كل يوم يُقبض على عدد منا مضحين بأنفسهم من أجل هدف حملناه على عاتقنا مؤمنين به، وتأتي أنت الآن وتسفه من كل ما نقوم به!

صمتتْ برهة وقالت بعد أن أطلقتْ زفرة تحمل كثيرًا من الأسى:

- أسمع أحاديث مثل حديثك هذا طيلة الوقت من أهل بلادنا عن الخراب الذي ألحقناه بها ومدى فسادنا، لكن تفاجأت أن يخرج منك ومفاجأتي الكبرى أن يخرج من أحد ما زال محتفظًا بذاكرته، ومن المفترض أن يحسن تقدير ما يمتلكه ويفقده الناس من حوله. على كل حال نحن مستمرون في ما نفعله حتى نحقق ما نطمح إليه، وبعد عدة سنوات من الآن عندما تتناول سيجارتك بكل أريحية ستتذكرنا بالخير يا سيد أمجد.

لم تكن ليلى التي تتحدث أمامي، كان شخصًا آخر غير الذي اعتدتُ هدوءه وابتسامته الدائمة، نطقت بغضب لم يكن وليد اللحظة بل غضبًا تأصل بداخلها منذ زمن، غضبًا لم يجسده لسانها فقط بل جسدته جميع ملامحها، غضبًا ممزوجًا بوجع وألم وحزن وقهر تمثل في دمعة لمعتْ بعينيها لم يتحمل قلبي رؤيتها فهربتُ مسرعًا عائدًا إلى السيارة.

• • •

وصلنا أمام بيتها يلفنا الصمت طيلة طريق العودة، نخشى التحدث بأي كلمات قد تنكأ مزيدًا من الجراح. قلتُ ناظرًا إلى عجلة القيادة:

- لا تذهبوا إلى هناك ثانيةً، اكتشفوا هذا المكان.

قالت مستغربة:

- كيف عرفت؟

- لا يهم كيف، المهم ألا تذهبوا ثانيةً.

أومأت برأسها وهمتْ بالنزول فوقفتها:

- ليلى.

استجابت لندائي دون أن تتكلم فنظرتُ إليها سائلًا:

- هل رفضتما طلبي لهذا السبب؟

ندتْ من عينيها نظرة شفقة لم تحمل ردًّا واضحًا لسؤالي، تابعتها قائلة وهي تهم بالنزول:

- تُصبح على خير يا أمجد.

نزلتْ من السيارة بعد أن تركتني أتخبط بين جدران الحيرة بعدم إجابتها، أحاول ألا أفسد طرب قلبي لرؤيتها بكثرة التفكير، انطلقتُ وكلي ثقة بتحقيق دعوتها أن أصبح على خير، فصباح يوم سبقته ليلة جمعتني بها بالتأكيد سيكون بخير، بخير جدًا.

• • •

تطلعتُ إلى مرآة المصعد وأنا أحاول إقناع بعض الشعيرات النافرة من جانب رأسي بالنوم مثل الباقية، بعد أن عجزتْ مستحضرات العناية بالشعر عن ترويضها وظلتْ محتفظة بمبدأها بعدم الانجراف مع التيار، تركتها مستسلمًا للفشل كالعادة منذ بدء محاولاتي معها منذ سنين.

أعدتُ ضبط هندام بذلتي السوداء حديثة الشراء، أُخفي بأناقتها قلبًا اهترأ بعد أن بالغت الحياة في إنضاجه وقذفتْ به لسوء مذاقه ولم يعد وجبة صالحة لإشباع خواء روح جائعة للسكن.

وصلتُ إلى الطابق السابع حيث تقبع قاعة عرس هشام، دعاني إلى زفافه برسالة نصية تركها لي ولم يحدثني، أظنه تجنب هذا الأمر بعد علمه بمعرفتي لحقيقته، بالتأكيد نقلت ليلى ما حدث يومها إليهم جميعًا. لا أدري كيف نجح في إخفاء الأمر لهذه الدرجة طيلة فترة عمله معي. ابتسمتُ ساخرًا وأنا أتذكر تحذيرات أبي المتكررة

بالانتباه جيدًا أمامه، فهو يراني كثيرًا وربما يلاحظ احتفاظي بذاكرتي ويبلغ المجلس عني، أشعر بالخجل الشديد إزاء ما فعلته معه، لم يكن هو السبب كما اتهمته، كنتُ أرى الصدق في عينيه حينها ولكن الغضب أعماني، لم أكلف نفسي حتى عناء الاعتذار باتصال صغير يدفع عنه الظلم ويرد كرامته، ومع ذلك دعاني، سأزوره خصيصًا في بيته للاعتذار إليه بشكل يليق بمكانته عندي.

كانت القاعة تضج بأصوات الحاضرين يسلون أنفسهم بالحديث لحين وصول العروسين، ركنتُ إلى طاولة بعيدة عن الأعين يتخذ الفراغ من مقاعدها الأربعة مجلسًا، لمحتُ ليلى وأبيها يجلسان على طاولة بالمنتصف فنحيتُ بصري بعيدًا متظاهرًا بالانشغال في البحث عن مكان للجلوس.

مرت دقائق بدأ بعدها بعض الأشخاص بالقيام والتوجه لباب القاعة مع حدوث ضجة فهمتُ من خلالها وصولهما، دلفا إلى القاعة واستقرا على أريكة فخمة بالمنتصف وسط حفاوة وترحيب ومباركات الجميع، كانت السعادة المرتسمة على وجه هشام وسارة كفيلة بإسعاد كل من ينظر إليهما تلقائيًا، يشبك يده بيدها كالمتعلق بطوق نجاة وجده وسط غرقه، ينظر إليها ناسيًا من حوله بنظرات تُطمئن قلبه بأن ما يعيشه الآن واقع. كانت ليلى ملازمة لسارة منذ دخولها للقاعة تساعدها بحمل فستانها وإجلاسها والإسراع إليها إن فقط أشارت، تحوم حولهما بروح محبة وتصورهما باستمرار لتُخلد لحظات تمر سريعًا ولن تعود. لا أعلم هل درتُ بخلدها ولو لثانية ورأتني بموضع هشام كما أراها أنا طيلة الوقت بموضع سارة؟

لمحني هشام من وسط الجمع فاختلطت سعادة وجهه بالمفاجأة وحياني بيده مسرعًا، كان جليًا أنه لم يكن يتوقع حضوري ولا أنكر أنني شعرتُ بصدق فرحته برؤيتي، قمتُ من مكاني متجهًا إليهما مباركًا له هو وسارة متمنيًا لهما حياة مليئة بالسعادة والحبور، تقابل وجهانا فألقيتُ عليها تحية عابرة لم تبادلني بمثلها، بل فاضتْ بأكثر وأبدتْ ترحيبًا أسعدني، أشارت إلى الأستاذ سلامة فبدأ بالتحرك بكرسيه فأسرعتُ أنا إليه، انحنيت ملقيًا السلام فهمس بأذني قائلًا:

- نشكرك على تنبيهك لنا.

رددتُ شكره بابتسامة مجاملة راجعًا إلى طاولتي بعد استئذانه، الأستاذ سلامة أيضًا منهم، الآن صاروا هشام وسارة وليلى وأبيها، تُرى كم عددهم بهذه القاعة؟ أم أن جميعهم من (الخالدين)؟

فهمتُ سر المعاملة اللطيفة من قِبل ليلى ووالدها، وذلك تقديرًا منهما لما فعلته، ربما يتخيل أبوها أَنني قمتُ بهذا من باب المروءة، وحقيقة الأمر أن مجرد تخيل إصابة ليلى بأذى حينها كاد يصيبني بالجنون، هل يُقدّر حقًا مدى احتمالي لتعنيف أبي لكسر إشارة مرورية؟ والأدهى أنني فعلتُ هذا بسيارته وحمّلني دفع الغرامة كاملة. بالتأكيد لا يُقدر، لو قدّر هذا لزوجني ابنته حالًا وصار العرس عرسين.

جاء الوقت المحبب للجميع بأي زفاف، وقت الطعام، بدأت تفترش الطاولات بالأطعمة وقطع كعك العروسين مع المشروبات الباردة، وما إن هم الحاضرون بتناول الطعام وسط ضحكاتهم بأخذ فاصل قصير يبدأ بعده الاحتفال بالعروسين حتى صدر صوت عالٍ نتيجة

دفع باب القاعة بقوة أفزعنا، دخلوا بزيهم الأسود وهيئاتهم الكئيبة غير الملائمة لأجواء العرس، بتجهم نظر زبانية قوات المجلس إلى وجوه الجميع مستمتعين بإتلاف فرحتهم، يقول أحدهم بصوت أجش:

- أين المدعو هشام مراد علي؟

بدأ القلق يعشى بين الحاضرين ملتزمين الصمت خشية ما سيحدث إن أجابوا، بصوت أعنف أعاد سؤاله ثانيةً ولم يلقَ جوابًا، فأصدر عقابه قائلًا:

- جميع من في القاعة رهن الاحتجاز حتى نتحقق من هوياتكم.

قام هشام من جوار سارة التي تجسد الرعب بعينيها قائلًا:

- أنا هشام مراد.

اتجه إليه قائلًا بصرامة:

- تفضل معنا، أنت رهن الاعتقال.

ابتلع هشام ريقه بعد أن ألقى نظرة على سارة التي تشبثت بيده كطفل صغير سائلًا:

- والتهمة؟

أجاب بصرامة أكثر:

- واحد من (الخالدين).

كانت هذه الجملة كفيلة بإفساد جميع معالم البهجة والسعادة التي كانت تغمر المكان والحاضرين منذ دقيقة واحدة.

لم يقبلوا النقاش أو التفاوض من قبل البعض بأن الأمر الذي بحوزتهم خاطئ بالتأكيد، وأن يرجعوا للَتأكد ويتركوا العريس ليُكمل ليلته، اقتادوا هشام معهم ساحبين الهواء من القاعة تاركين الجميع في حالة من الصدمة من انقلاب الحال والحزن على هشام، سارعتُ باللحاق بهم تلوح أمامي طريقة واحدة قد تنجح في إنقاذه من براثنهم، متجهًا إلى الخارج وما زال صوت سارة عالقًا بأذني وهي تنتحب وتصرخ باسم هشام.

• • •

احتل الفزع عينَي أبي عندما رآني أمام باب بيته وما زالت آثار النوم باقية على وجهه وقد أيقظته شدة طرقاتي سائلًا بخوف شديد:

- ماذا حدث؟ هل أصابك مكروه؟

- لا اطمئن، ولكني أحتاج إليك في أمر عاجل لا يحتمل التأخير.

فتح الباب أكثر لأدخل، فقلت ناهيًا:

- لا، ليس هنا، بل في السيارة.

انتعل أبي خفًا منزليًا واتجه مسرعًا معي نحو السيارة، جلسنا بها وبدأتُ حديثي مباشرةً:

- آسف لم أستطع أن أحدثك بالهاتف أو بالمنزل حتى لا يسمع النظام الإلكتروني.

قال متعجلًا:

- ماذا حدث؟ أخبرني، أنا في غاية القلق.

- هشام.

- ماذا فعل؟ هل آذاك؟

- لا لا، هشام قُبض عليه اليوم في أثناء زفافه.

- وما علاقتك أنت؟ ألم تخبرني بأن صلتك به انقطعت؟

- بلى، ولكني اكتشفتُ أنني كنتُ مخطئًا في هذا والتبس عليّ الأمر، سأشرح لك في ما بعد يا أبي، المهم الآن أنني أحتاج إلى صديقك المقرب في المجلس.

تجعد ما بين حاجبيه مستغربًا وهو يقول:

- لماذا؟

- هشام قُبض عليه بتهمة (الخالدين).

صُدم أبي من جملتي كأنني نطقتُ بمصيبة كبرى، قال وهو يشعر بزهو لصدق إحساسه:

- لم أشعر بالراحة تجاهه لحظة، صدق حدسي به، من الجيد أنهم قبضوا عليه سريعًا. أرجو ألا يكتشفوا أنه كان يعمل لديك يومًا ما.

قلتُ مندهشًا من تغييره مسار الأمر بهذا الاتجاه:

- أبي، جئتُ إليك لتتصل بصديقك ويساعدني بإخراجه.

قال بغضب وعيناه تطلقان شررًا:

- هل جننت؟ في الوقت الذي أرجو فيه عدم معرفة صداقتكما تريد أنت مني الاتصال لأثبت هذا الشيء، بل وأتشفع لخروجه؟

قلتُ راجيًا:

- أبي، أرجوك، أسدِ إليّ هذه الخدمة ولن أطلب منك شيئًا لبقية حياتي.

قال صارمًا:

- أمجد، تهمة (الخالدين) لا تهاون معها وأنت تعلم هذا جيدًا، حتى وإن حادثتُ صديقي لن يستطيع فعل شيء له، تهمة (الخالدين) خط أحمر.

أكملتُ بنفس رجائي:

- حسنًا، دعهم يسجنونه ولكن دون أن يطبقوا عليه حد العقوبة باقتلاع ذاكرته، أرجوك حاول.

قال متجهمًا:

- سأحاول ولكن لا أعدك بشيء.

رغم شدة عبوس وجهه وهو يقولها فإن كلماته أشعلت جذوة الأمل في قلبي من جديد، أمل رسم بمخيلتي خروج هشام ورجوعه إلى سارة وإعادة زفافهما مرة أخرى واحتفاظهما ببسمتهما العذبة لآخر عمريهما معًا.

• • •

قابلتني ليلى بعينين تحملان حزنًا عميقًا أشعر به جيدًا منذ ما حدث، قلتُ مفسرًا سبب مجيئي لبيتهم:

-كنت أعلم أنكِ لن تتركي سارة وستأتين بها إلى هنا، لذلك أتيتُ للاطمئنان عليها.

- للأسف حالتها سيئة للغاية، هي بالداخل تفضل.

ولجتُ إلى الصالة التي تحطم فيها قلبي قبلًا وقادتني إلى غرفة كان يجلس بها الأستاذ سلامة أمام سارة الغارق وجهها بالدموع، وما أن رأتني حتى اندفعتْ تجاهي مسرعة تلكم صدري بضربات نسائية ضعيفة وهي تصرخ:

-أنت من أبلغت عنه، أليس كذلك؟ حقير حقير.

حجبتها ليلى عني سريعًا وأبعدتها وهي تحاول تهدئتها فأكملتْ:

- روى لي آخر موقف بينكما وماذا فعلت معه، متأكدة أنك أنت من أبلغت المجلس.

نهاها صوت الأستاذ سلامة الرزين قائلًا:

- سارة اهدئي، أمجد لم يفعل هذا، لو أبلغ لقُبض علينا جميعًا وكان في يده فعل هذا من قبل لكنه أنقذنا.

صمتْ برهة تنهد خلالها ثم تابع:

-أجريت اتصالاتي وعلمتُ أنهم شكُّوا بهشام منذ أشهر بسبب بلاغ قام به واحد من جيرانه دعاه لمناسبة تخصه، وفي أثناء

حديث هشام مع أحد الضيوف ذكر معلومة تاريخية من المفترض أنها مُحيت، بعد البلاغ سلطوا عليه جاسوسًا أوهمه أنه محتفظ بذاكرته ويريد الانضمام إلينا، وبحماسة هشام المعتادة للأسف رحب به وأخبرني بهذا ذات مرة، ولما أعطاني اسمه علمت من مصادري أنه من ضمن من مُحيت ذاكرتهم، فحذرته منه ونصحته بالابتعاد عنه وعمل بنصيحتي، وظلت الأمور جيدة لمدة أربعة أشهر توهمنا خلالها أنه ربما حدث عابر أعطيناه أكبر من حجمه، لم أدرِ أنهم سيسددون ضربتهم الليلة بهذا الشكل.

انهارت سارة أكثر في البكاء بعد ما انتهى من جملته، فتابع بأسف:

- أرجوكِ أن تسامحيني يا ابنتي، أنا من أخطأت في تقدير الأمور، المهم أن تختفي عن الأنظار الآن، بالتأكيد هم يشكون بكِ ولكن ليس لديهم دليل ضدك، ولن ننتظر حتى هذه اللحظة، لن أقوى على فقد اثنين من أبنائي، يكفي ما بي من حزن على هشام.

مسح عبرة استرسلتْ سريعًا من عينيه مشيرًا إلى ليلى بإشارة فهمتها فأخذت سارة لغرفة ثانية، قال:

- أعتذر عن فعل سارة، هي في حالة انهيار من وقتها ولا تعرف ماذا تفعل.

قلت سريعًا:

- أتفهم ما تشعر به تمامًا ولا أحتاج إلى اعتذار، هشام لم يكن مجرد عامل بشركتي بل أكثر من ذلك، وإن كنتُ أنا أشعر بهذا الحزن فهي بالتأكيد تمر بأضعافه.

أومأ برأسه مؤكدًا كلامي، استأذنتُ ذاهبًا بعد أن لاذ بالصمت وقد هبط الضيق بساحة صدره يريد طرده بعبرات تستحي من الظهور أمامي، وددتُ أن أطمئن قلبه بكلام أبي عن المحاولة لكن شيئًا منعني لعله خوفي من فشلها، طردتُ هذا الخاطر من ذهني سريعًا، فمجرد تخيله يؤلمني، علقتُ آمالي بمحاولة أبي متمنيًا من كل قلبي أن تكلل بالنجاح.

• • •

(١٥)

(الزوال)

لم تقوَ قدماي على حمل الثقل الذي قُذف في قلبي فجأة فاستندتُ إلى السيارة، محاولًا تصديق ما سمعته أذناي سائلًا:

- بهذه السرعة؟

- أخبرتك أن تهمة (الخالدين) خط أحمر يا أمجد.

- ولكن، ولكن لم يمر على اعتقاله خمسة أيام، لماذا نفذوا العقوبة بهذه السرعة؟ ربما كان بريئًا.

- الأدلة ضده كانت قوية بجانب إصراره على عدم إخبارهم بأي معلومات قد تفيدهم في القبض على البقية.

ظللتُ صامتًا وما زال عقلي يحاول تصديق ما حدث مع هشام، أفكر في شكل حياته منذ أيام قليلة كيف كانت وكيف صارت الآن؟ اقترب أبي مني قائلًا بعطف:

- اليوم سيُرحل إلى سجن الزوال، وكما تعلم من يذهب إلى هناك لا يُرى ثانيةً، نجحتُ من خلال صديقي بالمجلس في

ترتيب مقابلة بينكما لمدة خمس دقائق قبل ذهابه، إن كنت ترغب في رؤيته.

أومأتُ له برأسي موافقًا، بالتأكيد إن أُتيحت لك فرصة مقابلة عزيز لديك قبل ذهابه إلى الأبد ستسرع بالموافقة وإن كانت خمس دقائق، خمس دقائق هي الباقية في علاقتكما والأهم بالنسبة إليك.

• • •

توقفنا أمام المشفى الرسمي لمجلس إدارة شؤون العهد الجديد الخاص بالمسجونين، لم أكن أعلم أن هذا هو المكان الذي تجرى به العمليات للخالدين، ترجلنا من السيارة واتجهنا إلى البوابة، وما إن تحدث أبي إلى فرد الأمن الجالس عليها حتى فتح لنا دفتيها مُرحبًا. كانت المباني ناصعة البياض محاطة بالخضرة من كل ناحية تنبعث رائحة عطر مميزة من الأركان تُشعرك بالهدوء والاسترخاء، اتجهنا إلى مبنى شُيد بعيدًا في جزء مهمل من مساحة المشفى، دخلناه وصعدنا إلى الدور الثالث المكون من أربع غرف وُضع أمام واحدة منها فرد أمن، توجه إليه أبي وحدثه بكلمات لم أسمعها ثم أشار لي بالدخول، مؤكدًا على أن مدة المقابلة خمس دقائق فقط.

ولجتُ الغرفة وشعور الانقباض لا ينفك عن قلبي ويسحقه ببطء، وجدتُ شخصًا جالسًا على السرير يرتدي ملابس بيضاء لا يحرك ساكنًا كتمثال صُب منذ زمن، سحبتُ مقعدًا وجلستُ أمامه أدقق النظر في ملامحه حتى أتأكد أن هذا الشخص هو هشام نفسه!

تدلى رأسه إلى جانبه الأيمن بحبل مشنقة وهمي عُلق به، يتوارى جزء منه تحت لاصق طبي سميك إثر جراحة أُجريت بعد أن حُلق شعره، ذراعاه مسترخيتين بجانبه باستسلام، ينظر إلى نقطة بالأرض لا يتحرك عنها بعين ساجية انطفأت لمعتها، قلتُ مقتربًا منه أكثر:

- هشام، هشام، هذا أنا أمجد.

لم يظهر لجملتي أي ردة فعل على ملامحه الفاقدة للحياة، أمسكت يده بين يدَي ضاغطًا عليها بحنو:

- سارة تفتقدك كثيرًا، سارة يا هشام.

ظل كما هو كجماد لا يختلف في شيء عن السرير الذي يجلس عليه سوى أنه يتنفس.

هززتُ كتفيه برفق وأنا ما زلتُ على ندائي له، فرفع عينيه بانكسار تجاهي ثم عاد بهما إلى موضعهما السابق، توقفتُ بعد أن يئستُ من محاولاتي المخفقة من الأساس، وضعتُ رأسي على رجليه وأخذتُ في البكاء، بكيتُ بحرقة كما لم أبكِ من قبل، العجز يُضرم نارًا بالصدر تبقى مشتعلة لا تهدأ أبدًا مهما بذلت من دمع لإخمادها.

دخل أبي مخبرًا إياي بانتهاء الزيارة، تفاجأ برؤية دموع لم يرها على وجهي إلا مرات قليلة بالصغر، أخذني من يدي واتجهنا عائدين إلى السيارة، لم تكن عيناي تبصران أي شيء سوى هشام وهيئته وما حدث له. جلستُ بالسيارة صامتًا أسند رأسي إلى زجاج النافذة

يائسًا من حياة هذه البلاد كارهًا لها، وقد قيد الاعتذار المتأخر لهشام رقبتي بدين لن ينفك عني طيلة حياتي. قال أبي مقاطعًا صمتي:

- لو أعلم أن هذا اللقاء سيؤثر عليك بهذا الشكل لما سعيت له.

قلتُ باستهزاء ساخرًا:

- سعيت؟

قال بنبرة غاضبة من استهزائي:

- لا أفهم سر غضبك مني! تطلب مني المستحيل ثم تلومني لعدم تنفيذه.

قلتُ بيأس:

- لست غاضبًا ولا ألوم، لم تعد لأي شيء أهمية.

قال متعجبًا:

- كل هذا من أجل هشام؟ من يراك وأنت تتحدث عنه من قبل لا يراك الآن.

قلتُ بغضب وقد أثار الوجع بداخلي:

- وإن فعل أي شيء تجاهي هل كنت تظنني سأشعر بالفرح لما حدث له مثلما يسعد الجميع هنا بتنفيذ العقوبة على أحد من (الخالدين)؟

تابعتُ وأنا أنظر حولي:

-بلد غبي ظالم لا تعيش به إلا آلات لا تتمتع بأي شعور سوى السادية.

- أنت تقول هذا لأنك لست مثلهم، لو كنت مثلهم لفرحت معهم بإزاحة شخص يشكل خطرًا عليك.

قلتُ محدقًا فيه وما زلتُ على غضبي:

- خطر؟ ما الذي فعله ويُشكل خطرًا على حيواتهم؟ سرق؟ قتل؟ ذنبه الوحيد أنه أحس بجرم ما فُعل بهذه البلاد وحمل هم قضية رد حق أهلها على عاتقه، ضحى بنفسه من أجل من لا يستحقون.

ضغط أبي مكابح السيارة بشدة فأحدثت صوتًا عاليًا. قال بتوجس بعد أن توقفت:

- أمجد، ما هذه الصيغة؟ منذ متى وأنت تتكلم عن القضايا؟ مع من تتحدث هذه الأيام؟ صارحني، هل لعب برأسك صديقك هذا قبل القبض عليه؟

قلتُ بثقة مؤكدًا حتى لا يشك بأي شيء:

- لا لم يتحدث بأي شيء ولا أتحدث مع أحد.

- حسنًا، سأصدقك لأني أثق بك.

ثم تابع محذرًا بلهجة حادة:

- ولكن إياك أن تتحدث بهذا الكلام ثانيةً ولا حتى تفكر به، رأيت بعينيك ما فُعل بصديقك، سأراعي أنك الآن تحت ضغط رؤيته وسأتغاضى عن حوارك، ولكن إن كررته مرة أخرى..

قاطعته:

- لا داعي للتهديدات يا أبي، كان مجرد حديث عابر من شجون أصابتني لرؤية هشام بهذا الشكل، ستأخذ وقتها وتذهب من حيث أتت، اطمئن لن أخون ثقتك وإن فكرت بأي شيء بالتأكيد فستكون أنت أول من أفكر في الذهاب إليه.

قال وهو يربتُ على كتفي:

- لا شك لدي في ذلك، طيلة عمري لم يكن لي أصدقاء ومنذ أن وُلدت صرت أنت صديقي الوحيد، وأرجو أن أكون كذلك بالنسبة إليك.

قلتُ بثقة:

- بالتأكيد.

انطلق بالسيارة بعد أن اطمأن لكلامي وطمأنته أكثر بفتح حوارات مختلفة لمواضيع عدة، متجنبًا الحديث عن هشام ومشاعري تجاه ما حدث له. أنزلني أمام البناية التي أقطن بها مودعًا إياه بابتسامة تحجب وراءها لظى تأجج بصدري قررتُ ألا يعلم عنه شيئًا، أبي حُصر بمتاهة لن يخرج منها أبدًا راضيًا بتيهه مقتنعًا أنه الحل

الأفضل والأسلم ويريد سحبي معه، ونجح بفعل ذلك في السنوات الفائتة، أما من بعد رؤية هشام فلا، حياتي أنا من سيتولى دفتها قاطعًا على نفسي عهد إكمال مسيرته والأخذ بثأره.

• • •

تبادلت ليلى والأستاذ سلامة نظرات الحيرة والتردد في ما بينهما بعدما أبلغتهما برغبتي، قال والدها حاسمًا الأمر:

– أعتذر. لن نستطيع قبول طلبك.

قلتُ بلهجة حادة:

– قلت هذه الجملة قبلًا في أمر يتعلق بي وبكما لذلك كان من حقك الرفض، أما الآن فالأمر متعلق بي وحدي، إما أن تقول سببًا مقنعًا لرفضك وإلا فلن أقبله.

صمت برهة ثم تابع بشيء من الحدة محذرًا:

– الأمر ليس سهلًا كما تتصور وبه مخاطرة كبيرة، تريث، ربما نتجت رغبتك هذه بعد رؤية هشام وستمضي الأيام وتنسى.

قلتُ مؤكدًا:

– توقعتُ هذا الأمر لذلك لم آتِ مباشرةً بعد زيارته وظللتُ ثلاثة أشهر بعدها أفكر، وأتيتُ الآن عازمًا على قراري ومتأكدًا منه تمام التأكد.

قال:

- هل تعلم عقوبة من ينشق عنا؟

سارعتْ ليلى قائلة:

- القتل.

قالتها بأحرف تتضمن تحذيرًا وتنبيهًا لأحسن تقدير ما أريد الولوج إليه.

قلتُ مصممًا:

- ما زلتُ مصرًا على قراري.

قال الأستاذ سلامة:

- لولا موقفك الذي فعلته سابقًا لما وافقتُ أبدًا.

نظر إلى ليلى باسمًا وهو يقول:

- أخبري الجميع أننا سنحتفل في اجتماع اليوم بانضمام عضو جديد إلينا، لعل هذا يخفف من حدة الحزن الجاثم على صدورنا جميعًا منذ رحيل هشام.

أومأت ليلى برأسها باسمة، مد يده تجاهي مصافحًا، قال وهو يضغط على يدي بود:

- أهلًا بك في (الخالدين).

• • •

(١٦)

(الخالدين)

«وتعد الخريطة المأمونية أهم أثر جغرافي من عصر الخليفة العباسي (المأمون)، الذي كون فريقًا من سبعين عالمًا لقياس محيط الأرض وإثبات كرويتها، ورسموا خريطة للعالم استخدموا فيها الألوان والأصباغ لتمثيل مختلف الظواهر، وهي أفضل مما قدمه بطليموس، كما صحح جغرافيو المأمون تمثيل بطليموس التقليدي للمحيط الهندي كبحر محاط باليابسة، وأوضحوا لأول مرة أنه كتلة كروية من الماء تحيط بالعالم المسكون، ما فتح الطريق في ما بعد لما عُرف بعصر الاكتشافات الجغرافية الأوروبية[١]».

انتهيتُ من نسخ هذه الفقرة بقرطاس ماثل أمامي من كتاب تاريخي معتق الأوراق، وضعتُ القلم جانبًا وفركتُ عينَي براحتَي يدَي، دخل العم إبراهيم ووضع كوب الشاي المنكه بالنعناع على الطاولة بجواري قائلًا:

- أنت هنا منذ الصباح يا أمجد، يكفي هذا، اذهب إلى بيتك وخذ قسطًا من الراحة.

---

(١) حقيقة.

قلتُ نافيًا:

- لا يا عم إبراهيم، بقي القليل من هذا الكتاب وأريد أن أنتهي منه الليلة، كما أنني مستمتع بقراءته.

ربت على كتفي وولى ذاهبًا، قمتُ أنفض قدمَي بحركات عشوائية بعد أن زحف التنميل إليهما، تناولتُ كوب الشاي وأنا أتمشى أمام رفوف خشبية تحمل كتبًا مختلفة الأحجام متلاصقة بعضها بجانب بعض في احتواء ودفء، لمستها بأناملي لعل قبسًا من نورها ينتقل لداخلي فينير عتمةً طال بقاؤها بصدري.

اتجهتُ إلى درج قادتني درجاته الخمس إلى ممر صغير وصلتُ من خلاله إلى قاعة متوسطة السعة، تتراص بداخلها مقاعد خشبية بسيطة متوازية أمام منصة ارتفعت قليلًا عن الأرض ليستطيع كل من يجلس بالقاعة رؤية من يصعد عليها،

ارتشفتُ رشفة من كوب الشاي المضبوط الذي لا يخرج إلا من بين يدَي العم إبراهيم، هذا الرجل يُمنح درجة الدكتوراه في صنع الشاي، جلستُ على أحد المقاعد ناظرًا إلى المنصة عائدًا بذاكرتي إلى أربعة أشهر مضتْ، عندما اعتليتها واقفًا بجانب الأستاذ سلامة أؤدي قسم الانضمام إلى (الخالدين) بوقار أمامه وأمام مئتي شخص آخر من بين رجال ونساء، لا أعلم هل الأستاذ سلامة هو من جمع شمل (الخالدين) لذلك أعطوه شارة قيادتهم، أم أن هناك أسبابًا أخرى أدتْ إلى تقلده لهذا المنصب. عرفني بعد ذلك إلى القسمين الرئيسيين اللذين يعمل بهما (الخالدين)، وهما القسم الخارجي

المعني بالبحث بحرص شديد عن الذين لم تُمحَ ذاكراتهم ودعوتهم للانضمام إلينا، والقسم الداخلي المنقسم إلى فرعين، فرع يهتم بتحضير مواضيع المناقشات التي تُدار يوم الجمعة من كل أسبوع، والفرع الآخر يهتم بالمكتبة وتصنيف كتبها وتفريغ هذه الكتب وإعادة كتابتها مرة أخرى، وإخفاء النسخ المكتوبة لمكان آخر تحسبًا أن تصل يد المجلس للمكتبة في يوم ما ويأخذها كما فعل مع بقية كتب بلادنا تمهيدًا لاستقبال العهد الجديد.

كانت المكتبة تحظى بمكانة كبيرة لدى (الخالدين)، تلك المكتبة التي وضعوا حجر أساسها بأيديهم محاولين إنقاذ ما يمكن إنقاذه من علم ورثته هذه البلاد، بالبحث عن كل كتاب لم تصل إليه يد المجلس والإتيان به إلى هنا واعتباره كنزًا ثمينًا تجب معاملته بعناية شديدة، واختبار مدى ولاء وإخلاص من يريد الالتحاق للعمل بها، وظهر هذا جليًا في مباركتهم العميقة لي بعد اجتيازي لاختبار القبول، وتوصيتهم أن أحسن العمل وأني باختياري للعمل بالمكتبة وُضعت على عاتقي مهمة عظيمة ورسالة شريفة سأُسأل عنها أمام الأجيال القادمة.

أتذكر أول يوم لاستلام مهمتي عندما وقفتُ أمام المكتبة أنتقل بعيني بين كتبها وقد نسيت شكل الكتب المعتاد منذ خمس سنوات بعد أن اختفت بيد المجلس، تعيد لبصري هيئة مكتبة أمي التي كانت تحفل بمختلف أنواع العلوم، تأتي بي وأنا طفل صغير وتجلسني بجانبها وتعطيني كتابًا نتصفحه معًا، تقرأ لي ما به وتنقل معلوماته بشكل مبسط لعقلي الصغير حينها. اعتبرتها الإرث الذي تركته

لي أهتم بنظافتها وأعكف على قراءة كتبها فأشم فيها رائحة أمي وأشعر بروحها بين صفحاتها. حاولتُ إقناع أبي بالاحتفاظ بها مع بداية العهد الجديد لكنه رفض تمامًا، خوفًا من اكتشاف المجلس لها وإلقاء القبض عليّ بتهمة إخفاء الكتب عنهم، وتركها لهم بسهولة ليأخذوها غير مبالٍ لمكانتها في قلبي. حرمتُ على نفسي من بعدها الكتب أو أن تلمس يدي أي كتاب آخر غير كتب أمي، حتى أتيتُ إلى هنا وشعرتُ أن أمي تناديني من خلال تلك المكتبة، وما كان عليّ فعل شيء سوى الاستجابة لندائها.

لا أخفي سر سعادتي الجمة عندما اكتشفتُ أن ليلى تعمل أيضًا بالمكتبة هي وثلاثة آخرون رجل وامرأتان، ليصبح فريق المكتبة بعد انضمامي خمسة. لم أشعر بالاندماج كثيرًا مع إياد المسؤول معي عن المكتبة رغم حسن معاملته ورعايته، كانت حدود العلاقة بيننا تنحصر في الحديث عن تقسيم المهام بيننا والإجابة عن أي سؤال لا أعرفه بحكم حداثتي بالمكان، على عكس العلاقة بين ليلى وصديقاتها التي كان باديًا عليها الانسجام والتناغم في ما بينهن في العمل والحديث.

صار صديقي المقرب بالمكان العم إبراهيم العجوز المفعم بالحياة، ببنية جسده الهزيلة ولحيته المشتعلة بالشيب وطاقية رأسه التي لا تفارقه حتى تظن أنها جزء منه.

بابتسامته الطيبة وروحه الودود استطاع أن يدك أسوار قلعة الصمت التي شيدتها حول نفسي منذ وفاة أمي، حكيتُ له عن معظم حياتي السابقة وبكيتُ كثيرًا بين يديه، حتى إنه وصفني ذات مرة أنني (رجل أسيف)، وعندما سألته عن معنى هذه الكلمة أخبرني أن

(الأسيف) تعني رقيق القلب كثير الدمع. لم يصفني أحد برقة القلب غيره، ربما رآني بعين غير التي يراني بها الجميع أو ربما هكذا صار قلبي بالفعل، مما لا شك فيه أنه منذ انضمامي إلى (الخالدين) تغير كثير من الأشياء بداخلي، روح المكان نفثت في روعي سمات الانتماء فارتبطتُ به أكثر من أي مكان آخر، الاجتماعات والمناقشات التي تقام للحديث عن التاريخ والفضاء والعلوم والأدب وكثير مما مُحي من ذاكرة بلادنا، الاحتفال بمناسبات عدة كخطبة اثنين منا أو انضمام عضو جديد إلينا، القواعد من النساء وإعدادهن لأطباق الحلوى للجميع التي لا تتوقف منذ أن تلج القاعة، تنتقل من يد إلى أخرى حتى تنتهي ونطالبهن بإعداد كمية أكبر في المرات القادمة، النكات والمواقف المضحكة التي يرويها الأربعينيون واختلاط دمعة الضحك بدمعة حزن واشتياق باستدعاء ذكريات حوت أصدقاء مقربين مُحيت ذاكراتهم، كل هذا خلق بقلبي مكانة خاصة لهؤلاء الأشخاص وإن كنتُ لا أعرف إلا أسماء قليلين منهم، وجعل هذا المكان هو المكان الوحيد الذي أشعر فيه بأنني ما زلتُ على قيد الحياة، ولكن إن أردتُ أن أحدد السبب الحقيقي وراء تغير شخصيتي هنا فسيكون هو الدين، الدين الذي لم يشغلني كثيرًا طيلة حياتي، فلم يكن أبي يهتم لأمره فتوقف نمو ما بدأته أمي وطُوي مع ما طُوي منذ بداية العهد الجديد. لم يكن أحد يجبر أحدًا هنا على شيء، ولكن تحفيز العم إبراهيم لي لحضور عظة الشيخ أحمد صاحب الوجه السمح قبل كل اجتماع كان له تأثير كبير على نفسي، شجعني العم إبراهيم على الصلاة كثيرًا فأطيعه قولًا لا فعلًا، إلى أن اكتشف حرجي من إبلاغه أنني نسيت كيفية أدائها وعلمها لي هي والضوء، وما زلتُ

أجاهد للحفاظ على أداء جميع الصلوات، أنجح يومًا وأفشل آخر ولكن أظل أحاول ولا أيأس، خصوصًا بعدما أخبرنا الشيخ أحمد في واحدة من عظاته أن الله يقبل التوبة عن عباده، وأنه يجب على الإنسان ألا يقنط، وأحاول تطبيق نصيحته.

التحق مؤخرًا فرع جديد بالقسم الخارجي يُدعى (التنقية)، كان محاطًا بكثير من السرية ولم يشغل بالي كثيرًا بماذا يهتم هذا الفرع، ولكن ما أثار استغرابي وجود صلاح في القلة القليلة الملتحقة به، صلاح الذي يبطن لي كرهًا لا أعلم سببه ولكنه لا تخفيه عيناه ونظراته. تتبعتُ تعامله مع ليلى واهتمامه الكبير بكل ما تقوله ونظراته لها، ما أكد لي تعلقه بها، ويبدو أنه علم بمحاولتي التقدم لخطبتها سابقًا مما يعكس شعوره، ولكن إن علم بهذا الأمر فبالتأكيد علم أيضًا أنهما رفضاني وأن هذا الموضوع انتهى، فلماذا يستمر بكرهي؟ ربما علم شيئًا آخر لا أعلمه يكمن عند ليلى. نفضتُ عن ذهني سريعًا هذه التخيلات، فمعاملتها الجافة لي منذ انضمامي للعمل بالمكتبة لا تعكس أي شيء مما أظنه، أتذكر عندما اتصلت بها أُغلفُ اشتياقي إلى سماع صوتها بشكل خاص بعيدًا عن الناس والاجتماعات بحجة بلهاء استدعيتها سريعًا، أحكمتُ ربط قدمي بمرساة سفينة وألقتْ بهما في بحر لجي بسؤالها في بداية المكالمة حينها:

- من معي؟

ماء أجاج جرى بحلقي عندما أدركتُ من استفهامها أنها مسحت معلومات نظامي بعدما سجلته مسبقًا مع بدء انتظامي بالجلسات، مسحته هكذا ببساطة غير مبالية؟ لا أعلم لماذا رفعتُ سقف توقعاتي

قبل أن أحدثها؟ ماذا تخيلت؟ أنها ستخبرني بانتظارها لاتصالي هذا منذ زمن وتحقق المراد أخيرًا؟ أم كنتُ أترقبُ أي إشارة تعطيني الضوء الأخضر لمعاودة محاولتي؟ أي إشارة تثبت لي القبول من ناحيتها فأقدم، ودمر سؤالها هذا كل شيء وأحبطني. وقتها حاولت عدم إظهار ضيقي متجاوزًا اعتذارها عن سوء صوتها لإصابتها بنزلة برد بعد التعريف بنفسي، سائلًا إياها مباشرةً عن حجتي بشكل أضفى عليها الجدية، فأجابتني وأنهيتُ الاتصال مباشرةً. أغلقتُ الخط وأنا أصب اللعنات على نفسي وعلى قلبي الضعيف هذا أزجره لينتبه ويحافظ على ما تبقى له من كرامة ويحفظ ماء وجهه، وكان أول ما فعلته بعدها هو مبادلتها معاملتها الجافة بمثلها واجتنابها تمامًا.

- أمجد، أمجد.

انتشلني العم إبراهيم من بحر ذكرياتي بعد أن تعمقت به وبرُد كوب الشاي بيدي، نظرتُ إليه فتابع:

- سأغلق المحل بعد نصف ساعة ويجب أن تنصرف الآن حتى لا يلاحظ أحد.

ذهبتُ إلى المطبخ وغسلت الكوب ووضعته بمكانه، صعدتُ درجًا طويلًا أدى بي إلى باب مستطيل صغير الحجم نوعًا ما، فتحته وولجتُ إلى غرفة لتبديل الملابس لها باب مبطن بقماشة قرمزية اللون، التقطتُ قطعة ملابس عُلقت على الحائط وخرجتُ لعم إبراهيم قائلًا:

- هذه القطعة غير مناسبة لي.

اتجهتُ إلى رف تدلى منه كثير من السراويل نظرتُ بينها بحثًا، هززتُ رأسي ضيقًا لعدم وجود شيء يناسبني، ألقيت التحية ثم خرجت.

كانت هذه فكرة الأستاذ سلامة أن نتخذ مقرًا في وسط البلدة لن يخطر ببال المجلس أبدًا بعد أن اكتشف مقرهم على أطراف المدينة النائية، وتبرع العم إبراهيم بمحل ملابسه لنحفر تحته مقرنا الجديد. نقرتُ على أيقونة الاتصال بالنظام بهاتفي فأتى اتصال أبي سريعًا، وما إن رددت حتى نفث غضبه بي سائلًا:

- أين كنت؟

- بالشركة.

- لا تكذب. اتصلتُ بالشركة وقالوا إنك غير موجود منذ الصباح.

قلتُ مستنكرًا:

- أبي هل تتعقبني؟

أخفض سؤالي من وتيرة غضبه وأجاب:

- بالطبع لا، ولكن قلقتُ عليك وكذبك الآن أقلقني أكثر.

قلتُ مسرعًا:

- نعم يا أبي كنت أكذب، لأنني لو أخبرتك أنني كنت عند صديقي وأغلقتُ نظامي لرغبتي في بعض الهدوء ستسأل من هو وستذهب سريعًا لجمع المعلومات عنه، ثم تأتي لتجبرني على عدم مصاحبته.

زفرتُ قائلًا:

- سئمت بحق هذه الحياة بهذا الشكل.

سكن غضبه تمامًا وقال بتودد:

- حسنًا لا تغضب، فقط شعرتُ بالقلق، إن كان لديك وقت ما رأيك أن نتعشى معًا؟

- أنا متعب اليوم للغاية، دعنا نجتمع غدًا على الإفطار.

- لدي موعد بالصباح.

- حسنًا سنختار موعدًا يناسب كلينا في ما بعد، تصبح على خير.

- اعتنِ بنفسك جيدًا، تصبح على خير.

أغلقتُ الخط وأنا سعيد بفوزي عليه بهذه الجولة. صرتُ أتقن هذا الأمر مؤخرًا رغمًا عني وإلا كُشف أمري، أحاول أن أعامل أبي بأسلوب أكثر تهذيبًا بعدما أخبرتُ العم إبراهيم بشكل العلاقة المتوتر بيننا، ونصحني بتعديل سلوكي وحسن بره، ولكني أفشل كثيرًا بهذا للأسف. نظرتُ إلى السماء ونفسي تلح بسؤال عكر صفو ليلتي: ماذا

لو علم أبي ما أفعله الآن؟ بدا سؤالي كنقطة سوداء برزت في السماء وبدأت بالاتساع فكونتْ ثقبًا أسود ابتلع لمعة النجوم وبهاء القمر.

• • •

انقضى اجتماعنا القصير اليوم وتفرقنا بعده، منا من عاد إلى حياته ومنا من جلس لإكمال عمل لم ينتهِ منه بعد، كان لدى فرع التنقية اجتماع نوه له الأستاذ سلامة حتى لا يذهب المسؤولون عنه، مر بي على كرسيه المتحرك وهو يلقي السلام بترحاب جم ويثني على عملي ومجهودي الذي يصله باستمرار من خلال العم إبراهيم، وعبَّر عن أنني إضافة قيمة جدًا للخالدين، فعدد الكتب التي نُسخت مقارنةً بمدة التحاقي بهم يعبِّر عن نتيجة رائعة. شكرته على كلامه الطيب وحسن تشجيعه، استأذنني وهم ذاهبًا لغرفة الاجتماعات وتبعه صلاح الذي كان يتابع حديثنا ويرمقني بنظرات تمتلئ بالإحن والدمنة لم أعرها اهتمامًا.

توجهتُ إلى المكتبة وجلستُ إلى طاولتي بعد أن تناولتُ كتابًا كنتُ قد بدأت بنسخه في المرات السابقة، كانت ليلى وصديقتها جالستين بطاولة تبعد عني بطاولتين فارغتين، نادرًا ما نكون هكذا، دومًا نجتمع نحن الخمسة، قامتا معًا واتجهتا إلى الأعلى ربما لإعداد شيء تتناولانه في أثناء عملية نسخهما. برزت من بين الكتب التي وُزعت على طاولتهما مفكرة ليلى الزرقاء المزينة بزهور وردية اللون، هذه مفكرتها الخاصة التي لا تنفك عنها، كنت أشاهدها في أثناء الجلسات تدون كثيرًا من الأشياء بها وقرأت منها أيضًا خاطرة سن

الثلاثين، أتت نظرات صلاح غير المبررة أمامي فجأة، شعرتُ كأن جميع عوامل الفضول تكاتفت لحثي للقيام وتصفحها سريعًا قبل مجيئها متجاوزًا كل حدود الخصوصية، ولكن منذ متى وأنا أتحلى بالأدب؟ لم أعرفه إلا منذ أربعة أشهر عندما جئت إلى هنا، ولن يحدث شيء إن أضفتُ بعض الدقائق الزائدة إلى سنواتي السبع والعشرين الماضية. تحركتُ سريعًا والاضطراب يزيد من سرعة أنفاسي ونبضاتي خوفًا من مواجهة حقيقة الأمر وأنني لا أعني لها شيئًا على الإطلاق، أمني نفسي بقراءة أي حرف متعلق بي فأطمئن أن ما أشعر به صحيح على الرغم من كل الأفعال الدالة على غير ذلك.

وصلتُ إلى الطاولة وأمسكتُ المفكرة وتصفحتها، بحثت عيني سريعًا بين السطور علها تجد ضالتها، خيبة كخيبة الأمل الأولى بسؤالها «من معي» في مكالمتي لها اجتاحتني، لا شيء سوى معلومات عن الانتحار وخاطرة سن الثلاثين، لم تكتب أي كلمة عني، أغلقتها وأنا أمرر أوراقها سريعًا بإبهامي وألقيتها غاضبًا.

هممتُ أن أذهب ولكن شعرت أن عيني لمحت شيئًا ما، أمسكتها ثانيةً وفتحتها هذه المرة من الوراء وقلبتها، كانت توجد آثار كلمات كُتبت ومُحيت بعدم إتقان مكَّنني من قراءتها:

«إليك/...

لقد كنتُ كاذبة عندما ادعيتُ عدم معرفة صاحب الصوت وأنا التي لم تنسَه لحظة، وأن البحة في صوتي إثر نزلة برد وهي لم تكن سوى ارتجافة عندما ذكرت اسمك، ونبضات قلبي المتسارعة أثبتت

أنك موجود بداخلي ولم تتركني يومًا، وأن قوة نبراتك هزمتني، وعدم سؤالك عن أحوالي كسرني، وأنني في كل مرة توهمتُ أني نسيتك كنت أتذكرك أكثر، وأنك داء لا علاج منه سوى رحمة من الله تجود على قلبي بنسيانك».

قرأتُ الخاطرة عدة مرات، وفي كل مرة يُسكب على قلبي من أنهار السعادة، جاءت ليلى وصديقتها وتوقفتا عندما فُوجئتا بوقوفي أمام طاولتهما، تغير وجه ليلى برؤية مفكرتها بين يدَي.

نظرتُ إليها باسمًا ألوح بالمفكرة قائلًا بعتاب المحبين:

- إن كان الأمر هكذا فلمَ الجفاء؟

ابتلعت ريقها وقد فهمت ما أرمي إليه، استأذنتْ صديقتها في تركنا لدقائق، زوت ما بين حاجبيها غضبًا، اقتربت وجذبت المفكرة بقوة قائلة:

- كيف سمحت لنفسك بفعل هذا؟

- إن كان الأمر هكذا فلمَ الجفاء؟

قالت بارتباك:

- أمر وجفاء، عمَّ تتحدث؟

تناولتُ المفكرة من بين يديها وأتيت بالصفحة أمامها قائلًا:

- عن هذه.

زاد ارتباكها وقالت:

- كتبتُ هذه الخاطرة منذ زمن ومحوتها، وهي غير متعلقة بك.

نهيتها بلطف:

- أخبرتكِ سابقًا أنكِ تكذبين بشكل يثير الغثيان.

تنهدت وهي تدور بعينيها في المكان هربًا، قلتُ بهدوء:

- ليلى. على الرغم من رفضك لي سابقًا أنت ووالدك وعدم علمي للسبب، فإنني سأتقدم إلى أبيكِ ثانيةً بعد ثلاثة أيام، ولا أريد سماع رد منكِ الآن ولن آتي إلى هنا خلالها حتى لا أؤثر على قرارك، كل ما أطلبه منكِ تطبيق نصيحتك السابقة لي أن تقرأي هذه الكلمات بقلبك لا بعينيكِ، وأيًا كان قراركِ بعدها سأكون مرحبًا به.

قلتُها ووضعتُ المفكرة بجانبها على الطاولة ورحلت. قد يبدو ظاهر كلامي لها اختياريًا ولكنني حسمت قراري بعد أن تأكدتُ أنها تكن لي شيئًا بداخلها، حتى إن رفضتني هذه المرة ومرات أخرى صارت ليلى حلمي وسأقاتل لتحقيقه.

• • •

(١٧)

(وأما قبل)

«وأما قبل،

فقد رأيت عندكِ الفجر وأخذت منه أنهارًا أحمله في روحي لا يظلم أبدًا،

وخالطتُ عندك الربيع وانتزعتُ منه حديقة خالدة النضرة في نفسي لا تذبل أبدًا،

وجالستُ عندكِ الشباب وترك في قلبي من لحظاته ما لا يهرم أبدًا،

واجتمعتُ عندك بالحب وكشف لي عن مخلوقات الكون الشعري الذي تملؤه ذاتي لا ينقص أبدًا،

ورأيتكِ يا فجري وربيعي وشبابي وحبي فلن أنساكِ أبدًا، وأما قبل».

أغلقتُ كتاب (أوراق الورد) لمصطفى صادق الرافعي بعد أن تلوتُ ما تيسر منه على مسامعها، نظرتْ إلي بوجه يتألق بابتسامة خجول ووجنتين توردتا حياءً، قالت سائلةً بلطف:

- من أين أتيت بهذا الكتاب؟ لا يوجد بالمكتبة.

أجبتُ وأنا أتحسس غلافه ذا اللون الأحمر القاني وعنوانه المكتوب بخط الثلث:

- هذا ما استطعتُ أن أحتفظ به من مكتبة أمي، أخذته دون علم أبي وأخفيته تمامًا، كنت أنوي قراءته على الفتاة التي سيحظى قلبي بحبها، وها أنا أفعل.

بعثتْ إلي بنظرة امتنان ممزوجة بحب لم أرَ مثله إلا في عينيها، نظرتْ إلى ساعة هاتفها قائلة:

- يا إلهي تأخرنا اليوم، يجب أن نذهب الآن.

زفرتُ بضيق قائلًا:

- أي عدل هذا الذي يحكم بعدم مبيتنا معًا ولو ليلة واحدة ونحن زوجان؟

ابتسمتْ بغنج:

- وماذا أفعل وقد رُزقتُ بزوج متعجل لم يصبر حتى يأتي موعدنا كما يحدده المجلس؟

- وضعنا الآن أهون عندي من الانتظار.

قالتْ متعجبة:

- لا أعلم إلى الآن كيف نجحت بإقناع أبي بهذه الفكرة.

- لأن والدك شخص عاقل واقتنع بها لمنطقيتها.

بحزن تابعت:

- تخيل أن أهل هذه البلاد فقدوا إراداتهم إلى هذا الحد الذي لا يمكِّنهم من تحديد موعد زفافهم بأنفسهم، نحن بحق نعيش مأساة مكتملة الأركان.

أومأتُ لها برأسي موافقًا كلامها فأكملت:

- كثيرًا ما أشعر بالحزن على سارة، أحيانًا أحس في نظرتها إلينا بالحسرة لأنها لم تفكر هي وهشام في مثل هذه الخطوة وظلا بانتظار موعد المجلس، الذي ما إن حان حتى أُخذ هشام منها.

- كل ما أتمناه لها أن يأتي شخص ويعوضها عن كل ما عاشته.

قالتْ وهي تتناول حقيبتها من على الطاولة:

- حاول كثيرون التقدم إليها وحدثوا أبي بالموضوع وترفض تمامًا.

تأبطتْ ذراعي بحنو وهي تدور بعينيها في أرجاء البيت قائلة:

- هل تعلم، سأشتاق إلى هذا البيت كثيرًا عندما يختار المجلس بيتًا جديدًا لنا، على الرغم من قِدمه فإنه عزيز على قلبي.

قلتُ وأنا أربتُ على يدها:

- لا تقلقي، نستطيع المجيء إلى هنا وقتما نشاء، كما أخبرتك سابقًا فهذا البيت ملك لأمي ورثته عنها ورأيته مكانًا مناسبًا لنا بعد الزواج، خصوصًا أنه لحسن الحظ يقع بمنطقة لم تطلها يد المجلس بأنظمته أو كاميراته اللعينة.

توجهنا خارجًا ودلفنا إلى السيارة التي حلت مكان دراجتي البخارية بعد زواجي من ليلى، انطلقنا تشملنا أحاديث السمر تحت عباءتها حتى وصلنا إلى بيتها، قالت تودعني:

- اعتنِ بنفسك جيدًا.

- نامي جيدًا ولا تفكري بأي شيء غيري.

أطاعتْ ضاحكة:

-كما ترغب أيها الأناني.

- أحبكِ.

صُبغ وجهها بحمرة الخجل وهي تقول بصوت منخفض:

- وأنا أيضًا.

- وأنتِ أيضًا ماذا؟

- وأنا أيضًا أحبك.

- نعم هذه هي الإجابة الصحيحة، لا تقوليها أبدًا مبتورة، كلمة أحبك تستحق تأكيدًا أكثر من: وأنا أيضًا فقط.

أومأت برأسها موافقة ثم ترجلتْ عن السيارة متجهة صوب البيت، اختفى ظلها وراء بابه فانطلقتُ بسيارتي عائدًا بذاكرتي إلى عام وشهرين مضوا عندما أتيتُ إلى هنا بعد ثلاثة أيام من محادثتي مع ليلى ومحاولة إقناعها بإعادة التفكير في رفضها، حاملًا باقة من النعناع علها تستميل قلبها للموافقة، استقبلني الأستاذ سلامة بترحاب طمأنني ولكن تذكرتُ ترحابه المرة السابقة ورفضي في نهاية الأمر فقلقتُ ثانيةً، شرع في الحديث مباشرةً قائلًا:

- «حدثتني ليلى عن سبب مجيئك اليوم». قطع كلامه مناديًا لها، ثم تابع بعد أن جاءت وجلستْ على استحياء:

- لن أتجمل وأقول إنني أخبرتها أن هذا الأمر عائد إليها، بل إنني رفضتُه لكنها جلستْ معي جلسة طويلة استطاعت من خلالها أن تنقل وجهة نظرها لي وإقناعي بموافقتها.

تنفستُ الصعداء بعد كلامه وارتسمتْ على وجهي بسمة سعادة أصابت وجه ليلى بالعدوى فابتسمتْ أيضًا. أكمل حديثه أن لليلى بعض المطالب يجب أن تخبرني بها أولًا، بدأت ليلى بعده الكلام بجدية حيية آخذة في سرد مطالبها الثلاثة، وهي أن أقلع عن التدخين، أن أحاول إيجاد عمل آخر، ألا يُحتفَل بخطبتنا مراعاةً لشعور سارة، وسيكون الأمر مجرد إخبار للجميع وللمجلس لإدراج اسمينا بين المخطوبين رسميًا. لم تقع مطالبها في دائرة المستحيل عندي، فأمر إعلان خطبتنا أتفهمه تمامًا وغير قابل للنقاش، وأمر عملي كنتُ أفكر به في الآونة الأخيرة بعد اكتشافي أنني ما سلكته إلا لإثبات النجاح لذاتي، وتشبع هذا الشعور عندي منذ انضمامي إلى (الخالدين)، كان

أصعبهم ترك التدخين، لذلك صارحتها بهذا وأوضحتُ أنني بحاجة إلى مساندتها كي أنجح في هذا الأمر، ووعدتني بعدم الخذلان. رحلتُ من بيتهما وأنا أشعر بأن حجم السعادة بداخلي قادر على حملي والتحليق بي إلى السحب أشكل منها خاتمًا أزينه بنجمة ليليق بيد ليلى. لم يعكر صفو حالتي سوى التفكير في كلمات الأستاذ سلامة المتعلقة برفضه لولا إقناع ليلى له، لا أفهم هذا الرجل، يخبرني الجميع بحديثه الطيب عني واستبشاره بانضمامي إلى (الخالدين)، ومع ذلك يقابل عرضي بالرفض غير موضح السبب. حاولتُ ألا تشغل بالي علته الخفية، فقد تحقق ما أطمح إليه أخيرًا، وذكره لنقطة إقناع ليلى له أسعدتني بشكل خاص. ذهبتُ على وعد بتحديد موعد آخر والإتيان بأبي للتعرف إليهما بعد أن صارت شروط واتفاقات الزواج عادات بائدة منذ أن أصبح بيد المجلس تحديد كافة هذه الأشياء. فرح أبي عندما أبلغته وعانقني ولمعتْ عيناه بعبرة، تمنى وجود أمي بهذه اللحظة. سألني عن اسمها واسم والدها فأخبرته بثقة تبرهن على حسن اختياري وتخفي وراءها قلقًا استبد بي خشية أن يكتشف عنهما أي شيء. غاب يومين وظهر بعدهما بوجه غير الذي استقبل الخبر به، أبلغني أنها غير مناسبة، فهي أكبر مني بثلاث سنوات كما أن صورتها على نظامها الخاص تدل على قلة جمالها ولبنى تفوقها بمراحل في هذه النقطة. أوضحتُ له أن أسباب اختياري لليلى بعيدة عن كل هذا، مؤكدًا له أنه سيغير وجهة نظره عندما يتعامل معها، لكنه بدأ باختلاق أسباب أخرى ذكرتني بنهجه المعتاد المتبع معي في أي أمر لا يقتنع به. تحملتُ ثقل كلامه عن طموحه في العروس التي تليق بالزواج من ابنه وتغاضيتُ عن تسفيهه لليلى في محاولة مني

للظفر بموعد لمقابلة الأستاذ سلامة ولو لمرة واحدة فقط، لكن أبي بدأ بالمراوغة التي أدت في النهاية للحظة التصادم بيننا وإعلان نيته الصريحة لرفضه للأمر، ما أدى إلى تفريغ شحنة احتمالي المغلفة بغضبي دفعة واحدة بإخباره أن قرار الارتباط متعلق بي وحدي وليس من حقه التحكم في قراراتي، وأنني أخبرته منذ البداية للإعلام فقط وليس للتشاور. سكن الحزن بعينيه بعد جملتي معلنًا عن قراره النهائي بعدم التدخل في أي أمر متعلق بارتباطي بليلى. لامني العم إبراهيم على ما قلته له وحفزني على الاعتذار إليه. يوصيني بالصبر وترك الأمر للأيام القادرة بمرورها على تليين قلبه وتقبل ليلى مستقبلًا. عملتُ بنصيحته واعتذرتُ لأبي وتحسنت العلاقة بيننا، لكنه بقي على موقفه تجاه ليلى ما أكد لى أن هذا العناد لم أرثه عن أمي. أصبحتُ في مأزق أمام الأستاذ سلامة، خصوصًا بعد مرور أسبوعين دون تحديد موعد، لأذهب إليه في نهاية الأمر وأخبره بكل شيء واعدًا إياه بتغيير موقف أبي، فأنا أعرفه جيدًا وأعرف طيبة قلبه التي ستجعله يتقبل الأمر. تفهم والدها موقفي وقبلني بشفاعة انضمامي إلى (الخالدين) كأب روحي لنا جميعًا مرحبًا بي كفرد جديد في العائلة. أعلنا خطبتنا في اجتماع (الخالدين) التالي وفرح الجميع بهذا الخبر وأغرقونا بمباركاتهم ودعواتهم لنا. كانت عينا سارة تحملان لنا فرحًا ممزوجًا بحزن لم يغادرهما منذ رحيل هشام، عكس عينَي صلاح اللتين كانتا تفيضان بحقد مشتعل عرفتُ حقيقة سببه من ليلى بعد ذلك وكان كما توقعته تمامًا، فصلاح يحب ليلى منذ زمن وتقدم لخطبتها عدة مرات انتهتْ جميعها بالرفض، حتى بدأتُ بالظهور في حياتها وشعر من حديثها عني ذات مرة أنها تكن

لِي شيئًا ما حمله على كرهي، ولا يتهاون في إظهار ذلك لي بقوة متى أتيحت له فرصة. مضتِ ثمانية أشهر عاملتني فيها ليلى كطفل صغير حديث عهد بالدنيا تصنعني على عينها، تُهذب أخلاقي وتحسن من شمائلي، تصبر على عنادي وتجمل تشوه سبعة عشر عامًا بعد رحيل أمي، تصمدُ أمام نوبات غضبي وتتقبل بابتسامة اعتذاري، تسكب الأمان في صدري بجملتها كل شيء سيكون بخير، وتزرع مكان كل جرح بقلبي زهرة ياسمين نقية. أستطيع أن ألخص ميزة ليلى الأساسية في جملة واحدة: أنها فهمتني كما لم أفهم أنا نفسي وأحسنت التعامل معي، ما أدى إلى أمجد آخر لم أتخيل أن أصيره يومًا. مدى سعادتها كلما أخبرتها بزيادة عدد الأيام الخالية من التدخين حفزني على تركه يومًا بعد يوم، حتى نجحتُ بمساعدتها في الإقلاع عن هذا السم وحرق ما تبقى منه في شقتي. كلما راودني طيف العودة أتخيل الحزن الذي سيصيبها إن علمتِ فأصرفه سريعًا. لاحظ أبي تغيري بوضوح لكنه أرجع هذا إلى إرادتي القوية في تغيير نفسي منكرًا فضل ليلى. كان يتعامل مع وجودها كنكرة لا يذكر اسمها ويتجنب الحديث عنها مهما حاولت إقحام سيرتها في حديثنا، أخبرته بتقديم طلب إلى المجلس يفيد برغبتنا في الزواج وإدراج اسمينا لتحديد موعد، كنتُ أطلب بشكل غير مباشر معاونة صديقه بالمجلس ليساهم في الإسراع بتحديد موعدنا، لكن اكفهرار وجهه أنبأني برفض الطلب.

مضت أربعة أشهر أتممنا بنهايتها عامًا على خطبتنا لم نتلقَ خلاله أي رد من المجلس. ضقتُ ذرعًا بالانتظار ولمعتِ برأسي فكرة أخذت في السيطرة على ذهني مع مرور الوقت، حتى عزمتُ على التحدث مع الأستاذ سلامة. انتظرته ذات يوم بعد أن انتهينا من

اجتماعنا الأسبوعي وتحينتُ فرصة جلوسه مع صحبته المقربة، رغبتُ في الحديث أمامهم لعلمي بتحلي بعضهم بالحكمة، بدأتُ حديثي بعد إلقاء التحية بسؤالي بجدية:

- ألسنا على الحق؟

نظر بعضهم إلى بعض باستغراب من سؤالي، وأجاب الأستاذ سلامة:

- بلى.

- إذًا لماذا نضع أنفسنا بقبضته ونحن لا نؤمن به؟

سأل متعجبًا:

- ماذا تقصد؟

- أقصد المجلس، لماذا ننتظره ليحدد لنا موعد الزفاف إن كنا نكفر بوجوده؟

أجابني صلاح بضيق:

- لأن هذا هو النظام المتبع بالبلاد.

- وماذا نفعل نحن هنا؟ ألم نجتمع للتخطيط للتحرر من هذا الاستعباد؟

تجاهلتُ نظرات صلاح الغاضبة بعد جملتي واتجهتُ بالحديث إلى الأستاذ سلامة أصارحه بطلبي مباشرةً:

- أنا لن أدع المجلس يتحكم بأبسط حقوقي ويفرض سطوته على قرار زواجنا، لذلك أرجو يا عمي أن توافق على رغبتي في الزواج من ليلى أمام جميع الخالدين، أنتم من يهمنا أمركم وليس المجلس.

تقوس حاجباه من غرابة اقتراحي وشرد مفكرًا، ما دفعني لاستغلال شروده الذي يعني تقبله للفكرة ولو بنسبة واحد بالمئة، وهي نسبة كافية لي لأخترقه من خلالها مستفيضًا في شرح طلبي معللًا أسباب حجتي، يدعمني البعض منهم بالموافقة على ما أقول والبقية تشاهد في صمت، ما عدا صلاح الذي هاجمني بشدة فتجاهلته عن عمد، فليس من الذكاء فتح جبهته الآن. انتهى النقاش بطلب الأستاذ سلامة إعطاءه مهلة للتفكير جيدًا بالأمر وسيخبرنا بقراره. شننتُ حملة غير معلنة على أصدقائه المقربين لمحاولة إقناعه بعد إظهار دعمهم لمبدأي، وكان أكثرهم تأثيرًا العم إبراهيم الذي نجح بالعزف على الوتر المحبب لقلب الأستاذ سلامة وإقناعه بأن هذه الخطوة ستُسجل في تاريخ (الخالدين) كأول خطوات التحرر من نير عبودية المجلس، ليستجيب في نهاية الأمر بكثير من الإقناع وقليل من الضغط، وحُدد موعد زواجنا بعد شهر. كانت ليلى تتحداني بقبول والدها لفكرتي وأصيبتِ بالذهول عندما أخبرتها بفوزي، تلاشت من أمامي سريعًا بخجل بعد أن تجسد حماس فرحتي بكلمة أخيرًا. أخبرني الجميع أن الوقت يمضي والشهر يمر كلمح البصر ولم أَرَه أنا كذلك، كان بالنسبة إلي كسنة جدباء طويلة أرجو رحيلها سريعًا كي تغاث نفسي وتعصر من رحيق السعادة. لم أرَ ليلى خلاله إلا مرة أو مرتين لدقائق، كانت تحتجب عني تطبيقًا للنصيحة الشهيرة

بالامتناع عني لتتدلل بحرماني من رؤيتها خوفًا من أن أعتادها، وما تدري أن بوجودها تبتسم الحياة ويختلف الهواء، تحتويني السماء وتصافحني قطرات المطر، تعقد أحزاني معاهدة صلح مؤقتة حتى تغادر فتشن حروبها ثانيةً مخلفةً وحشةً بقلبي بعد أن ذاق حلاوة الأنس بصحبتها.

جاء اليوم الموعود وتعاون الجميع بتزيين القاعة فرحين بلذة الانتصار على المجلس ولو بخطوة بسيطة كهذه، مانحين إيانا شرف السبق. ارتديتُ بذلة أهداها لي أبي كنت أحتفظ بها لمثل هذا اليوم. على الرغم من مجاورة العم إبراهيم لي منذ الصباح وإحساسي بصدق فرحته، فإن أكثر من كنت أحتاج إلى وجوده بجانبي في هذا اليوم هو أبي، لم يستوعب عقلي أن أمر بلحظة مثل تلك بحياتي دون وجوده ودون علمه، أخرجتُ قنينة زجاجية صغيرة تحمل زيت اللافندر وسكبت بعض قطراته أدهن بها يدَي، ليس رغبةً في الاسترخاء أكثر من مرافقة رائحة أمي أستحضر وجودها بجانبي من خلاله. خرجتُ إلى القاعة وسط ترحيب الجميع وثنائهم على أناقة مظهري، يلقون دعابات الزواج المعتادة التي كنت ألقي مثلها من قبل وأهاجمهم عليها الآن متذكرًا هجوم هشام عندما كنت أسخر من شدة حبه لسارة. يا ليته هنا، كان أكثر من سيسعد بي هذا اليوم. مرت عشر دقائق فُتح بعدها باب غرفة الاجتماعات المطل على القاعة، وبرز الأستاذ سلامة على مقعده مبتسمًا مرتديًا حلة أنيقة، وأطلتْ ليلى من ورائه واستقرت بجانبه تمشي بوقار فرض صمته على الجميع، مرتدية فستانًا أبيض بسيطًا جعلها ملائكية بهية تحمل باقة مرتبة من ورود التوليب، كانت ليلى أجمل ما رأيته بحياتي حينها. تقدما

ببطء حتى وصلا إلى المنصة، ارتكز الأستاذ سلامة بجانبي وجلست ليلى بجواره، بدأ الشيخ أحمد الترحيب بجميع (الخالدين) الناقص عددهم واحدًا بعدم حضور صلاح الذي فعل خيرًا بغيابه عن زفافنا. ألقى كلمة قصيرة عن أهمية الزواج في مجتمعنا ومدى تأثيره، وأن اليوم سيتزوج اثنان عزيزان على قلبه وعلى قلوب جميع الخالدين. شرع بعد ذلك في عقد قراننا بترديد صيغته المعهودة بيني وبين أبيها لنُعلَن بعد ذلك كزوجين أمام (الخالدين). اندفع الرجال ليحملوني ويقذفوا بي للأعلى تعبيرًا عن فرحتهم، والتفت الفتيات حول ليلى يقبلنها ويهنئنها. كان يومًا جميلًا ورائعًا على الرغم من بساطته وافتقاده إلى تقاليد الأفراح المعروفة.

صرنا زوجين منذ شهرين دخل فيهما قلبي واحة السعادة وأبى ألا يرحل عنها، كل ما يعكر صفونا هو تأخر المجلس في تحديد موعدنا، شئنا أم أبينا سنبقى خاضعين لسلطته المعلنة مهما حاولنا إنكار ذلك. أحيانًا يتسرب برد اليأس إلى مدفأة صبري عندما أفكر في قوة المجلس ويورد إلى خاطري استحالة هزيمته كما نسعى، ولكن أسرع بإلقاء حطب شعوري بأمل انتهاء المجلس قريبًا ليبقى متوهجًا، فدون التحلي بالصبر لن نستطيع الاستمرار وسينتهي كل شيء.

• • •

نبهني إياد بشكل لطيف إلى تأخري في مهام نسخ الكتب من خلال مداعبته لي بأن شهر العسل امتد عندى لشهرين، فهمتُ ما يرمي إليه وأخبرتُ ليلى بعدم ذهابي معها اليوم حتى أستطيع قطع شوط بالنسخ يغفر لي تقصيري. جلستُ لا أدرك كم مر من الوقت لكن ألم

ظهري أخبرني أنه ليس بقليل، استأذنني إياد للذهاب بعد أن أنجز عمله لليوم مودعًا إياي وبقيتُ وحيدًا بالمكتبة، سمعته يتبادل التحية مع أحدهم على الباب وعرفت أنه صلاح بظهوره متجهًا ناحيتي في حادثة هي الأولى من نوعها، منذ أن التحقتُ بالمكتبة لم أرَ صلاح ولو لمرة واحدة هنا، ألقى التحية فرددتها عليه دون أن أرفع عيني عن الكتاب الذي أنسخه، قال بنبرة ضاحكة تحمل سخرية:

- يبدو أن عريسنا انشغل تمامًا ولم يعد يهتم بعمله.

لم يتلقَ إجابة مني وأكملتُ ما أقوم به، انخفض تجاهي حتى تلاقت أعيننا وقال بصوت يحمل فحيح الخبث:

- أظن أنك منشغل تمامًا للدرجة التي تمنعك من رؤية كثير من الأمور التي تجري هنا.

أكمل وعيناه تحملان لمعة المكر:

- أكثر ما أتعجب منه هو الأستاذ سلامة، زوَّجك ابنته أعز ما يملك لثقته بك، فلماذا لم يضع ثقته بك حتى الآن لتنضم إلينا بفرع التنقية؟

أجبتُ بصرامة:

- أحب المكتبة والعمل بها، وإن عُرض عليّ العمل بفرع التنقية فلن أوافق.

قهقه ضاحكًا بصوت عالٍ ثم أكمل بنبرة خبيثة:

- اطمئن، لن يعرض عليك العمل به أبدًا.

قال جملته وولى ذاهبًا وسط ابتسامات دربته عليها أفعى ذات يوم، كان واضحًا أنه يحاول زرع الضغائن بيني وبين الأستاذ سلامة لحقد يكنه أعلم سببه جيدًا، يظنني ساذجًا مثله وسأهتم لهذه الأمور. ترددت جملته «لن يعرض عليك العمل به أبدًا» بذهني وكادت تفتح بابًا للأسئلة بداخلي، لولا أنني أغلقته جيدًا بفتح كتاب جديد أنسخه وأبحر في عالمه.

• • •

تناولتُ معطفي بعد مرور ساعتين أُنهك جسدي خلالهما وصعدتُ إلى القاعة في طريقي للذهاب، وجدتُهم يخرجون من غرفة الاجتماعات المخصصة لفرع التنقية وحده وهذا فسر لماذا جاء صلاح اليوم، ناول أستاذ سلامة صلاح قفلًا صغيرًا ليُحكم غلق الغرفة بعد ذهابهم، رآني فألقى التحية وبدأ في سؤالي عن أحوال العمل. نظر إلي صلاح نظرة ساخرة من ورائه تحمل تحديًا فهمته وقبلت به، قلتُ بصوت يصل إلى مسامع صلاح بنبرة واثقة:

- عمي، أشعر أنني مللتُ العمل في المكتبة وأريد أن أغير الفرع، أفكر في الانضمام إلى فرع التنقية، فما رأيك؟

- أظن أن فرع المكتبة هو الأفضل لك، يمكنك الانتقال إلى فرع تحضير المناقشات إن شعرت بالملل.

- ولكن أريد تغيير القسم بأكمله.

- القسم الخارجي يشكل خطرًا عليك، لذلك لا أرجحه الآن.

- لذلك لم أختَره واخترتُ قسم التنقية.

- قسم التنقية مكتمل الآن ولا يحتاج إلى أعداد أخرى.

لم تكن احتياجات أقسام (الخالدين) تقام على العدد وإنما على حرية اختيار الأفراد للقسم الذي يريدون العمل به، لذلك كان جليًا أنه لا يريد انضمامي إليهم ويغلف رغبته بحجة واهية.

هم خارجًا بعد أن ودعني، مر بي صلاح بوجه يحمل ابتسامة ساخرة وبعينين تحملان الشماتة بخسراني أمامه، انتقل الأمر بداخلي من مجرد تحد تافه بيني وبينه إلى سؤال يجب أن أعرف إجابته، لماذا يرفض الأستاذ سلامة انضمامي إلى قسم التنقية؟ ماذا يحدث هناك؟

• • •

(١٨)

(التنقية)

- «أعيديها ثانيةً». قلتها لأتأكد أن ما سمعته صحيح. تتسارع نبضاتُ قلبي بفعل الفرح.

قرأت سوسن الرسالة بصوتها الآلي:

-سيد أمجد، يود مجلس إدارة العهد الجديد إخبارك أنه قد حُدد موعد زفافك أنت وخطيبتك الكريمة ليلى في يوم الخامس عشر من الشهر الجاري، ويرجى التواصل معنا لإطلاعكما على التفاصيل كافة.

قفزتُ من فوق السرير بسعادة لتحديد الموعد أخيرًا، أخبرتها أن تتصل بليلى ثم نهيتها عن ذلك، أريد أن أرى ملامح وجهها عندما أخبرها بأننا أخيرًا سنمارس حياتنا بشكل طبيعي كأي زوجين، نظرتُ إلى ساعتي فوجدتُ ساعتين تبعدانني عن موعد الاجتماع الأسبوعي للخالدين، دفعني الحماس لارتداء ملابسي سريعًا والذهاب إلى المقر

لانتظار ليلى. اعتدنا أن نذهب أنا وهي يوم الاجتماع مبكرًا لمساعدة العم إبراهيم في تهيئة القاعة، سأحاول أن أصل قبل وصولها، أريد أن أكون أول من تراه.

• • •

فرح العم إبراهيم بالخبر وهنأني، أوصيته بعدم إخبار ليلى وأخبرته أنني سأنتظرها بالمكتبة لحين وصولها. مررتُ بالقاعة التي لم يطأها أحد بعد في طريقي إلى المكتبة، لمحتُ باب غرفة الاجتماعات الخاصة بفرع التنقية فتذكرتُ ماذا حدث بالمرة السابقة، غيرتُ مساري متجهًا إليها أتطلع إلى بابها مفكرًا: تُري ماذا يحوي خلفه؟ داعبت مقبض الباب بالضغط عليه في محاولة محكوم عليها بالفشل مسبقًا لعلمي بغلق صلاح له، لكن تفاجأت بفتحه ببساطة بين يدَي، داهمني الاستغراب عندما نظرتُ إلى مكان القفل ولم أجده، رأيت الأستاذ سلامة بعيني وهو يناوله لصلاح مؤكدًا عليه أن يغلق الغرفة جيدًا، راودتني نفسي بالسوء بالولوج إليها واكتشاف ما بها سريعًا، فهذه أفضل فرصة لمعرفة ذلك ولن تتكرر ثانيةً، حاولتُ زجر نفسي عن فعل هذا ولكن دافع الفضول كان أكبر من أن تحده مواعظ الاحترام بداخلي، دلفتُ وأغلقتُ الباب ورائي متطلعًا إلى أركانها أسكتشف محتوياتها. بدتّ كأي غرفة عادية، طاولة اجتماعات بالمنتصف خالية من أي شيء، خلفها طاولة صغيرة تركن إلى الحائط تحمل كتبًا استعارها الأستاذ سلامة من المكتبة منذ أسبوعين تبرز من بينها أوراق ينقل بها بعض المعلومات، استقرت فوقها لوحة لمنظر طبيعي جذبتني ألوانها لأقترب وأدقق النظر أكثر، كانت ألوانها ساحرة وبديعة تعكس براعة فنان ماهر

باستخدام ريشته، حملتْ أقصى يسارها توقيعًا بالأسفل باسم سلامة عاصم وتحته كلمة باريس، لم أكن أعلم أنه يجيد الرسم، يبدو أنه رسمها منذ زمن بعيد. سمعتُ أصواتًا بالخارج تنبئ بمجيء بعض الخالدين فهممتُ بالرحيل قبل أن يكثر عددهم ويلاحظوا خروجي من غرفة الاجتماعات، لكنني رأيت تجويفًا بالحائط مقابلًا للوحة لم أكن أراه من باب الغرفة الرئيسي يحوي بابًا آخر، توجهتُ إليه سريعًا أقنع عقلي الذي يحثني على الخروج فورًا بالسماح لي بخمس دقائق أخرى، فتحته ودخلت. كان المكان مختلفًا تمامًا عن غرفة الاجتماعات وترتيبها المنظم، ملفات ملقاة بعشوائية تحوي كثيرًا من الأوراق تفترش طاولتين بالمنتصف تجاورهما سبورة مصنوعة من نشارة الخشب يتعلق بها كثير من الصور بدبابيس معدنية، اقتربتُ من الطاولة والتقطتُ واحدًا من الملفات يحمل اسمًا لا أعرفه، فتحته فوجدتُ عدة صور لشخص واحد ظهر بوضوح أنها التُقطت له دون علمه، صورة له وهو يستقل سيارة وثانية وهو خارج من مطعم وثالثة وهو يصعد بناية، أزحتُ الصور جانبًا فوجدت الأوراق تحمل تفاصيل في ما يبدو أنها متعلقة بالشخص نفسه وتحركاته باليوم والساعة والدقيقة، فهمتُ من الملف أن صاحب الاسم يُراقَب وهنا تفصيل لكل ما يقوم به.

توجهتُ إلى السبورة فوجدتُ كثيرًا من الصور من بينها صورة الرجل صاحب الملف وموضوعة عليها علامة إكس باللون الأحمر وعلى عدد من الصور الأخرى، والبقية لم يُوضع عليها بعد. ما الذي يجري هنا بالضبط؟ حاولتُ تكذيب ما فهمته من خلال ما رأيت ولكن كان كل شيء واضحًا، أصدق أن يقوم صلاح بهذا،

ولكن أستاذ سلامة! هل يُعقل أن يتم كل هذا تحت إشرافه! بالتأكيد سأسأله عن هذا الأمر لأفهم ماذا يحدث متحملًا توبيخه لتجسسي على غرفة الاجتماعات. أخبرني صوت الضجة الآتي من الخارج بزيادة عدد الحضور، ينبهني لحتمية المغادرة، ألقيتُ نظرة أخيرة سريعة على الصور المعلقة أمامي، لمحتْ عيني من بينها صورة جمدتني، اقتربتُ منها وتناولتها نازعًا الدبوس المعدني وأنا أتأملها جيدًا أحاول استيعاب الإتيان بها وسط هذه الصور، اتجهتُ أبحث سريعًا بين الملفات متمنيًا ألا أجد هذا الملف محاولًا تكذيب ظني، شعرتُ بانسحاق قلبي عندما وجدته من بينها يحمل اسم (عبد القادر سند). تفحصتُ أوراقه فوجدتها مثل الملف الأول تحمل جميع التحركات بدقة بجانب عديد من الصور، توجهتُ خارجًا أجر قدمَي وقد رُبطت بهما أكياس مملوءة برمال صحراء الألم المهلكة، أحمل الملف بين يدَي أتعلق بآخر حبال الأمل أنني ربما فهمتُ كل هذا بشكل خاطئ. انقطعتْ كلمة الشيخ أحمد الواعظة التي يلقيها على الحضور بخروجي من غرفة الاجتماعات ينظر إلي بدهشة تطورت لفزع بعين الأستاذ سلامة القابع بجواره وهو ينظر إلى الملف بيدي، شق صوتي السكون الذي جثم على الجميع بثقله بنبرة خائفة تخشى الإجابة موجهًا سؤالي للأستاذ سلامة:

- ماذا يفعل اسم أبي هنا وسط هذه الملفات؟

زفر بضيق واختنقتْ ملامحه وهو يهرب بنظرات عينيه لوجهة غير محددة، فتأكدتُ أن ما فهمته صحيح، تحشرج صوتي بفعل الصدمة المغموسة بالوجع قائلًا:

- وثقتُ بك وبكم جميعًا واعتبرتكم عائلتي وأنتم تدبرون لطعني من الخلف؟ أي خسة هذه؟

قال الأستاذ سلامة راجيًا:

- أمجد أرجوك أن تهدأ.

قلتُ غاضبًا:

- كيف تطلب منى الهدوء بعد ما عرفته؟

- يجب أن تهدأ حتى تفهم.

قلتُ متعجبًا ولم يتركني الغضب:

- ماذا تريدني أن أفهم؟ أفهم أنكم تريدون قتل رجل لم يفعل لكم أي شيء سوى أنه يبغضكم مثله مثل أهل هذه البلاد؟ هل تعتبرون هذه الجريمة تستحق القتل؟

وقفني بنبرة صارمة:

- وهل عهدتَ بنا التعامل بهذه السذاجة؟

- لم أعد متأكدًا من أي شيء، لم أعد أعرف حتى من أنتم.

زاد من صرامته:

-وكذلك لا تعرف من يكون أبوك.

أكمل بعد أن نظرتُ إليه مستغربًا:

-أبوك عبد القادر سند طبيب المخ والأعصاب الشهير الذي نال عديدًا من الجوائز وذاع صيته بعبقريته هو نفسه قائد قراصنة العقول، باع أصحابه ذوي الضمائر اليقظة وتصالح مع المجلس موافقًا على كل شروطه مقابل كثير من الأموال وإتاحة الفرصة له بتطبيق تجاربه، وكان أول ضحاياه هو شعب هذه البلاد بمسح ذاكرته والسيطرة على عقله.

رميته بنظرات حانقة من كذبه فأكمل سائلًا إياي:

-ألم تسأل نفسك ولو لمرة كيف عرف تفاصيل ما سيحدث للبلاد وحجبك كي لا تتعرض للفيروس كما أخبرتنا؟

قلت مدافعًا:

- لا لم أسأل، لأنني أعرف من أين حصل عليها، من صديقه بالمجلس.

نفى بحدة:

- كذب، من هذا الصديق الذي سيخبره بكل هذه التفاصيل السرية للغاية؟ المجلس يمشي وفقًا لخطط أبيك، هو السبب في نكبة هذه البلاد، ولم يكتفِ بهذا بل صار يحاربنا ونحن في طريقنا لإصلاح ما أفسده ويطبق العقوبة بيديه على الخالدين.

نفيت ما يقوله بقوة:

- كل ما تقوله هراء. أبي ترك مجال الطب منذ سنين وأغلق عيادته، فكيف سيجري العمليات؟

- أوهمك وأوهم الجميع بهذا حتى لا يُكشف أمره، ألم تفكر ولو لحظة لماذا يغلق عيادته وهو في أوج مجده؟

- ليعتني بي.

- هذا ما أقنعك به.

اختلطتْ حدة صوته بالأسى متابعًا:

- هو من أجرى العملية لهشام ولكثيرين غيره، هل علمت الآن لماذا كنا نخطط لقتله وقتل جماعته المأجورة؟ لم يفسد أحد بلادنا مثلما أفسدها هؤلاء.

قلتُ بغضب:

- كل ما تدعيه افتراءات لا أساس لها من الصحة. أنا أعرف أبي جيدًا.

قال بهدوء:

- أقدر صدمتك، ولكنني أقسم أنني صادق بكل حرف تفوهتُ به.

تابع بنفس هدوئه:

- أظن أنك الآن عرفت لماذا رفضناك في المرة الأولى عندما تقدمتَ لليلي، ليس لأننا من (الخالدين) ولكن بعد أن رأت ليلى والدك بالمطعم وعرفتْ من تكون وأخبرتني، ولهذا السبب أيضًا كنتُ أرفض انضمامك إلينا، لكن حماستك

وقتها جعلتني أشعر أنه ربما تكون مختلفًا عن والدك ولا يجب أن أظلمك بذنبه، وأن النصر دائمًا يأتي من حيث لا نحتسب وربما يأتي على يديك، فقبلتُ بك بيننا ولنفس السبب رفضتُك في المرة الثانية عندما تقدمت، ولكن للأسف ضعفتُ أمام مشاعر ابنتي واستسلمتُ لمحاولة إقناعها لي أنك لن تشعر بشيء، ورضخت لعواطفها مشفقًا عليها من كسرة قلبها بعد إحساسي بتعلقه بك وقبلت. هل عرفت الآن السبب وراء كل هذا الرفض؟ كان خوفًا من هذه اللحظة التي لم أعد لها جيدًا.

كانت كلماته كنصال يوجهها إلى قلبي فتُصيب هدفها بدقة، قلتُ وقد امتلأت عيناي بدموع الخزي قائلًا لليلى:

- كنتِ على علم بكل هذا؟

أجابتني بعبرات أرسلتها عيناها سريعًا على وجنتيها وتحاشتْ مواجهتي. ضحكتُ بسخرية الوجع موجهًا حديثي لعم ابراهيم الذي اكتست ملامحه بالحزن:

- حتى أنت كنت تعلم، أليس كذلك؟

صرختُ فيهم:

- الجميع هنا على علم بكل شيء ما عدا أنا المغفل الوحيد بينكم.

حل الوجوم على وجوه الحاضرين ما عدا صلاح الذي كان يستمتع متلذذًا بصدمتي. لف الجميع الصمت لدقيقة لم يتكلم بها أحد، بدأ بعدها الأستاذ سلامة حديثه بلطف قائلًا لي:

- أمجد، أنت لست شخصًا عاديًا بالنسبة إلي، أنت زوج ابنتي وابن من أبناء عائلة الخالدين ومكانتك ليست بالهينة عندي، لكنني في نهاية الأمر لا أستطيع إجبارك على شيء، أمامك الآن خياران إما أن تبقى كما أنت بيننا واحدًا منا تؤمن بما نؤمن به وتثق بقرارتنا وحكمة أفعالنا وستثبتُ لك الأيام صحة ما أخبرتك به، وإما أن تغادرنا وتنسى أمرنا.

قام صلاح معترضًا:

- كيف يغادرنا؟ نحن لا نأمن أن يبلغ عنا ويسلمنا إلى المجلس، يجب أن تُقام عليه عقوبة الانشقاق وهي القتل.

وقفه بحدة:

- لا، أنقذنا جميعًا مرة سابقة وهذه بتلك.

نظر إلي وأكمل بهدوء:

- كما أنني أثق به وأعلم أنه لن يبلغ عنا.

صمت بعدها بانتظار قراري فقلت بنبرة غاضبة غلفها الهدوء:

- هل تظنني جاحدًا إلى هذه الدرجة؟ هل أوهمك حديثي عن العلاقة المتوترة بين وبين أبي أنني سأبقى بينكم بعد علمي بتخطيطكم لقتله كأن شيئًا لم يحدث! يمر قاتلوه أمام عيني

ليل نهار وأتخذهم عائلة لي! كيف تخيلت هذا؟ إن كنتم خدعتموني بالحديث عن سمو هدفكم ونبل أخلاقكم وتوهمتُ أنكم أطهر من يمشي على هذه الأرض، فالآن انكشف كل شيء ولن أدعكم تمسون شعرة من أبي ولو كلفني هذا حياتي.

قلتها بصرامة اكفهر وجهه أمامها، اتجهتُ للخارج فوقفني بحزم:

- إن كان هذا قرارك فلك ذلك، ولكن إن رحلت فلن تعود إلينا ثانيةً حتى إن اكتشفتَ الحقيقة، وبمجرد خروجك من هذا المكان ستنقطع علاقتك بجميع أفراده إلى الأبد.

وقفتُ برهة أجمع فيها شتات نفسي بعد أن أظهر بطاقته الأخيرة محاولًا الربح بالضغط عليَّ من خلال تهديده وأبت كرامتي فوزه، حزمتُ أمري وأكملتُ طريقي للخروج دون أن أعقب، فوقفني ثانيةً بنفس الحزم قائلًا:

- انتظر، عليك إتمام شيء ما قبل رحيلك.

نظر إلى الجميع ثم أكمل:

- كما زوجتك ابنتي أمام جميع، فأنا أطلب منك الآن أن تطلقها أمام الجميع أيضًا.

نظرتُ إلى عين ليلى الدامعة التي تترجاني بصمت ألا أفعل وقلتُ بثبات:

- أنتِ طالق.

عندما تدخل إلى ساحة مواجهة الحياة ستظل توجه إليك لكماتها للحد الذي ستشعر عنده بتساوي مقدار الألم، فتتلقى الضربة القاضية بهدوء مستسلمًا لهزيمتك غير عابئ بأي شيء. إن سمعتُ هذا الطلب قبل ساعة واحدة فقط لكنتُ جهزتُ أسلحتى وأعددتُ حربتي لمواجهة العالم بأكمله دون تحقيقه، ولكن الآن خدر الوجع يفقدني الإحساس وأعلم أن الندم بانتظاري ليحسن رعايتي عند الإفاقة.

• • •

(١٩)

(مذكرات)

أي شوق هذا الذي يدفع بالإنسان للرقص على آثار جرح غير عابئ بالوجع مقابل أن يبقى بجانب الذكرى؟ معضلة الذكريات التي لم يقدر على حلها أحد أن يكون مصدر سعادتنا ذات يوم هو نفسه مصدر ألمنا في ما بعد.

مضتِ عشرة أيام على ما حدث لم أتحرك فيها من سريري سوى لقضاء حاجتي، أعيش على قليل من الطعام وكثير من الذكريات منقطعًا عن العالم أفكر كيف انقلب كل شيء بهذا الشكل، بدأ اليوم بفيض من السعادة وانتهى بوافر الألم. ظلت عين ليلى الدامعة برجائها الأخير تلاحقني أينما ذهبت، حتى في نومي تأتيني بأحلامي بنفس النظرة، ولكن ماذا كانت تنتظر مني أن أفعل بعد أن وضعني أبوها بين فكي الرحى بخياراته؟ أتذكر ما قاله بشأن أبي، رغم قوة دفاعي عنه حينها لكن كلامه حاك شيئًا بصدري. أيُعقل أن يكون صادقًا! أفزعني صوت جرس الباب الذي كدتُ أنسى نغمته فلم يقرعه أحد منذ زمن، تجاهلته ولكن إصرار الطارق دفعني

للقيام بتكاسل أتساءل عن سبب إلحاحه، نظرت عبر العين السحرية وتنهدتُ وأنا أفتح الباب سائلًا:

- أبي لماذا جئت؟ أخبرتك أني بخير.

دلف إلى الداخل واضعًا يديه بجيبَي بنطاله، قال وهو يتفحصني:

- يبدو جيدًا أنك بخير، طول لحيتك وهيئة ملابسك خير دليل على هذا.

نظر إلى أرجاء الشقة وقال باشمئزاز:

- ما هذه الفوضى؟ وما هذه الرائحة؟

- لم ألقِ القمامة منذ عدة أيام.

تقززتْ ملامحه وهم ذاهبًا إلى المطبخ بهمة، أخرج كيسًا أسود كبيرًا من أحد الدولايب ولبس قفازين وبدأ بجمع الأوراق وأطباق الأكل وعلب العصير المبعثرة بأركان الشقة، ذهبتُ إلى غرفتي وجلست على السرير أتناول قرصًا لصداع بدأ بالدق على رأسي. مضى وقت جاء بعده أبي بكيس جديد لغرفتي ووبخني على حالة الشقة وكيف تركتها تصل لهذه المرحلة التي تكلفت ثلاثة أكياس من الحجم الكبير لتنظيفها. لم يلقَ ردًّا مني كعادتي بمهاجمته ما جعله يكف عن الحديث واقترب وجلس بجانبي قائلًا:

- أمجد، ما بك؟ ولا تقل إنك بخير لأنني لن أصدقك.

نفثتُ بضيق فتابع:

- هل ضايقتك خطيبتك في شيء؟

- انفصلنا.

ربت على كتفي قائلًا بفرح:

- لا تحزن، سأزوجك من هي أفضل وأجمل منها بكثير.

نظرتُ إليه متعجبًا:

- ألن تسألني عن السبب؟

هز رأسه نافيًا:

- ولِمَ أسأل؟ أنت تعلم أنني لا أحب التدخل بخصوصياتك، ثم بمَ ستفيد معرفة السبب الآن؟ ذهبت وانتهى أمرها.

هززتُ رأسي موافقًا لكلامه فأكمل بحماس:

- هيا قم واستحم وبدِّل ملابسك، سنتناول الغداء معًا وسنقيم احتفالًا بمناسبة انفصالك.

ابتسمتُ له فداعب شعري بيده وقام ليجمع قمامة الغرفة قائلًا:

- هيا قم حتى لا نتأخر، ولا تنسَ حلاقة ذقنك هذه، وخلال هذا الوقت سأنتهي من تنظيف غرفتك.

تحركتُ من مكاني ببطء متجهًا إلى الخارج، وقفتُ بباب الغرفة واستدرتُ إليه سائلًا:

- أبي.

أجاب وهو منشغل بجمع القمامة:

- نعم.

- ما اسم صديقك بالمجلس؟

سكن لحظة أحسستُ فيها بمفاجأته بسؤالي، ثم تابع عمله وهو يجيب:

- علاء.

- علاء؟ لم أسمع باسمه طيلة حياتي.

- أنت لا تعرفه.

- ولكنك دومًا تخبرني أنه صديقك المقرب، فكيف لا أعرفه ولم أرَه من قبل ولو لمرة؟

- هو يعتبرني صديقه المقرب أما أنا فلا.

- ما رأيك أن تحدثه لنقابله اليوم؟

نظر إلي مستغربًا قائلًا بحدة:

- لماذا؟ إياك أن تكون قد تورطتَ مجددًا مع واحد من هؤلاء الخالـ...

قاطعته:

- لا يا أبي الأمر ليس كما تظن، كل ما أريده أن أشكره لحسن صنيعه معنا بشكل شخصي.

ابتسم واقترب مني وربت على وجهي قائلًا:

- ولد خلوق، على العموم لا داعي لذلك إطلاقًا، ما فعله هو رد لخدماتي له.

سألتُ مستغربًا:

- وما الخدمات التي أديتها له؟

- كنتُ أعالج والدته منذ زمن بعيد عندما كنتُ أزاول المهنة.

- بالمناسبة يا أبي لماذا أغلقت عيادتك؟

ابتسم باستغراب:

- كثيرة أسئلتك اليوم.

- مجرد تفكير، طبيب بمكانتك وبقوة صيتك حينها خسارة كبيرة أن يغلق عيادته.

نظر إلي بحنو مجيبًا:

- وإن كنتُ أملك أكثر من هذا كنت سأتركه لأرعاك يا أمجد.

عانقني بعدها ثم تركني قائلًا:

- هيا اذهب ليس لدينا وقت.

اتجهتُ إلى الحمام وقد زرع أبي بذور الشك بقلبي وسقاها بإجاباته الغامضة وردوده المختصرة، أنهى الحوار بجملته العاطفية التي لم تجد صدى بداخلي مثلما كان وقعها من قبل. بدأت بحلاقة

ذقني متذكرًا كلام الأستاذ سلامة، يعلو مع كل شعرة تسقط صوت سؤال يتردد بعقلي: هل أعرف حقًا من يكون أبي؟

• • •

منعني التفكير بشأن أبي من النوم طيلة الليل، بعد أن قضينا اليوم معًا نضحك ونأكل ونتكلم ﴿ في نواحي الحياة المختلفة، كنت أحاول أن أبدو طبيعيًا، أمنع ظنونى من الطفو على سطح وجهي كي لا يلاحظ شيئًا مما يدور بخلدي، ظللتُ أسترجع شريط حياتي عندما أغلق أبي عيادته وكان عمري وقتها خمسة عشر عامًا، لم أكن بالصغير الذي يحتاج إلى مثل هذا التفرغ. أعلم أن بداية مراهقتي كانت صعبة، لكن كان من الممكن رعايتي بطرق أخرى كثيرة غير أن يترك عمله، أغلق عيادته في الوقت الذي كان المرضى ينهالون عليه للكشف من كل حدب وصوب، غيابه عدة مرات بعدها لأيام قد تبلغ الأسبوعين واعتذاره لي ووعده بتعويضي عن هذا الوقت ورفضه لمصاحبتي، انتقالنا المادي المفاجئ الذي أحدث طفرة بحياتنا في كل شيء كان متزامنًا مع مصالحة المجلس، معرفته للتفاصيل الدقيقة لخطة المجلس بمحو ذاكرة البلاد، مررتُ بكلتا يدَي على رأسي عدة مرات كي تهدأ حرارة ربط الأشياء ببعضها بمرجل عقلي، كل ما أمر به مجرد ظنون، ظنون تحتاج إلى دليل قاطع قد ينفي هذا تمامًا وأنسى الأمر أو يثبته وأعرف حقيقة كل شيء، ولكن تُرى أين يكون هذا الدليل؟ لا أعلم مكانًا يذهب إليه غير بيته. جاءت عدة صور أمامي وأنا أحاول عصر ذاكرتي بكل الأماكن التي ذهب إليها أبي

ولو مرة، جاءت أمامي صورة وثبُتت، تذكرتُ الموقف المتعلق بها الذي أثار الشكوك بداخلي أنها ربما تحوي شيئًا يوصلني للحقيقة، تناولتُ مفاتيح السيارة وذهبتُ إليها، أدرتها وانطلقتُ إلى وجهتي.

• • •

سعلتُ بقوة إثر اقتحام ذرات الغبار أنفي، مهتديًا بضوء هاتفي بعد أن تأكدتُ من انقطاع الكهرباء عن المنزل بالضغط على قابس الضوء وعدم استجابته لي، كان المكان ساكنًا كالمقابر تزأر الرياح من خلال نافذة فُتحت بيد الهواء بأصوات خُيل إليّ أنها خرجت من فم شبح. دلفتُ إلى غرفة الطعام ناظرًا إلى طاولتها المغطاة بشرشف أبيض متذكرًا أعياد ميلادي الثمانية التي أُقيمتْ عليها، لم يُقَم التاسع والعاشر لبدء دخول أمي في مرحلة اكتئابها، ما أدى إلى انسحابها من المناسبات الاجتماعية والانغلاق على نفسها أكثر. سلطتُ الضوء على الحائط واقتربت منه أمسح بأطراف أكمامي التراب العالق على زجاج برواز يحمل صورة لأمي وهي جالسة وأجلس أنا بحجرها ويقف وراءنا أبي، تمعنتُ في الصورة جيدًا، كانت السعادة العنوان الرئيسي لها، وإن كنتُ لا أعرف هل كانت أمي تعني تلك الابتسامة حقًا أم أنها طاعة لأمر المصور.

بدأت أتجول بعيني في أرجاء البيت أسترجع مع كل ركن به ذكرى آتية من عمر الطفولة، تفاجأت برحيل أبي عنه منذ واقعة انتحار أمي عندما أعادني من عند الجدة كوثر، أخبرني أنه لم يعد بمقدوره العيش به وقد صار مكانًا مفعمًا بالألم بعد رحيلها، لم أره من وقتها إلا منذ عدة سنوات، تحديدًا ليلة البدء بالعهد الجديد عندما أتينا

إلى هنا لنُبقي نفسينا بمنأى عن تأثير الفيروس، احتمينا بالقبو لمدة أسبوع حتى أُذن لنا بالخروج. نزلتُ إلى القبو بعد أن كاد عبق الذكريات العالق بالمكان يُنسيني ما جئت لأجله، أصدر باب القبو أزيزًا عاليًا أزعجني عندما فتحته، وشعرتُ بعين الهدوء وهي تنظر إلي بحدة فأمسكته سريعًا بيدي بعدما وجدتُ أنه فُتح بالمقدار الذي يسمح لجسدي بالولوج. فحصتُ المكان ببصري، كان كل شيء كما تركناه منذ ست سنوات، نظرتُ إلى لوحة معلقة بالحائط فوجدتها كما هي بمكانها وقد حباها التراب شيئًا من نفحاته فأخفى معالمها، تذكرتُ ليلتها عندما كنت غارقًا في نومي وأقلقتني حركة أبي رغم محاولته ألا يوقظني، ظهر أمامي كخيال من أثر النعاس وهو يضع تلك اللوحة على الأرض ويقف أمام فتحة بالحائط يلتصق بكتفه إطار معدني سميك يشبه باب خزانة، كان منشغلاً تمامًا فلم ينتبه لاستيقاظي واقترابي منه، تطلعت من خلفه إلى الخزانة المربعة القابعة أمامه، كانت مكونة من خانتين احتوت الخانة العلوية على عدد من الصور وملف وبجانبهم دفتر ورقي، واحتوت الخانة السفلية على عدد من القناني الصغيرة الفارغة كان أبي يهم بوضع القنينة الأخيرة بجانبها ليكتمل الفراغ الباقي من الصف، لولا تفاجئه من وجودي فسقطت من يده والتقطتها سريعًا ما جعله يتنهد بعمق وقد جحظت عيناه فزعًا، ضحكتُ وقتها من هيئته ساخرًا من خوفه على قنينة فارغة أدرتها بين أصابعي لقراءة ما كُتب على الملصق الصغير الذي تحمله، لولا أنه أخذها سريعًا من يدي ووضعها بالخزانة وأغلقها ووضع اللوحة عليها. لم أهتم حينها بما يجري ولم أسأله عن

تلك الأشياء التي بداخل الخزانة وأهميتها بالنسبة إليه، فأبي بالعادة له بعض الطقوس الغريبة ولم يشغل بالي يومًا السؤال عنها. اتجهتُ إليها وأزلت اللوحة عن الحائط فوجدت الخزانة قابعة أمامي، تذكرتُ سياسة أبي التي ينتهجها في اختيار أرقامه السرية، كان نهجه دومًا تواريخ الميلاد، حاولتُ فتحها بتاريخ ميلاد أبي فلم تستجب كررتُ المحاولة بتاريخ ميلاد أمي فلم تستجب أيضًا، حاولت بتاريخ ميلادي ففشلت المحاولة، ترى أي رقم اختاره أبي؟ تذكرتُ ذات مرة عندما أخبرني بالرقم السري الخاص ببطاقة مصرفه البنكي المكون من الأرقام الأولى من تاريخ ميلاده وميلاد أمي وميلادي، وعندما سألته عن السبب أخبرني أنه يعتمد هذا الرقم في الأشياء المهمة، أدخلت هذا الرقم فسمعت تكة تشير إلى فتحها، وجدتها كآخر مرة نظرتُ إليها، التقطتُ الصور وسلطتُ الضوء عليها، كانت الصور لأبي برفقة أشخاص آخرين لم أرهم من قبل، مبتسمين ويشيرون بعلامة النصر للمصور، ابتلعتُ ريقي بعدما قلبتها وقرأتُ جملة (اجتماع قراصنة العقول) ومدون تحتها التاريخ. ظللتُ أتنقل بين الصور وهي تعكس وضعيات مختلفة لهم مرة وهم يضحكون ومرة وهم يتناقشون ومرة وهم يرتدون ذلك القناع، قناعًا بهلوانيًا بعين جاحظة تحمل نظرة الشر وضحكة بشفاه حمراء خبيثة، هو نفسه قناع قراصنة العقول الذي كانوا يظهرون به في تسجيلاتهم المسربة. تناولتُ الملف فوجدتُ بداخله أوراقًا شرعتُ في قراءتها، كانت عقودًا تفيد بالتعاون بين قراصنة العقول والمجلس وبيع فكرة محو ذاكرة أهل البلاد مقابل عدد يحمل كثيرًا من الأصفار، وإتاحة الفرصة لهم لتطبيق تجاربهم

تحت رعاية المجلس. وصلتُ إلى آخر العقد فوجدتُ عن يمينه توقيع الطرف الأول/ أعضاء مجلس إدارة شؤون البلاد، والطرف الثاني أعدتُ قراءته كثيرًا لعل ذلك يُفلح في تكذيب ما أخبرني به الأستاذ سلامة وتكذيب ما تراه عيناي الآن، ولكن لم يتغير شيء غير وضوح الحقيقة أمامي أكثر، الطرف الثاني/ عبد القادر سند. أغمضتُ عينَي أستجديهما البكاء لتخففا ما أمر به الآن لكنهما أبتا، جمدتهما المفاجأة وتركت عقلي لينال حظه من صفعات الحقيقة وهو ما زال يتأرجح بعدم استيعاب لما عرفته. تفحصتُ ما بقي من الملف فوجدتُ ورقة صغيرة كُتبت عليها أشياء تبدو كمصطلحات لم أفهمها وتلتصق بها ذاكرة إلكترونية، نحيتها جانبًا مع الإبقاء على نيتي في فحصها مرة أخرى ومعرفة ما بجعبة تلك الذاكرة، التقطتُ الدفتر الورقي الذي بدا عليه القدم من غلافه، بدأتُ أتصفحه ليتزايد معدل صدمتي مع كل ورقة أنتهي من قراءتها، أغلقته وقد تبلل جزء منه بدموعي، لم يكتفِ الألم بما فعله بقلبي في الآونة الأخيرة فقرر القضاء عليه تمامًا، ينظر إليه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة سعيدًا وقد ضم قلبًا جديدًا إلى مقبرته.

• • •

-«غريب! هذه المرة الأولى التي تطلب بها زيارة والدتك». قالها باستغراب في أثناء قيادته في طريقنا إلى قبر أمي.

- اشتقتُ إليها.

ابتسم وربت على كتفي، تظاهرتُ بالنوم حتى لا نتكلم إلى أن نصل، مضى وقت نبهني بهزات خفيفة بعده إلى وصولنا فترجلنا عن السيارة متجهين إلى قبر أمي، وقفنا أمامه بوقار يردد أبي الدعوات بصوت هامس، انتظرتُ حتى انتهى فسألته:

- اشتقتَ إليها؟

التقط دمعتين بسبابته وأجاب دون النظر إلي:

- كثيرًا.

- إذًا لماذا قتلتها؟

ذُهل من جملتي وسألني بغضب:

- ما هذا الذي تقوله؟

أخرجتُ الدفتر الورقي قائلًا:

- مذكراتها التي أخفيتها.

تفاجأ عندما رأى الدفتر الورقي، وتابع وهو يتلعثم:

- لكن والدتك انتحرت، أنت شهدت هذا بعينك.

ضحكتُ ساخرًا وأنا أقول:

- كلامك يا أبي يذكّرني بمن يدفع شخصًا أمام قطار ويخبر الجميع أن القطار هو من قتله وليس هو.

ابتلعت المفاجأة صوته فأكملتُ:

- كتبتِ هذه المذكرات عندما اكتشفتِ أعمالك اللا أخلاقية بإجراء تجاربك على مرضاك، دونتِ محاولاتها المستميتة معك كي ترجع عما تفعله لكنك لم تستجب، دخلتِ في الاكتئاب بسبب الحيرة بين الإبلاغ عنك وكشف حقيقتك أمام الناس والسكوت واحتمال عذاب الضمير تجاه ضحاياك، لم تجد حلًا ينقذها من كل هذا فلجأت للانتحار وأعطتني لخالتها الجدة كوثر لتراعيني لأنها خافتِ أن أصير مثلك، طيلة عمري كنت أتهمها بالأنانية وهي أكثر من تحملتِ ولم يكن أحد أنانيًا سواك.

قال بعد أن اقترب مني موضحًا برجاء:

- أمجد، أمك كانت مريضة بالذُهان[1] هذا ما دفعها للانتحار ولم تسجله بمذكراتها صدقني.

قلتُ متعجبًا من علته:

- مرض الذُهان! حسنًا، هي انتحرت بسبب هذا المرض، لكن هل ما دونته هنا كان تهيؤات بسبب المرض أيضًا أم حقيقة؟

هرب بعينيه من مواجهتي مطأطئًا رأسه، فأكملت:

- إنشاؤك لجماعة قراصنة العقول كذب أم حقيقة؟ تحالفك مع المجلس وبيع فكرة محو الذاكرة كذب أم حقيقة؟

(١)الذُهان أو البارانويا: مرض نفسي يعاني فيه المريض من أحاسيس وهمية وحالة شك شديدة في الآخرين وغاياتهم حتى يشعر بالاضطهاد من قِبلهم، وقد يؤدي هذا المرض إلى الانتحار إن لم يُعالج برعاية طبيب مختص.

التفتَ بجسده وأنا أسرد حقائقي فاتجهتُ معه حتى تلاقت عيناي بعينيه سائلًا:

- إجراؤك عمليات نزع الذاكرة للخالدين كذب أم حقيقة؟ إجراؤك العملية لهشام كذب أم حقيقة؟

امتقع وجهه ودارت عيناه يمنة ويسرة يحاول قول أي شيء للدفاع عن نفسه ولم يجد، تابعتُ بعد أن امتلأت عيناي بالدموع وتحشرج صوتي:

- أتعلم، لم أعرف مقدار حبك بداخلي سوى من عشرة أيام فقط، لم أكن أتخيل أنه بهذا الحجم الذي يدفعني للتخلي عن كل شيء مقابل سلامتك.

نظرتُ إلى قبر أمي قائلًا:

- كل ما أتمناه الآن أن أكون بجانبها بهذا القبر ولا أعلم كل هذه الحقائق.

نظرتُ إليه مكملًا وقد امتلأتْ عيناه بنظرات التوسل والرجاء:

- لكن ما فعلته أمي خاطئ، لذلك اخترتُ حلًا آخر كان الأفضل بالنسبة إلي.

سأل باستغراب:

- ماذا تقصد؟

- الزجاجات الفارغة، معذرة، التي كنتُ أظنها فارغة وهي حاملة للفيروس.

اتسعتْ عيناه فزعًا وهزني بقوة سائلًا:

- ماذا فعلت؟

ابتسمتُ وجعًا وأنا أجيبه:

- فات الأوان يا أبي، لقد استنشقتُ الفيروس الحامل للجين المسؤول عن مسح الذاكرة، وبقيت ساعة على إتمام مفعوله بالكامل، وسيخطر المجلس آليًا وسيزرعون ذكرياتهم بعدها.

صرخ بوجهي غاضبًا وقد لمع الدمع بعينيه:

- لماذا؟ لماذا يا أمجد؟ فعلتُ المستحيل كي لا تُمسح ذاكرتك وتصبح مسخًا مثل البقية، وأنت تستنشقه بيدك؟

قلتُ مستهزءًا:

- ولماذا أنت غاضب إلى هذا الحد؟ سأكون واحدة من تجاربك الناجحة.

نظرتُ بتحدٍ إلى عينيه:

- وأعلم أنك ستحاول زراعة ذكريات سعيدة بداخلي عنك، لكن سيظل قلبي يكره ما فعلتَ ولن ينسى.

اتجه أبي إلى الخارج مسرعًا وقد أصيبت حركات جسده بالتشتت بعد ما سمعه، فكاد يسقط من على السلم وهو يصعده في طريقه للخارج، صرتُ غير مبال بما ينوي فعله فلم أعد أهتم، جلستُ قرب قبر أمي ومسحتُ عليه وأنا أبكي قائلًا:

- بعد قليل من الوقت سأنسى كل شيء متعلقًا بكِ، سيُمحى وجع غيابك من قلبي وسأعرف من صورتكَ أنكِ أمي،

سأنسى شعور الغضب الذي حملته بصدري تجاهك مدة طويلة، وكذلك سأنسى إحساسي بالذنب نحوك الآن، لذلك أرجو أن تسامحيني على كل ما سبق، أرجو أن تسامحيني يا أمي.

نمتُ بجانب قبرها في انتظار اللحظة الحاسمة، مضى وقت شعرتُ بطول دقائقه بدأتُ أشعر بعده باستيقاظ خلايا عقلي كأن تيارًا كهربائيًا مسه، بدأت الذكريات تأتي أمامي بشكل سريع ومتتالٍ، ذكريات يوم ولادتي! تلتها ذكريات عندما كنتُ رضيعًا وبدأت أكبر شيئًا فشيئًا، بعض الذكريات لم أتذكره البتة وأخرى تذكرتها بمجرد رؤيتها، كانت الذكريات تأتي أمامي ثم تُسحب للأعلى وتختفي في الهواء، أتتْ أمامي الشركة، هشام، ندوة الانتحار، ليلى، مقر الجمعية، حديثي مع ليلى على الهضبة، انضمامي إلى الخالدين، المقر، العم إبراهيم، الشيخ أحمد، صلاح، خطبتنا، زواجنا، تقبيلي ليد ليلى، نظرة الفرحة بعينيها وابتسامتها العذبة، كلمة أحبك وهي تخرج من بين شفتيها، فرع التنقية، حديث الأستاذ سلامة، عينا ليلي الدامعتان، طلاقنا، مواجهة أبي بالحقائق بجانب قبر أمي، وكانت هذه هي الأخيرة التي ما إن سُحبت للأعلى حتى شعرتُ بانفجار رهيب برأسي أخذ بعض دقائق ثم سكن تمامًا. فتحتُ عينَي ونظرتُ حولي، تشوشتْ رؤيتي فلم أرَ شيئًا سوى البياض، شعرتُ بانسحاب القوة من جسدي، هويتُ على الأرض فاقدًا للوعي.

• • •

(٢٠)

(عودة)

مرتْ كل هذه الأحداث كفيلم تسجيلي على شاشة عملاقة يحاوطها السواد، كان آخر مشهد هو سقوطي مغشيًا عليَّ بجوار قبر أمي وانطفأت الشاشة بعدها وبدأتْ بالتبخر، شرعتُ في التبخر أنا أيضًا شيئًا فشيئًا، تركتُ جسدي للعقار ينتشله من الذكرى كما يحب ويفعل به ما يشاء، مستسلمًا له بيأس بعدما رجعت لي ذاكرتي وعرفتُ ما الذي حدث بحياتي السابقة ومن أنا.

• • •

وضعتْ ميسون القرص بجانبي بعين تحمل نظرات ترددت بين أسف وإشفاق وتوتر لا أعلم سببه، تناولتُ القرص لأتقوى به على إنهاك طال جسدي ولم أجد ما أعالج به تصدع روحي، جلستُ وقد ثقُل رأسي بأحمال كالجبال، كنتُ أسعى لاستعادة ذاكرتي والآن موجوع بها.

جاءت ميسون أمامي وقد بدا من حيرتها أنها لا تجد ما تقوله، قلتُ بحزن:

- ليتني ما تذكرت ولا عرفتُ كل هذا، ليتني ما تذكرت.

- أمجد.

نظرتُ إليها فأحسستُ بضياع ملامحها بين جنبات التردد، وقالت بأحرف تحمل كثيرًا من الارتباك:

- أنا، أنا...

قاطع حديثها صوت جاء من الخارج، بدأ صاحبه في الوضوح ببطء كلما اقترب من دائرة الضوء، كان صاحب الصوت أبي! قال بفخر:

- أحسنتِ صنعًا يا ميسون، نجحتِ في مهمتك بجدارة.

نظرتُ إليها وقد جحظت عيناي بألف سؤال عن معنى جملته، قالت وهي مطأطئة الرأس تتلبس صوتها نبرات الخزي:

- لم أكن أعلم أنه ابنك.

قال مسرعًا:

- وهل هذا سيشكل فارقًا؟ كانت مهمتك إرجاع ذاكرته وأديتِها على أكمل وجه.

أخرج ورقة بيضاء مستطيلة من جيبه متجهًا إليها:

- هذا شيك بالدفعة المتبقية من حسابك.

تناولته منه دون أن ترفع رأسها.

اتجه أبي نحوي وعانقني وهو يربتُ على ظهري قائلًا:

-عودًا حميدًا.

جمدتني المفاجأة عن إبداء أي ردة فعل، مفاجأة حياتي السابقة ومفاجأة حقيقة أبي ومفاجأة ميسون!

نظرتُ إليها وقلتُ بغضب:

- كنتِ على علم بكل شيء منذ البداية وخدعتِني! كذبتِ بشأن قصتك وهربك ووثقتُ بكِ وسمحتُ لكِ بالدخول إلى ذاكرتي وأنتِ طرف بهذه اللعبة.

قال أبي مبررًا:

- كنتُ أرغب في القيام بهذا الأمر، ولكن خشيت من عقلك الباطن أن يعرفني ويحجب ذكرياتك ولا نجني شيئًا، لذلك فضلتُ استخدام شخص لم تره أو تتعامل معه من قبل، سيميل عقلك إلى تصديقه والوثوق به.

ربت على كتفي وأكمل:

- لا تعلم مدى سعادتي بعودتك الآن، أنقذتُ الأمر باللحظة الأخيرة، بمجرد أن جاءت إشارة أفادت بمسح ذاكرتك وقفتُ عملية زرع الذكريات الجديدة وأتيتُ بك إلى هذا المكان أفكر في طريقة لإعادة ذاكرتك، حتى توصلتُ إلى هذا الحل ونجح بالفعل.

ثم اتجه إلى ميسون وهو يشير إليها متابعًا:

- وساعدتني في هذا الأمر الطبيبة ميسون. هي الوحيدة التي وثقتُ بها للقيام بهذه المهمة.

كان أبي يسترسل في شرحه ببساطة ولا يدري مدى وقع كلماته على صدري، يتعامل معي كطفل صغير يصنع به ما يشاء ويُدخل في حياته من يشاء، حتى قراري الوحيد الذي اتخذته بمحض إرادتي أفسده وأرجع لي ذاكرتي.

مال ناحية ميسون وسأل بصوت هامس نجحتُ بالكاد في التقاط كلماته:

- هل وجدتِه؟

هزت رأسها نافية وهي محافظة على انخفاض صوتها:

- لا، كنت أبحث عن مكانه في كل ذكرى بينما هو منشغل بتفاصيلها ولم أجده.

جاء صوبي وهو يرسم ابتسامة كبيرة على وجهه قائلًا:

- هيا، هيا يا أمجد، قم لنعود إلى المنزل، من اليوم سنعيش معًا ببيت واحد، سننسى كل ما مضى وسنفتح صفحة جديدة نكتب أحرفها معًا.

تناولني من يدي ومشى بي ببطء متجهًا للخارج، وقفتُ أمام ميسون قائلًا:

- أرجو أن تكوني راضية عن أجرك.

نظرتْ بحزن تجاهي وقالت بتوسل:

- أمجد أنا..

قاطعتُها:

- كفى لا أريد سماع أي شيء.

أكملتُ المسير مع أبي متجهين للخارج، تاركًا ميسون تتخبط بين محاولاتها لإيضاح مؤامرة كنتُ أنا ضحيتها نادمًا على ثقتي بها أغلق بابها إلى الأبد دون عودة.

• • •

مضتْ أيام على ما حدث أصابتني بها حالة من الاستسلام لأبي، بعد أن باءت محاولتي لفقد ذاكرتي بالفشل ونجح هو بمحاولته، كان يعاملني خلالها بغاية اللطف، كالطفل الصغير يطعمني ويسقيني ويبقى بجانبي حتى أنام ويوليني رعايته، بدأت أفهم أن

تعاون أبي مع المجلس واتفاقهما على مسح ذاكرة البلاد أكبر من محاولات شخص مثلي لا سلطة له بالوقوف ضدها، وأكبر حتى من محاولات الخالدين لإثبات هذه الجريمة وتعريف الناس بهوياتهم الحقيقية، الأمر يحتاج إلى قوة مماثلة وسلطة مسيطرة وصبر كما كان يوصينا دومًا الأستاذ سلامة. رجعتُ بذاكرتي إلى أجمل فترة عشتها بحياتي، فترة انضمامي إلى الخالدين، وتذكرتُ اجتماعاتنا والمناقشات والمكتبة وليلى، شحذ الندم سكينه بحجر الاشتياق إليها بداخلي، ترى ماذا تفعل الآن؟ وهل علمتّ بفقداني لذاكرتي؟ جاءني صوت أبي قائلًا:

- فيمَ تشرد؟

تنبهتُ إليه:

- لا شيء.

- هيا العشاء.

بدأنا بتناول العشاء يصحبني كلام أبي وأحاديثه الكثيرة على غير عادته سابقًا، تغير كثيرًا منذ أن جئت معه إلى هنا، يحاول أن يُنسيني ما مضى برسم صورة جديدة له ولا تظهر أمامي سوى حقيقة ما اكتشفته عنه.

انتهينا وأتى أبي بكوب من الحليب وأعطاني إياه لأتناوله، فامتنعتُ فقال بلطف:

- كنتُ أود إعداد الشاي بالنعناع لك كما أخبرتني، لكن هذا سيصيبك بالأرق.

وضع كوب الحليب بين يدَي وأكمل:

- وأنا لا أرغب بهذا، أريد أن تنام باسترخاء كي تسترد عافيتك وتستطيع إرجاع ذاكرتك بالكامل.

أومأتُ له برأسي فسأل بشغف:

- هل تذكرت أين أخفيت الملف؟

أجبته نافيًا برأسي، تابع وهو يمسح على شعري:

- حسنًا، خذ وقتك.

منذ أن أتيت لا يمر يوم دون أن يسألني أبي عن الملف الذي كان يوجد بالخزانة، أتذكره وأتذكر أنني فحصت أوراقه وذاكرته الإلكترونية ولا أتذكر أي شيء آخر، أظن أن سؤاله لميسون كان بشأنه، تُرى ما الذي اكتشفته به ودفعني لإخفائه؟ وما سبب سؤال أبي المتكرر عنه وحرصه عليه لهذه الدرجة؟

• • •

نجحتُ في زرع الثقة داخل أبي ليسمح لي بالخروج وهو مطمئن البال، بعد أن اكتشفت مراقبته لي بإرسال أحدهم ليتتبع خطواتي ويراقب خط سيري كلما خرجتُ من المنزل. أتذكر يوم أن عنفته لهذا الأمر وأخبرته أنه بفعلته هذه يلوث بياض صفحتنا التي نوينا فتحها معًا، كما أنني نسيتُ الماضي ويجب أن يطمئن لأفعالي، فأبدى أسفه لإزعاجي ووعدني بالكف عن مضايقتي. اختبرته بعدها وسعدتُ

بعدم ملاحقته لي وعزمتُ اليوم على الذهاب إلى مقر الخالدين لعلي أراها من بعيد، وقد تؤازرني الصدف بالوقوف جانبي وتكون بمفردها وأستطيع محادثتها ولو لدقائق. مررتُ بشقتي أولًا للإتيان ببعض متعلقاتي، تناولتُ المفتاح من وراء حجر بالحائط المجاور لباب الشقة لا يعلم أحد مكانه سواي، صدمتني هيئة الشقة المقلوبة رأسًا على عقب كأن انفجارًا حدث بالمكان، جميع الخزانات مفتوحة عن آخرها ومُلقى ما بها على الأرض، أُلقيت أحشاء السرير بجانبه بعشوائية، فُرغت جميع محتويات المطبخ بعبثية لكن لم يُسرق غرض واحد من الشقة، كان واضحًا أنها عملية بحث وليست سرقة، وكذلك لم يُكسر الباب ما يعني أن من دخل الشقة كان يحمل مفتاحها ولا أحد يحمله سوى أبي، يبدو أنه جاء إلى هنا للبحث عن الملف الذي يسألني عنه دومًا ولم يجده. زادتْ حيرتي أكثر وأنا أفكر: ما أهمية هذا الملف؟

• • •

امتلأت عينا سارة بالفزع عند رؤيتي أمام باب بيتها، وركضتْ إلى الداخل وهي تصرخ:

- أرجوك لا تقبض علي، لم أعد أنتمي إليهم صدقني.

دلفتُ إلى الداخل وأغلقتُ الباب ورائي وسط ذهولي من ردة فعلها، نظرتْ خلفي ثم انتقلتْ لي سائلة بخوف:

- ألم يأتوا معك؟

سألتُ متعجبًا:

- من هم؟

قالتْ بذعر:

- قوات المجلس.

تملكتني الدهشة من ظنها بمجيئي بقوات المجلس للقبض عليها ولم يرد هذا الخاطر بذهني قط، حاولتُ تهدأتها طالبًا منها الجلوس لأعرف منها ما حدث بفترة غيابي، بعد أن ذهبت إلى متجر العم إبراهيم ووجدته مغلقًا وتبدو عليه أمارات الهجر، واتجهتُ بعدها لبيت ليلى الذي لم تختلف هيئته عن هيئة متجر العم إبراهيم. لا أعلم إلى أين ذهب الجميع ولم أقدر على محاولة الاتصال بليلى، فربما يراقب أبي الهاتف الذي أعطاه لي، خصوصًا بعد إصراره الشديد على عدم إرجاع هاتفي لحوزتي مرة أخرى. لم يكن أمامي خيار سوى الذهاب إلى أي أحد أعرفه من الممكن أن ينبأني بما حدث ولم أكن أعلم غير عنوان بيت سارة فاتجهتُ إليه، قصصتُ على سارة جميع ما مررتُ به لتزداد ثقتها وتطمئن للحديث معي، بدأتْ سارة حديثها بأسى قائلة:

- ظلمتكَ ظنوننا، توهمنا أنك من أبلغت أباك عن ليلى والأستاذ سلامة.

اتسعتْ عيناي من هول ما سمعت سائلًا:

- ماذا تقولين؟

تابعتْ بحزن:

- بعد مرور أسبوعين على اكتشافك لما يخطط له فرع التنقية وذهابك، فوجئ الأستاذ سلامة وليلى بأبيك وهو يصطحب قوات المجلس ويذهب للقبض عليهما، اعتقدنا جميعًا أنك من أبلغته.

صمتتْ برهة وأكملتْ:

- علمنا بعد ذلك من مصدر لنا بداخل المجلس أن ليلى والأستاذ سلامة اعترفا بانتمائهما للخالدين، لكنهما لم يخبرا المجلس بأي معلومات تتعلق بالآخرين رغم الضغط الكبير الذي مورس عليهما.

تابعتْ وهي تنظر إلى عينَي الشاخصتين:

- بالمناسبة، ليلى أخبرت والدك بأمر زواجكما لعل هذا ينجح في استمالة قلبه وينحيه عن إجراء العملية، لكنه لم يفلح.

سألتها وقد بُح صوتي من صدمة كلماتها:

- أُجريت العملية لليلى؟

أومأت برأسها بالإيجاب وهي تقول:

- نعم أُجريت العملية لها وللأستاذ سلامة وتفرقنا من بعدهما. يبدو أن تجمعنا من البداية كان خاطئًا ولم نجنِ من ورائه سوى ضياع كثيرين منا، هشام وليلى والأستاذ سلامة.

هززتُ رأسي نافيًا أحاول تكذيب ما سمعته، قمتُ وبدأت بالدوران حول نفسي تشتعل نار الغضب بداخلي تمد جسدي بطاقة لا يتحملها، فأفرغ قليلًا منها في ضربة سددتها يدي للحائط بقوة، أسرعتْ سارة نحوي وهي تحاول تهدئتي ومواساتي.

قلتُ وحمم الغضب تنتقل إلى صوتي:

- أريد أن أراها.

نهتني سارة قائلة:

- لن تستطيع يا أمجد. لا تجعل اندفاعك يزج بك إلى المهالك، أنتَ تعلم مدى الحراسة المفروضة على سجن الزوال، كما أن أباك عين حراسة خاصة لليلى بعد أن أرسلت إلى هناك.

سألتُ متعجبًا:

- ولمَ؟

أجابتْ سارة:

- هذا ما لا تعرفه يا أمجد، أبوك قبل إجرائه العملية لليلى اكتشف من خلال التحاليل التي أجراها لها أن ليلى حامل.

ثبتتني جملتها بالأرض فتابعتْ بعدما لاحظت مفاجأتي:

- نعم يا أمجد، ليلى حبلى منك ويبدو أن الحمل كان في بدايته لذلك لم تكن هي على علم به، وعندما علم والدك بالأمر أجرى لها العملية مع تعيين حراسة مشددة لها ترعاها وترعى حفيده إلى حين موعد الولادة، وبالتأكيد سيأخذه بعدها.

تضخم وحش الغضب بداخلي وزادت رغبته بإحراق كل شيء غير مبالٍ بالعواقب، هممتُ ذاهبًا من أمامها تتحرك قدماي بوقود السخط، فوقفتني سائلة:

- إلى أين ستذهب؟

- إليه.

- سترتكب نفس الخطأ ثانيةً؟ يا أمجد أنت لا تفهم أباك بعد، والدك شخصية متسلطة ينفذ ما يفكر به وما يراه هو فقط صحيحًا دون السماع لأي شخص آخر، المواجهة لن تفيد بشيء سوى محاولته الوصول إلى مصدر إخبارك بهذه المعلومات والسعي إلى عزلك أكثر، فكر جيدًا قبل أن تتخذ أي خطوة.

على الرغم من غضبي الفائر الذي كاد أن يصم أذني عن كل ما تقوله، فإن كلامها أرجع أمامي شريط ما حدث بالفترة الماضية، كان حديثها صائبًا، لم تفِد المواجهة في المرة الأولى بشيء، رجعتُ لنقطة الصفر ثانيةً بل لأسوأ منها، لذلك يجب عليَّ ترتيب أوراقي والتفكير بالأمر جيدًا. تذكرتُ أمر الملف ومدى اهتمام أبي به، يجب أن أصل لهذا الملف سريعًا ومعرفة ما يحتويه. انطلقتُ من أمام سارة أطوي درجات سلم بنايتها سريعًا تحت قدمَي متجاهلًا نداءها المتتالي، أستدعي تفاصيل آخر مرة كان الملف بحوزتي، كل ما أتذكره أنني تناولتُه من الخزانة ببيتنا القديم وربما أخفيته هناك. صعدتُ إلى

السيارة محددًا وجهتي، وقبل أن أديرها تذكرتُ شيئًا، فتحت سحاب سترتي وأخرجتُ إبرة العقار المختبئة بجيبها الداخلي بحرص، أظن حان وقته الآن.

• • •

(٢١)

(الذكرى الأخيرة)

وقفتُ أمام الخزانة الفارغة تمامًا من أي محتويات، نظرتُ حولي بين أركان القبو وأنا أتذكر آخر مرة عندما كنت به حاملًا الملف بين يدَي، ربما أخفيته هنا بمكان ما غير مرئي للناظر، أخرجتُ العقار ونظرتُ إليه وأنا أشعر بالتردد في استخدامه، كان العقار المتبقي لدى ميسون وأخذته خلسة عندما كان أبي منشغلًا بسؤالها، ولا أعلم ما الذي دفعني لهذا؟ ربما إحساسي أنه توجد تفاصيل أخرى لم أتذكرها وأنني سأكون بحاجة إليه. كشفتُ ذراعي قاطعًا ترددي بوضع سن الإبرة بوريدي الممتد باللون الأخضر تحت جلدي وحقنته ببطء، شعرتُ بدوران الأشياء من حولي واختفاء ملامحها رويدًا رويدًا، لم يقوَ جسدي على المقاومة فسقطتُ أرضًا، أغلق العقار أجفاني بنفوذه وأرسلني بتأثيره إلى خبايا عقلي.

• • •

استيقظتُ بالقبو يفترش جسدي الأرض على هيئته كما هو قبل نومي، لا أدري لماذا لم يسرِ مفعول العقار مثل المرات السابقة؟ ربما كانت ميسون تستخدم شيئًا آخر بجانبه يجعلنا نذهب للذكرى؟ لكن مهلًا، هناك شيء مختلف، القبو خالٍ من الأتربة، قمتُ ونظرتُ من حولي، كان القبو يبدو مرتبًا ونظيفًا غير هيئته السابقة. سمعتُ صوتًا قادمًا من أعلى فصعدتُ متخذًا الدرج، لم تبدُ على منزلنا سمات الهجر كما كان سابقًا بل كان يحظى بالحياة، كان الصوتُ قادمًا من خلف باب لغرفة لم يُغلق بأكمله، أعرف هذه الغرفة جيدًا، إنها غرفتي، اتجهتُ إليها أتطلع لما بداخلها، وجدتني طفلًا بعمر السابعة أجلس أمام شاشة تلفاز يتدلى منها جهاز مربع يمتد منه سلك بيد تحكم أحملها، كنتُ منفعلًا وأصدر ضجة عالية وأنا أضغط على يد التحكم بقوة لأسجل هدفًا بمباراة كرة قدم بلعبة فيديو تحاكي الواقع كثيرًا تبرز تفاصيلها على الشاشة.

صدر صوت أمي عاليًا من الغرفة المقابلة، تنبهتُ للصوت وأنا ابن السابعة وتركتُ يد التحكم أرضًا واتجهتُ نحو الغرفة أمشي على أطراف أصابعي حتى وصلتُ وألقمتُ عيني خصاصة الباب، اقتربتُ مني ووضعتُ أذني لأسمع ما يدور بالداخل ويسترجع عقلي المشاهد التي رأيتها وأنا صغير، كانت أمي تبدو غاضبة، تمشي بأنحاء الغرفة بغير اهتداء تعنف أبي قائلة:

- رأيتك وأنت تهمس لها، بالتأكيد كنت تخبرها عني وعن مساوئي.

قام أبي من مكانه وحاول أن يمسك بيديها لكنها نزعتهما سريعًا، فقال بهدوء:

- هالة حبيبتي لا يوجد أي شيء من هذا، كنتُ أهمس لأختي مخبرًا إياها أنني أريدها في أمر ما متعلق بميراثنا، وهمستُ بأذنها لأنني خفتُ أن يسمعنا زوجها، فكما تعلمين هو شخص جشع.

قالتْ أمي بغضب:

- لا تكذب. لاحظتُ نظراتها إلي بعد أن همست لها.

- كانت تنظر إليكِ بتلقائية، أنتِ من توهمتِ أنها تنظر إليكِ بغضب.

قالت مستنكرة:

- توهمت؟

أجاب أبي مؤكدًا:

- نعم توهمتِ. وتدرين لماذا؟

اتجه إلى درج خزانة مجاورة له وأخرج منه شريط دواء كامل الأقراص وتابع:

- لأنكِ توقفتِ عن أخذ الدواء.

- أنا لستُ مريضة.

قال أبي بغضب أسكن أمي تمامًا:

- بلى أنتِ مريضة ذهان يا هالة، الأطباء هم من شخصوا حالتك ولستُ أنا.

وضعت أمي يدها على صدرها وامتلأت عيناها بعبرات الألم، اقترب منها أبي وأمسك كتفيها وقال بود:

- هالة أرجوكِ تناولي العلاج وارحميني وارحمي ابنكِ الصغير من هذا العذاب، أرجوكِ.

كان أبي محقًا في ما أخبرني به، كانت أمي مريضة بمرض الذُهان، همَّ أبي بالخروج تاركًا أمي خلفه فاتجهتُ وأنا ابن السابعة إلى غرفتي سريعًا وأغلقتُ الباب. مر أبي من أمامي ولكنه تبخر فتوهمتُ أن العقار انتهى وقته، ولكن بقي البيتُ كما هو، تعاقب الليل والنهار على منزلنا بشكل سريع جدًا، كنا نخرج أنا وأمي وأبي خارج المنزل ونعود ونمارس حياتنا، لاحظتُ جسدي وهو يكبر شيئًا فشيئًا. يبدو أن عقلي يجري بالأحداث سريعًا لأصل إلى ذكرى أخرى ببيتنا. توقف إيقاع الأحداث فجأة وكان الوقتُ ليلًا، استيقظتُ من نومي وكنتُ أبدو في التاسعة بذلك الوقت متجهًا إلى المرحاض، سمعتُ بطريقي صوت بكاء أمي خارجًا من غرفة المكتب فدلفتُ إليها وأنا أفرك عيني من أثر النوم، لم تكن تنتبه لي كانت أمامها أوراق تنظر

إليها وعلى وجهها أثر الصدمة، تفاجأت بوجودي عندما سألتها عن سبب بكائها فضمتني وأخبرتني أنها بخير. يبدو أنها في هذه اللحظة اكتشفتْ أمر أبي، تتالت الذكريات بعدها تذكرني بتفاصيل هذه المرحلة والسبب وراء كثرة شجار أمي وأبي الذي لم أكن أعرفه حينها، حتى جاء يوم تلك الذكرى، أيقظتني أمي مبكرًا وأمرتني بارتداء ملابسي، سمعتها وهي تحدث إحداهن قائلة:

- هل وصلتِ إلى محطة القطار؟ حسنًا أنا قادمة إليكِ، سأحاول تضليل الحراس لأصل في أقرب وقت، نعم تأكدتُ أنه عيَّن حراسًا لمراقبتي بعد ما كثر تهديدي بالرحيل دون رجعة بالآونة الأخيرة.

أنهت المكالمة وذهبتْ إلى الغرفة وأخذتني من يدي، وضعتني أمام الباب وقبل أن نذهب رجعتْ إلى الخلف وابتعدت عني، وضعتْ يدها على فمها وأخذت في البكاء بقطرات تحمل قهرًا لم أرها وأنا طفل وقتها ورأيتها الآن، لم أكن أعلم حينها أن هذا اليوم سيصبح أسوأ أيام حياتي بانتحارها، أوجعني بكاؤها وهممتُ بفعل ما لم أفعله وأنا طفل، اقتربتُ منها أربتُ على كتفها لكنها لم تكن تشعر بوجودى ولا بفعلي، مسحتْ دموعها سريعًا وجاءت إلى الباب وسحبتني صغيرًا للخارج قائلة:

- هيا.

خرجتُ وراءها أتتبعها وأنا أعلم مسبقًا ماذا سيحدث، لكن ما إن وصلت لباب سور الحديقة الخشبي المحيطة بمنزلنا حتى تبخرتْ وتبخرتُ معها، ظللتُ واقفًا بالحديقة أنتظر تبخر البيت لكنه بقي، لم تجمعني به ذكريات بعد ذلك من عمري فلماذا ما زال هنا؟ مضتْ لحظات فوجئت بعدها بقدومها من بعيد، ليلى! ترتدي فستان زفافنا وتحمل بيدها باقة ورود التوليب، تمشي ببطء تجاهي كما كانت تمشي بجانب والدها يوم عرسنا ، وقفتْ أمامي تنظر إلى عيني بعتاب محب، قلتُ وقد جرى بعيني الدمع:

- ليلى أنا آسف، أعتذر إليكِ.

لم تجِبني بشيء، ابتسمتْ بحنو كعادتها ورفعتْ يدها وربتتْ على وجهي بلطف كأنها تواسيني، فوجئت بظهور أمي من خلفها، كانت تبدو جميلة كهيئتها عندما كنتُ صغيرًا قبل أن يصيبها الاكتئاب، ابتسمتْ لي أيضًا ومدتْ يدها من خلف ليلى وربتتْ على وجهي مثلها. كانت هذه اللحظة من أجمل لحظات حياتي، أمي وليلى معًا تشعران بألم ما مررتُ به وتواسيانني بحنان فقدته في كثير من سنوات عمري. ارتفعت يد أمي الأخرى أمام عيني بقلادة وناولتني إياها، قلادة! كانت قلادة أمي المحتوية على صورتنا معًا أنا و كانت ترتديها باستمرار، فتحتها وتذكرتُ كل شيء في هذه اللحظة، بدأتْ بعدها مباشرةً نيران لا أعلم مصدرها تأكل البيت من خلفي ليتبخر ذاهبًا مع كل جزء يحترق منه، امتدت النيران إلى الحديقة التي اشتعلت

بأكملها وبدأت بالتبخر أيضًا، فهمتُ من هذه العلامات أن وقت العقار بدأ في النفاد، وضعتُ يدي بقوة على يدَي أمي وليلى الراقدتين على وجهي وأنا أتوسل إليهما باكيًا:

- أرجوكما لا تتركاني، خذاني معكما أو ابقيا معي. أنا في حاجة إليكما.

ابتسمتا بإشفاق ولم تتكلما بأي شيء، بدأتا بالتبخر شيئًا فشيئًا وانسلتّ يداهما من تحت يدي حتى اختفتا تمامًا، بدأتُ بعدهما بالتبخر أنا أيضًا وما زالت دموعي تجري بعد أن تأكدت أن جميع أمنياتي صارت مستحيلة، وأنني سأعود الآن إلى واقعي الأليم.

• • •

أخذ جسدي قرابة الساعة حتى يتعافى من تأثير العقار دون تناول القرص، استطعتُ أن أتحرك أخيرًا وإن كان الإنهاك ما زال يلازمني، صعدتُ الدرج إلى الأعلى ونظرتُ إلى البيت المغطى أثاثه بالشراشف البيضاء ويحتل الغبار كل جزء من أركانه، وتذكرت كيف كان يبدو بهيًا وجميلًا بالذكرى منذ وقت قليل. اتجهتُ إلى غرفة الطعام قاصدًا الساعة الكلاسيكية التي تقبع بها، فتحتُ باب البندول النحاسي المتدلي منها، مددتُ يدي والتقطتُ القلادة من ورائه، فتحتها فرأيتُ صورتي أنا وأمي ونحن مبتسمين يتلاصق وجهانا. نزعتها فوجدتُ تحتها الذاكرة الإلكترونية والورقة الصغيرة التي كانت موجودة بالملف مطوية بجانبها، تذكرتُ عندما أخفيتُ الذاكرة الإلكترونية هنا بعدما فحصتها وعرفتُ ما تحتويه، الآن فهمتُ سبب

حرص أبي على الملف ولا أستبعد أن يكون قد أرجع ذاكرتي لمعرفة مكانه فقط. دسستُ القلادة بجيبي متجهًا إلى الخارج وقد اهتديتُ لمعرفة ما يجب عليّ فعله، أتخذ بقوة دون رجعة قراري الأخير.

• • •

تبعثرت خلايا وجه أبي فزعًا وهو ينظر إليَّ وإلى القيد الحديدي المحيط بيدَي بعدما أُبلغ من قِبل المجلس أن واحدًا من (الخالدين) سلم نفسه، ويجب عليه المجيء للشروع بتنفيذ العقوبة، وتفاجأ برؤيتي محاطًا من قِبل القوات كمجرم حرب يخشون هربه. أخذني من بينهم و سألني مندهشًا بغضب ثائر:

- هل جننت؟ ما الذي فعلته؟

أجبته بهدوء:

- أسأل نفسي دومًا نفس سؤالك: ما الذي فعلته؟

نظر إلي مستغربًا فتابعتُ:

- ما الذي فعلته لتفعل بي كل هذا؟ لماذا شوهت روحي إلى هذا الحد وحمَّلت قلبي كل هذه الآلام؟

قال مستنكرًا:

- أنا يا أمجد! بعد كل ما فعلته من أجلك طيلة عمري تقول هذا؟ أنا لا أفعل شيئًا إلا بدافع خوفي عليك، أنت لا تعلم مقدار حبك بداخلي.

- أعلم، لكنه حب مؤذٍ إلى درجة الكره، حب أناني دمر حياتي، لم يستوعب عقلكً أن أعيش كما أحب وأن أنتهج ما أراه صحيحًا، طيلة حياتك شخصية مسيطرة على كل من حولك لا تستوعب أن يخالفك أحد الرأي، متسلط ترى كل ما تفعله صحيحًا، تقوم بأفعالك دون النظر إلى العواقب.

صمتُ برهة وأكملت:

- أتعلم يا أبي، إن نظرتَ جيدًا إلى علاقتنا ستجد أنني من يحمل لك الحب خالصًا، كنتُ أود أن أنتقم منك، حقيقي رغبتُ في هذا ولم أقدر.

نظر إليَّ وقد لمعتْ عيناه بدموع تحمل وجعًا قائلًا:

- كذبت، ما تفعله الآن بي شر انتقام.

- هذا أفضل حل، في كل مرة سأرى وجهك سأتذكر جميع ما فعلته، أريد أن أنسى كل شيء دون رجعة، أريد أن أنساك يا أبي ولا أعرفك يومًا.

هز رأسه نافيًا:

- لن أجري هذه العملية.

ابتسمتُ ساخرًا وأنا أقول:

- ستجريها، هل تعرف لماذا؟ لأنك تعلم جيدًا أن الخيار الثاني لديهم الآن هو قتلي. أتتذكر وقت هشام عندما أخبرتني أن

تهمة الانضمام إلى الخالدين خط أحمر؟ أم أنك نسيتَ جملتك؟

اقتربتُ منه ناظرًا إلى عينيه قائلًا:

- ولو أخرجتني من هنا سأذهب لوسط المدينة وأقف بالميدان وأصرخ في الناس أنني من الخالدين، وبالتأكيد تعرف ماذا سيجري حينها بعدما نجحتم في زرع الحقد والضغينة بداخل صدورهم تجاهنا، سيتمون الأمر بأيديهم دون إبلاغ المجلس.

قال بصوت يحمل الألم:

- تجاهنا؟

- نعم يا أبي، أنا أنتمي إليك نسبًا ودمًا، لكنني لم أنتمِ يومًا إلى روحك، روحي بينهم لذلك قررتُ الذهاب والعيش بجوارهم، مؤكد أنني لن أتذكرهم أبدًا بعد نزع ذاكرتي، لكن روحي لن تنسى شعور الأمان بقربهم.

طأطأ رأسه بحزن فأردفتُ:

- أعلم أنني وضعتك بموقف لا تحسد عليه، ولكن أنت من وضعتني به قبلًا وأظن أنه آن الأوان لتدفع ثمن القليل من أفعالك. أجرِ العملية وستحظى برؤيتي، على الأقل أفضل من قتلي وعدم رؤيتي نهائيًا.

قلتُ برجاء:

- هذا طلبي الأخير منك يا أبي وأرجو أن تلبيه.

خر راكعًا على ركبتيه وأجهش بالبكاء بقوة، تعالى أزيز صدره حتى تقطعت أنفاسه، جاء فردان من قوات الأمن واقتاداني إلى غرفة العمليات.

• • •

(٢٢)

(البداية)

بعد مرور ثلاثين عامًا...

كمدرج فيرونا الروماني تراصت المقاعد ذات الأقمشة المخملية الحمراء بانتظام داخل قاعة مستطيلة الشكل بوافر من الفخامة، انفتحت الأبواب وبدأت الجموع بالتدفق، دلف كبار الزوار بتأنٍّ خلق لهم هالة من الحزم، استقرّ بعضهم بجانب بعض حتى امتلأت القاعة عن آخرها، تعالت الهمهمات والأحاديث المتبادلة وتجمعت حتى صارت كطنين النحل، أسكتتها دقات إصبع متتالية على ميكروفون بحجم حبة الزيتون لمتحدث يقف على منصة المسرح، بدأ حديثه بصوت حيوي بعد تأكده من استقرار الطير على رؤوسهم:

-أرحب بهذا الجمع الطيب من كبار الزوار والشخصيات المهمة، ويشرفني أن أدعو الطبيبة (فريدة أمجد عبد القادر سند) للصعود إلى خشبة المسرح لتتسلم جائزة (السعي)، لدورها الفعال في مساعدة أقرانها من الشباب والفتيات على تطبيق أفكارهم المميزة النافعة لبلادنا، وتقديمها إلى مجلس إدارة العهد الجديد بصورة ترقى إلى تطبيقها.

برزتْ بفستان زمردي أنيق تمشي بثبات إلى المنصة وتصعد درجاتها بتأنٍ، هش وجهها لرجل في العقد الخامس من عمره يستقبلها بابتسامة واسعة، سلمها درعًا فضية على هيئة تمثالين صغيرين يتصافحان، فضجت القاعة بالتصفيق، تقدمتْ خطوة وهي تحمل الدرع تقف بثبات رضوخًا لطلب المصورين. طلب منها مقدم الحفل إلقاء كلمة ولكنها اعتذرت إليه بأدب، رجعتْ إلى مقعدها مرة أخرى وهي تدقق النظر إلى تفاصيل الدرع وقد نُقش اسمها تحته بخط عربي ديواني بديع، انحنى من كان يجلس بجانبها نحوها قائلًا بصوت هامس:

- مبارك.

ابتسمتْ بخجل:

- شكرًا لك دكتور فاروق.

تابع مثنيًا عليها:

- أتوقع لكِ مستقبلًا باهرًا، فبجانب تفوقك في مجال المخ والأعصاب مثل جدك تساعدين أيضًا الشباب وتحققين أحلامهم وتنفذين أفكارهم.

- لم أفعل شيئًا، أنا أداة وصل لا أكثر.

أكمل سائلًا:

- بالمناسبة، كيف حال جدك الآن؟

أجابتْ بأسى:

- عاد مرة أخرى إلى جهاز التنفس الصناعي وأوصاه الطبيب بالراحة التامة، صار غير قادر على مغادرة سريره أو التحدث كما كان من قبل.

هز رأسه حزنًا وهو يقول:

- نفتقد وجوده كثيرًا بيننا، أوصلي إليه سلامي.

أومأت برأسها موافقةً على طلبه. مر وقت الحفل ثقيلًا على قلبها حتى انتهى، اتجهتْ مسرعة إلى الخارج ودلفت إلى السيارة وهي تقول للسائق:

- أسرع يا عصام تأخرتُ عن العيادة اليوم.

وصلتْ إلى وجهتها وقد أعاقتها زحمة السير عن الوصول مبكرًا، ولجت إلى العيادة وسط المقاعد المشغولة بأكملها في انتظارها.

بدأت بالكشف على المرضى الذين كانوا جميعًا من كبار السن، تصب شكاواهم في مجرى واحد بأشكال مختلفة عن رؤيتهم لخيالات أشخاص وأماكن لا يعرفونهم، تأتي صورهم أمامهم في شكل ومضات يصاحبها صداع. لجأتْ إلى جدها للوصول إلى علاج مناسب لهذه الحالة بعدما أخبرته بتكرار الشكوى من قِبل كثير من الأشخاص، ودلها على أقراص ساهم في وضع تركيبتها وأوصاها بوصفها لهم، مؤكدًا أنها ستُذهب عنهم تلك الصور.

طقطقت رقبتها وأدارتها يمنة ويسرة وهي تحاول استدعاء رمق أخير من الطاقة يساعدها على الصمود لمعاينة الحالة الأخيرة بيومها.

دلفتْ امرأة يبدو من ملامحها الفاقدة لريعان الشباب أنها تجاوزت سن الخمسين بعدة سنوات، استقرت بالمقعد المقابل لها وظلتْ تتأمل ملامحها للحظات، ثم بدأت حديثها:

- تشبهين أباكِ وتملكين عينَي أمك.

رفعت نظرها إليها بتوجس، ثم ابتسمتْ قائلة:

- ما الذي تعانين منه؟

- أعاني من ثقل الكتمان ووجع الخذلان.

حكت فريدة ذقنها وهي تقول:

- اممم، فهمت.

قامت من مقعدها وجلست بالمقعد الموازي لمقعد المرأة، والتقطت ورقة صغيرة من على المكتب وكتبت شيئًا ما بها وأعطتها لها قائلة وهي تبتسم:

- هذا الطبيب سيساعدك أفضل مني، أخبريه أنني من أرسلتك إليه.

تناولتها منها ثم قالت ساخرة:

- ترسلينني إلى طبيب نفسي؟ تظنين أنني مريضة نفسية؟

اقتربتْ منها فريدة وربتت على كتفها قائلة:

- المرض النفسي ليس عيبًا، مثله مثل أي مرض، كل ما نحتاج إليه أن نوجهه ونحسن التعامل معه، وأظن أن الطبيب الذي كتبت اسمه بالورقة سيجيد هذا الأمر.

قامتْ ونظرت إلى عينيها بحدة وقالت بجدية:

- اسمعيني جيدًا، ترك أبوكِ معي شيئًا لكِ قبل ذهابه وأوصاني بتسليمه إليكِ إن استطعت، وعشتُ طَيلة حياتي أعاني من الاختباء والتنقل بين الأماكن من أجل هذه اللحظة.

أخرجتْ دفترًا ورقيًا وظرفًا أبيض كبيرًا وأعطتهما لها، فردتهما إليها قائلة:

- سيدتي، يبدو أنكِ تخلطين بيني وبين شخص آخر.

أعطتها الدفتر والظرف بقوة قائلة:

- لا، أنا أعرف من أنتِ جيدًا، خذي هذا الدفتر واقرأيه بتمعن وستفهمين ماذا يحتوي الظرف بعدها.

تناولتهما منها رغبةً في إسكاتها أمام إصرارها لا أكثر، كتبت شيئًا ما بنفس الورقة التي دونتْ بها فريدة رقم الطبيب النفسي وأعطتها لها قائلة:

- هذا رقمي، أظن أنكِ ستحتاجين إلى محادثتي يومًا ما.

التقطت حقيبتها ونظرتْ إلى عينيها وقالت:

- آمل أن تكون بقايا أمكِ وأبيكِ ما زالت داخلكِ ولم تُطمس بعد.

توجهت إلى الخارج ثم توقفتْ عند الباب قائلة:

- بالمناسبة، اسمي سارة.

• • •

مر أسبوع انشغلتْ خلاله فريدة كثيرًا ونسيتْ أمر الدفتر والظرف، بعد ما وضعتهما ليلتها بإهمال على مكتب غرفتها المليء بالأشياء غير آبهة بأمرهما. عادتْ من عملها في وقت متأخر من الليل وألقت بجسدها كما هي بملابسها تنظر إلى السقف في تعب شديد ولا تقوى على القيام بأي أمر، جاء قطها فوقها يداعبها فحاولت إزاحته لكن الثاني لم يمل، فزجرته فريدة بلطف:

- ابتعد عني يا كاظم.

قفز فوق المكتب الموازي للسرير وعبث بأشيائه بيديه فأسقط الدفتر أرضًا فانبسطتْ دفتاه وسقط معه الظرف، انزعجت من الضجة التي أحدثها وأولته ظهرها تنظر إلى الحائط وتنام على جانبها الأيمن. لمحتْ عيناها شيئًا في أثناء التفافها فرجعتْ برأسها مرة أخرى إلى موضع الأرض لتتأكد مما رأته، كان الظرف قد انفتح

وظهر جزء مما بداخله، قامتْ واتجهتْ إليه والتقطت القلادة من جوفه تتفحصها بعينيها، أعادتْ النظر إلى داخله فوجدت أوراقًا حاولت قراءتها لكن لم تفهم منها شيئًا، نظرتْ إلى الدفتر المصفرة أوراقه والتقطته من على الأرض، ذهبتْ به إلى مكتبها وأتت بأول صفحة وبدأت بقراءة السطور:

إن كنت تقرأ هذا الكلام الآن فهذا يعني أن سارة نجحتْ في توصيله بأمان إليك أو إليكِ، حتى هذه اللحظة لا أعلم هل أنت صبي أم فتاة، لا يهم، المهم أنك موجود وأنك بالغ الآن وأنك قطعة مني ومن أمك الجميلة (ليلى)، أريد أن أقص عليك الآن حكايتي فاقرأ وعِ، فأنا أعلم أنك لا تعرف عن حقيقتي ولا عن حقيقة والدتك شيئًا. لكن من أين أبدأ؟ حسنًا، سأبدأ منذ أن استيقظتُ يومًا فاقدًا لذاكرتي ووجدتُ نفسي بمكان غريب يشبه القبو بصحبة امرأة تُدعى (ميسون).....

• • •

أمرتْ سارة فريدة أن تترجل عن السيارة وتمشي وراءها، بعد أن حدثتها فريدة بالهاتف وطلبتْ لقاءها ووصفتْ لها عنوانًا أتت إليه، ظلتْ تتبع خطاها وقد بدأ التعب يتسلل إلى قدميها من كثرة المسير، يتوغلان في أطراف المدينة النائية ويبتعدان عن السيارة بكثير، توقفتْ سارة فوق لوح خشب حُفر مكانه بالأرض وضربتْه بقدمها مرتين وابتعدتْ، فانزاح الغطاء من أسفل كاشفًا عن حفرة

ضيقة عميقة، نزلت وتبعتها فريدة متخذين سلمًا مكونًا من ألواح خشبية متوازية ومثبتًا بحبلين مفتولين. استقرتا أخيرًا على الأرض وقد رحبتْ بعد ضيق الممر وامتدتْ، كانت توجد مقاعد وطاولات يجلس عليها أناس لم ترهم فريدة من قبل، أحست بالرهبة عندما وجدتهم جميعًا يحدقون بها وكان أكثرهم بعمر الخمسين. بدأت سارة حديثها:

- أخبرتِني في الهاتف أنكِ قرأتِ ما خطه أبوكِ بهذا الدفتر وأن لديكِ أسئلة، تفضلي بطرحها.

قالتْ فريدة وهي تنظر إلى الجميع:

- كنتُ أود أن يكون لقاؤنا على انفراد.

قالت سارة وهي تنتقل بينهم:

- لا أحد غريب هنا، جميعنا واحد.

سألتْ وهي تبتلع ريقها:

- وهل أنتم الـ؟

- الخالدين.

قالتها سارة بثبات هز فريدة، وتذكرت ما قرأته عنهم في المذكرات التي أعطتها لها سارة. استجمعتْ رباطة جأشها وقالت:

- كل ما ذُكر بهذه المذكرات غير صحيح، جدي أخبرني أن أمي وأبي توفيا بحادث عندما كان عمري عامًا واحدًا، ومن حسن الحظ أنهما تركاني معه هذا اليوم، لولا هذا لكنتُ مت معهما.

اقتربت منها سارة ونظرت إلى عينيها سائلة:

- وهل أتيتِ إلى هنا لتخبريني بهذا؟

قالت فريدة بارتباك:

- نعم.

- كاذبة. قالتها سارة بثقة ثم تابعتْ:

- لقد أتيتِ إلى هنا لأن ما قرأته أصابكِ بالارتباك، وحدثكِ عقلك: ماذا لو أن ما ذُكر بهذه المذكرات صحيح؟

صمتت برهة وأكملتْ:

- أما السبب الحقيقي لمجيئك هنا هو أنكِ فحصتِ الذاكرة الإلكترونية بالقلادة، وبحكم أنكِ طبيبة مخ وأعصاب عرفتِ علامَ تحتوي، وتأكدتِ أن الخط الذي تحمله الورقة المطوية خط جدك، وتفحصتِ كذلك أوراق العقود المبرمة بين المجلس وبينه.

قالتْ وهي تتنقل بين الطاولات:

- ظن جدك أن هذا الأمر ذهب مع ذاكرة أبيكِ، لاعتقاده أنه لم يتذكر أين وضع الملف لآخر لحظة واطمأن إلى هذا الاعتقاد، وما علم أن أباكِ تركه معي قبل ذهابه وحملني مسؤولية تسليمه لكِ مع مذكراته. كان على إيمان تام أن ابنه أو ابنته سيكون مختلفًا وأنه الوحيد القادر على إتمام الأمر.

واصلتّ وهي تتجه إلى فريدة:

- كدتُ أيأس بعدما أخفاكِ جدك لدرجة جعلتني أظن أنه قد تكونين توُفّيتِ في أثناء ولادتك، حتى وجدتكِ برفقته وأنتِ ابنة اثني عشر عامًا في أحد المؤتمرات، وسمعت حديثه عنكِ وعن توسمه فيكِ بأنكِ من ستكملين الطريق من بعده. ظللتُ أنتظر وأنتظر وأراقب من بعيد وحدث ما اعتقدته، أدخلكِ نفس مجاله لتُكملي ما بدأه.

قالت بحنو:

- لكن ما زالت بقايا أمك بداخلك، فتحتِ عيادتك الخاصة لمساعدة المرضى بجانب مساعدتك للشباب، وابتعدتِ تمامًا عن المجلس عكس ما كان يرغب فيه جدك، مما حفزني أكثر أن أطرق بابكِ، لكنني انتظرت حتى اللحظة المناسبة.

كانت فريدة تدور بعينيها في الأرجاء بحيرة تحاول أن تنفي ما تدعيه سارة، ولكن مطالعة الأوراق والذاكرة الإلكترونية تثبت ما تدعيه.

اقتربت سارة من فريدة وهي تنظر إلى عينيها وقالتْ بقوة:

- فريدة، أنتِ الأمل الوحيد المتبقي لأهل هذه البلاد، بعدما نجح جدك بتفريق الخالدين منذ ثلاثين عامًا، تجمعنا منذ سنوات عدة واتحدنا ثانيةً وأصبحنا أقوى مما قبل، لدينا خطة محكمة للسيطرة على مجلس إدارة العهد الجديد لكننا نملك محاولة واحدة فقط، محاولة واحدة إما أن تنجح وتحقق هدفها -ولن يحدث هذا إلا بمساعدتك- وإما أن يُقبض علينا جميعًا وتذهب آخر ذاكرة عامرة لهذه البلاد وينتهي أمرها إلى الأبد.

تنقلت بين حدقتيها وأكملتْ:

- أوجدي طريقة لنشر المعادلة التي بداخل الذاكرة وأنقذي هذه البلاد.

قالتها سارة وانتقلت لطاولة قريبة وجلستْ بها مثلها مثل البقية الذين تعلقت أنظارهم بفريدة، وقد تجسد بها الأمل الوحيد المتبقي لديهم راجين عدم الخذلان.

نظرتْ إليهم فريدة وقالت بثبات:

- أنا أعرف طريقة لنشر المعادلة وسأساعدكم.

تهللت وجوههم فرحًا وتعالتْ صيحات الحماس لأول علامة نصر لاحت في أفق التحرر.

• • •

بعد ثلاثة أشهر..

دخلتْ فريدة غرفة جدها بعد منتصف الليل وجلستْ بجواره على طرف سريره، فاستيقظ لما أحس بها وابتسم لها فردتْ إليه الابتسامة، أمسكت بيديه اللتين أصابتهما رعشة دائمة لا تفارق أطرافه واحتضنتهما، أنزل بيده الأخرى قناع التنفس الصناعي القابع على أنفه وفمه إلى رقبته وقال بصوت متهدج متقطع أصابه وهن العَجَز:

- ما الذي أيقظكِ من نومك؟

هزتْ رأسها نافية:

- لم أنم من الأساس ياجدي.

التقطتْ شيئًا من جيب سترتها، وما إن لوحت به أمامه حتى غزت المفاجأة ملامحه، وسأل مستغربًا:

- من أين جئتِ بهذه القلادة؟

- كنتُ أعلم أنك ستتذكرها رغم عدم رؤيتك لها منذ زمن، قلادة جدتي.

فتحتها وتناولت الورقة المطوية بداخلها وفردتها أمام عينيه اللتين غرقتا في بحر من الذهول قائلة:

- هل تتذكر هذه أيضًا؟ معادلتك.

ابتلعت الصدمة لسانه فأكملتْ:

- توصلتَ إلى هذه المعادلة منذ زمن بعيد بعدما اخترعت جين مسح الذاكرة، واحتفظتَ بها لنفسك دون إخبار أي أحد، المعادلة المضادة التي تبطل تأثير الجين وتعيد الذاكرة مرة أخرى إلى العقل. نجحتَ بتطبيقها في شكل عقار وكان هو نفسه الذي استخدمته في إرجاع ذاكرة أبي عن طريق الطبيبة ميسون، بعد أن اكتشفتَ أن أبي أخفى الورقة التي كتبت المعادلة بها، والذاكرة الإلكترونية التي فهم منها أبي من خلال شرحك في فيديو أهمية هذه المعادلة وتأثيرها، لذلك أُصبت بالذعر عندما علمت أنها أصبحت بحوزته وعملت جاهدًا لإرجاع ذاكرته ليدلك على مكان الملف خوفا من أن يصل ليد أخرى، لكنك لم تتوصل إلى شيء وشعرت بالارتياح بعدما ظننتَ أن الأمر ذهب مع ذاكرة أبي ولن يعلم به أحد، وما دريتَ أن أبي كان يخطط لأبعد من هذا بعدما وجد نفسه وحيدًا ولن يقدر على المواجهة، فاختار طريقه وأورثني هذا إيمانًا منه أنني ربما أستطيع تغيير ما لم يقدر على تغييره.

فغر فاه وشخصتْ عيناه من هول ما سمع ولم ينطق بشيء، فتابعتْ:

- أتعلم يا جدي؟ على الرغم من كل هذا فإنني أدين لك بالشكر، شكر على تربيتك لي وتعليمك إياي ومساعدتي لأتخصص بنفس مجالك، فلولا هذا لما عرفتُ طريقة تحويل المعادلة من عقار إلى جين يحمله فيروس ينتشر داخل البلاد ليستعيد أهلها ذاكراتهم، كما فعلتم من سنين وقمتم بمسحها وتحكمتم بهم كالدمى.

اقتربتْ منه ونظرتْ إلى عينيه وقالتْ بصرامة:

- لا تعلم مدى سعادتي أنك ما زلتَ حيًا حتى هذه الليلة التي سترى فيها بعينيك هدم كل ما بنيته طيلة حياتك، ستقف في محاكمة عادلة يا جدي عن كل ما صنعته أنت وجماعتك المأجورة، وسأكون أنا أول من يقف أمامك ويقتص منك.

قالتها ثم قامتْ متجهة إلى المركز الطبي الخاص بالمجلس وقد نجح (الخالدين) في السيطرة عليه لتستخدم نفس الأداة التي استخدمها جدها منذ زمن لمسح ذاكرة البلاد، ولنشر جين يبطل الجين الأول وإعادة الذاكرة إلى أصحابها. امتصت الصدمة جميع هواء الغرفة فضاق صدره وتسارعت نبضات قلبه، وأخذ يلهث بقوة يحاول التقاط أنفاسه فلم يعد قادرًا على الصمود. تتالى صوت

إنذار بشكل منتظم ومتكرر من جهاز القلب الذي يجاوره يدل على اضطراب حدث بدقات قلبه، ثبت الصوت على وتيرة واحدة بعد أن استقام خط نبضات القلب عن تعرجاته، وفارقت روحه جسده بفعل صدمة أتته من حيث لم يحتسب .

• • •

بعد ستة أشهر..

جلست فريدة بجوار أمجد وليلى بحديقة البيت الذي تربى فيه أمجد بعد أن هُجر سنوات طويلة، وقررت الرجوع إليه للعيش فيه برفقة والديها بعدما أُخرج جميع القابعين بسجن الزوال وهُدم ليتساوى بالأرض. تناولت قطعتَي كعك وناولت كل واحد منهما قطعة وبدآ بأكلها وهما ينظران إليها بتردد. قالتْ وهي تبتسم لهما:

- أنا ابنتكما، اسمي فريدة وأحبكما كثيرًا.

أشارت إلى سارة وهشام الجالسين أمامهم وأكملتْ:

- وهذان صديقان لكما، سارة وهشام.

هزا رأسيهما وأكملا أكل قطع الكعك، وكذلك فعل هشام بعد أن عرفته سارة بنفسها وأعطته قطعة كعك هي الأخرى.

قامت فريدة للداخل لإحضار العصائر وتبعتها سارة، نظرتا إليهم من شباك يطل على الحديقة تتأملانهم وهم ينظرون إلى بعضهم بصمت ويحدقون بكل شيء حولهم. قالت سارة:

- أتعلمين؟ على الرغم من سعادتي برجوع ذاكرة أهل البلاد إليهم مرة أخرى والقضاء على المجلس وزبانيته، وإخراج الكتب ورجوع المكتبات وانفتاحنا على العالم من جديد، وإرجاع سلطة القرار بيد كل شخص بهذه المدينة واسترداد حريته، فإن أكثر من يحزنني هم ضحايا سجن الزوال، هشام وأبوكِ وأمك وكثيرون غيرهم، فبعد انتزاع مركز الذاكرة من عقولهم نهائيًا لا أمل في رجوع ذاكراتهم مرة أخرى.

قالت فريدة بعد أن تنهدتْ:

- لا يهم، المهم أنهم معنا الآن وبجوارنا، نتمتع برؤيتهم ونحتمي بدفئهم، ابتسامة أبي وأمي لي كل يوم قبل خلودهما للنوم تساوي حياتي. أتعلمين؟ على الرغم من فقدهما لذاكرتيهما فإنني أشعر بتواصل أرواحنا. أنا على استعداد لأن أتحمل إرهاق تعريف نفسي إليهم في كل دقيقة مقابل أن أظل أشعر بهذا التواصل، لا أريد منهما شيئًا سوى أن يظلا بجواري، فمجرد وجودهما يمنحني أمانًا لم أكن لأقدره حق قدره إلا بعد أن شعرت بمرارة فقده طيلة عمري.

ابتسمتْ سارة لفريدة وربتت على كتفها، تناولتا العصائر واتجهتا خارجًا، أفرغتْ فريدة علبة عصير بكوبين وناولتهما لأمجد وليلى وهي تقول باسمة:

- أنا ابنتكما، اسمي فريدة وأحبكما كثيرًا.

(تمت)